

سلسلة الدراسات الإفريقية

التعليم العربي الإسلامي في إفريقيا

تحرير

أ.د/ جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية
أستاذ القانون الدولي بجامعه الأزهر

أ.د/ عبد الرحمن عمر الماحي

رئيس جامعة الملك فيصل بتشاد




دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر .القاهرة-المنصورة
ت : ٠٠٢٠١٠٠٩٧٠٧٤٩٥ & ٠٠٢٠١٠٦١٣٠٢٥٥٢
facebook.com/DarAlkalema
www.daralkalema.com
دار الكلمة للنشر و التوزيع
تطلب منشوراتنا من الدار العالمية للكتاب
الدار البيضاء ٦٣ شارع مولاى ادريس الأول ت:٠٥٢٢٨٢٨٨٢١-٠٥٢٢٨٣٣٦٠٨


9 789773 114619 >

التعليم العربي
الإسلامي في إفريقيا

بطاقة الفهرسة

عبد السلام / جعفر

التعليم العربي الإسلامي في إفريقيا : الأستاذ الدكتور /

جعفر عبد السلام ط ١ . - المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٥م

٣١٦ ص ، ٢٥سم .

رقم الإيداع : ٢٠٧١٢ / ٢٠١٣م

أ- العنوان :

تدمك : ٩ - ٤٦١ - ٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨



رابطة الجامعات الإسلامية



رابطة الجامعات الإسلامية
سلسلة الدراسات الإفريقية

العدد الأول

التعليم العربي الإسلامي في إفريقيا

تأليف

د. عبد الفتاح محمد أحمد — أ. فادية عبد العزيز القطعاني
أ. عمر السيد عبد الفتاح — د. عماد عواد
د. عثمان أبو زيد — أ. داود بدر مالك
د. مصباح السيد سالم — د. محمود الديك
د. فضل خلود الدكو

تحرير

الأستاذ الدكتور/ جعفر عبد السلام
الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية
أستاذ القانون الدولي بجامعة الأزهر

دار الكلمة
للنشر والتوزيع



تقديم

أ.د جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

لقد ارتبط العرب في الجزيرة العربية بعلاقة وثيقة مع البلاد الإفريقية المجاورة لهم، سواء في الساحل الشرقي الإفريقي، أو سواحل البحر الأحمر، أو البلاد المتاخمة للصحراء الكبرى، وقد تكونت هذه العلاقة منذ البداية على الود والتآخي.

ومما لاشك فيه أن دخول الإسلام إلى القارة الإفريقية، وانتشاره فيها جعل أفريقيا مركزا مهما من مراكز الحضارة الإسلامية، وأصبحت اللغة العربية هي لغة الفكر والثقافة في إفريقيا، فبفضل انتشار الإسلام وُضعت إفريقيا على الخريطة الحضارية والثقافية في العالم بقيام مراكز حضارية إسلامية فيها، فقد فتح الإسلام أمام الإفريقي آفاقاً جديدة ، وبانتشاره حدثت ولادة روحية جديدة للثقافة الإفريقية، أحدثت تغييرات جذرية في نمط حياة الإنسان الإفريقي، وعملت مجموعة الخصائص والسمات التي اختص بها الإسلام على إعادة تشكيل الشخصية الإفريقية، وبلورتها وفق ما تضمنته الثقافة العربية الإسلامية؛ حيث منظومة القيم ثابتة مستوحاة من الوحي الكريم، الذي يكرم الإنسان؛ لأنه إنسان .

ومن منطلق إيمانها الثقافي والتعليمي تبدأ رابطة الجامعات الإسلامية على بركة الله وبتوفيقه، سلسلة جديدة هي : سلسلة الدراسات الإفريقية والتي تأتي استكمالا لما أصدرته من سلاسل في شتى المجالات منها:

سلسلة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين، وسلسلة فكر المواجهة، ومركز دراسات الأسرة، ومركز الدراسات الحضارية، والكتب الإرشادية، وها هى تصدر العدد الأول من سلسلة الدراسات الإفريقية، مُحاولةً إظهار حجم التحديات التي يلزم على المثقفين العرب المسلمين مواجهتها على الساحة الإفريقية، وانطلاقا من ذلك فإن هذه السلسلة تبدأ في المقام الأول بتحدي التعليم، فهى تسعى إلى تركيز الضوء على دور التعليم بصفة عامة والتعليم العربي الإسلامي بصفة خاصة ، لما لهذا من مساهمة في تحقيق الاستقرار والأمن بالقارة الإفريقية باعتبار أن التعليم هو الأساس للوصول إلى تحقيق هدف التنمية والتطور.

وفي هذا المسعى يأتي ذلك الإصدار الأول من سلسلة الدراسات الإفريقية ليركز حول المجالات التي يمكن أن يلعب فيها التعليم دوراً مؤثرا في تحقيق ذلك الهدف، والجهود التي يمكن بذلها على مستوى الجامعات ومراكز البحوث العلمية عامة، والعربية الإسلامية خاصة؛ لذلك جاء الإصدار الأول ليشتمل على عدة أبحاث ودراسات تدور كلها في فلك التعليم العربي الإسلامي في إفريقيا، والتعليم العربي الإسلامي والتنمية الإفريقية والتحديات التي تواجه التعليم الإفريقي المعاصر، ودور المنظمات الدولية الإسلامية في التنمية والتطور في إفريقيا، وواقع اللغة العربية والتعريب وأهميته في إفريقيا.

ورابطة الجامعات إذ تقدم هذه السلسلة الجديدة، والتي تستهلها بملف التعليم، لتدعو الله جل وعلا أن ينتفع بها الدارسون الأفارقة والمهتمون بالشأن الإفريقي، في فتح آفاق جديدة تتزاوج وتختلط بالإنسان الإفريقي اجتماعيًا، وعقائديًا وثقافيًا وحضاريًا ، واقتصاديًا.

والله من وراء القصد، وهو الهادي سواء السبيل

الصعوبات والتحديات التي تواجه التعليم العربي المعاصر في إفريقيا

الدكتور عبد الفتاح محمد أحمد (*)

مقدمة

العالم الأفريقي بما له من ماض يمتلك المقومات والقدرات ، وبما له من مستقبل مشرق يحتل مكانة إستراتيجية لها أهميتها في العالم ، كما أن موقع الدول الأفريقية وأهميته يؤثر في مجريات الأحداث إقليميًا وعالميًا ، ويتأثر في جميع المجالات وأهمها مجال التعليم والتعلم مما يشكل في بعض الأحيان تحديًا لأمنه القومي والتنموي .

ومما لا شك فيه أن تحدي مسيرة التعليم وخلق الصعوبات في الدول الأفريقية من قبل دول ذات أطماع ، ولها أهدافها وقدراتها التي لا تمكنها فقط من السيطرة والتحكم وتحدي كل مقومات التنمية العقلية في المنطقة الأفريقية ، بل من التأثير أيضًا على دول الجوار .

وقد ازدادت خطورة الدول ذات الأطماع اعتبارًا من منتصف الثمانينات ، نظرًا للمتغيرات الدولية والإقليمية والمحلية التي حدثت والتي لها آثارها على العالم الأفريقي ، ونظرًا لبروز الكيانات الاقتصادية ذات القدرات ، وهي أحد المؤثرات الرئيسية في الأمن القومي بعد أن كانت القدرة العسكرية هي التي تحتل المرتبة الأولى في هذا الاتجاه ، وذلك وصولًا إلى حلول عملية للتغلب على

(*) جمهورية تشاد ـ جامعة الملك فيصل ـ كلية الشارقة للتربية .

تلك التحديات وحل مشاكل الحدود الأفريقية ، ومما يعتري العالم الأفريقي من خلافات أفريقية / أفريقية [(١)] .

وعلى الرغم من التوسع الملحوظ في التعليم الذي يتناسب أحيانًا مع ما تتطلبه الدول الأفريقية على اختلاف وتنوع ظروفها الاقتصادية والسياسية ومصادر الدخل في كل دولة ، وأحيانًا مع ما تراه الدول الأوروبية متناسبًا مع أطماعها وأهدافها ، إلا أن التعليم في هذه الدول ما زال يعاني من أزمات متباينة تفوق في حدتها أزمات الطعام والشراب والمأوى والأزمات السياسية .

وقد يرى البعض أن أزمة التعليم في عالمنا اليوم ترجع إلى تزايد مجموع الأميين البالغين في العالم الأفريقي وما صاحبه من مشاكل اقتصادية وصحية وتنموية حالت دون أن يحقق التعليم أهدافه المرجوة منه ، إلا أن الأزمة الحقيقية للتعليم تكمن في نوازع الشر في نفس الإنسان الإفريقي اليوم ، وميله إلى العنف وتنافسه على السلطات وحبه لذاته ، مما نتج عنه فقد كل صفات القدوة للمعلم والمتعلم ، على نقيض ما بدأت عليه الشعوب الأفريقية من تأصيل مبدأ المشاركة وتكوين شخصية الفرد .

من هنا يتضح أن أزمة التعليم وما يواجهه من صعوبات وتحديات لا تكمن فقط في تزايد عدد الأميين بل تتمثل أخطارها في تزايد تفكك الإنسان في سلوكه وأهدافه وتطلعاته ، وتعليم تكون هذه فلسفته لا يساعد المتعلم إلا على النمو بقدراته المادية فقط ، دون أن يكتسب خبرات غيره وما توصل إليه ، ويكون ذلك على حساب قيم وروح وفلسفة مجتمعه .

---

(١) مركز الدراسات العربي الأوروبي ، تحديات العالم العربي في ظل المتغيرات الدولية ، المؤتمر الدولي الثاني ، جمهورية مصر العربية من ٢٥ ـ ٢٧ يناير ١٩٩٤ ، (ص٦) .

ومهما تكاثفت الغيوم على التعليم العربي المعاصر في الدول الإفريقية فهو في انتظار وترقب اللحظة التي يتبوأ فيها المجتمع الإفريقي مكانته على الساحة الدولية ، في الوقت الذي يخترق فيه هذا المجتمع والقوى الفاعلة فيه غيوم وسحب وقيود تحول بينها وبين الرقي إلى قرب القمة ، فضلًا عن الاستمرار في هذا الرقي ، هذه اللحظة قد تكون حين تنهار قوى المستعمر المنهجية ويتصدع جدار القوى العالمي الذي يحيط بنظم التعليم ومناهجه في دول تتطلع دائمًا إلى الحرية السياسية التعليمية وتذييل الحرية .

وتتنوع التحديات والصعوبات التي تواجه الدول الأفريقية ومنها السياسية والاستراتيجية ، والأمنية ، والاقتصادية ، والتنموية ، والتعليمية .

ويناقش هذا البحث التحديات والصعوبات التي تواجه التعليم في الدول الأفريقية من حيث :

أثر الاستعمار على التعليم العربي المعاصر في إفريقيا .

الصعوبات التي تواجه التعليم العربي المعاصر في إفريقيا .

التحديات التي تواجه التعليم العربي المعاصر في إفريقيا .

الفراغ التربوي وتأثيره على مستقبل التعليم العربي المعاصر في الدول الإفريقية .

كيف يمكن للدول الأفريقية التصدر للصعوبات والتحديات التي تواجه التعليم المعاصر في أفريقيا .

*****

الفصل الأول

أثر الاستعمار على التعليم العربي المعاصر في إفريقيا

مما لا شك فيه أن «إفريقيا» هي أكبر قارة بعد «آسيا» فمساحتها تبلغ ٣٠ مليون كيلومتر مربع، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف مساحة «أوروبا» وعدد سكانها اليوم يقارب أربعمائة مليون نسمة، وفيها أطول نهر في العالم هو «نهر النيل» (٦٦٨٠كم)، وأكبر صحراء في العالم وهي الصحراء الكبرى (٩.٠٥٦.٠٠٠كم مربع) وإفريقيا اليوم هي موطن أكبر مخزون من مواد الخام.

ومن هنا بدأت المطامع الأوروبية تتجه بأنظارها وعقولها إلى إفريقيا، تحت مختلف العلل والأسباب فأرسلت إليها التجار، والمبشرون، والجنود المستعمرة، وتقاسمت أوروبا معظم أجزاء إفريقيا، فكان هناك: الفرنسيون، والإنجليز، والأسبان، والبرتغاليون، والألمان، والبلجيكيون، والإيطاليون.

والغريب حقًا أن أيًا من أولئك المستعمرين الأوروبيين لم يرف له جفن من حياء، أو يترك فيه وتر من أوتار الرحمة، في إنصاف، أو تقويم أعمال القهر والتنكيل التي قاموا بها في إفريقيا من وجهة نظر أخلاقية أو سماوية أو إنسانية، بل هم على العكس من ذلك تمامًا، اعتبروا ذلك حقًا طبيعيًا للأوروبيين بحكم عقدة التفوق العرقي التي تهيمن على عقولهم، ووصل الأمر بهم أن كاتبًا فرنسيًا مرموقًا وهو «مونتيسكيو» لا يتورع من القول

بالحرف الواحد :

«إذا كان عليَّ أن أدافع عن حقنا المكتسب في اتخاذ الزنوج ذوي البشرة السوداء عبيدًا ، فإنني أقول : إن شعوب «أوروبا» لم يكن أمامها إلا أن تستعبد شعوب إفريقيا لكي تستخدمها في استصلاح أرجاء أميركا الواسعة .

وما شعوب إفريقيا إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن نرثي لها [1] ، وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحًا طيبة في جسد حالك السواد .

إن تدمير وتمزيق اقتصاد القارة الإفريقية كان عملًا حتميًا نتيجة للسياسة الاستعمارية وهادفة إلى تفتيت وحدة هذه القارة إلى دويلات وأقليات ذات اقتصاد ضعيف متدهور ، ومعتمد إلى حد كبير على الدعم والمساعدات الخارجية ومعرض للانهيار تحت ضغط المستعمر في أي وقت وتحت أي ظروف .

ولهذا فإن تاريخ الاستعمار في إفريقيا بدأ بتطلع الأوروبيون على هذه القارة وكان هدفهم الأساس استعباد عقول أبناء هذه القارة واستغلالها اقتصاديًا والسيطرة عليها سياسيًا .

إنه بالرغم من عدم قصور الأهداف الاستعمارية على الأمور السياسية والاقتصادية للتحكم في زمام الأمور كلها ، فقد استوجب الأمر إبراز أهمية

---

(١) محمد عبده يماني ، إفريقيا لماذا ، جمهورية مصر العربية ، القاهرة ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ ، (ص٣٦) .

الأهداف السياسية كلعبة سياسية وخلط الأمور دون إهمال بقية الأهداف الأخرى ومنها السيطرة على تعليم الشعوب الإفريقية [١] .

لعل التعليم هو الواجهة الأساسية التي تميز بها حكم المستعمر ؛ لأن السيطرة على أساليب وطرق التعليم ومناهجه هو المفتاح الأول للسيطرة على أية دولة ، ونقصد بذلك أن التعليم بالنسبة لأي فرد أفريقي يعد بمثابة مفتاح تفهمه للثقافة والتكنولوجيا المتقدمة التي مكنت المستعمر من السيطرة على أرضه وإحكام قبضته عليها بسهولة .

كما أن التعليم الغربي في الدول الأفريقية كان يؤكد الإنجازات الفردية والذي جاء مناقضًا للأسس التي قامت عليها التقاليد والعادات في المجتمعات الأفريقية التي تسعى دائمًا إلى تأصيل الشخصية الجماعية وتحمل المسؤولية المشتركة بين الأفراد .

وعلى الرغم من أن السياسة الاستعمارية كانت تقوم أحيانًا على نوع من المشاركة مما ألزم المستعمر في اتباع هذه المنهجية التعليمية في نشر التعليم ، ولكن تلك السياسة التعليمية كان يشوبها عدم الرضا والاهتمام بالتوسع في فتح المدارس العربية ، ولا شك أن المستعمرين أدركوا هذه الحقيقة ، وكانوا يخشون أن يفلت زمام السيطرة على المنهجية الاستعمارية في بعض دول أفريقيا من أيديهم ، ومن ثم كانوا يحرصون على أن تخرج المدارس ما يكفي فقط لملء الوظائف الحكومية التي يرغبون فيها ، أو وظائف الشركات والمؤسسات التي

---

(١) باتيرك موما ، الاستعمار والفراغ ، مجموعة البحوث المقدمة في المؤتمر العلمي العالمي حول الاستعمار والفراغ ، قسم العلوم السياسية ، ط١ ، ليبيا ، بنغازي ، جامعة قاريونس ، كلية الاقتصاد ، ١٩٩١م، (ص٧٧، ٧٨) .

يسمح الأوروبيون فيها للإفريقيين بالالتحاق بها وشغلها .

ونلاحظ هنا أن معظم الأطفال الذين سعوا ليتعلموا في أفريقيا الغربية الفرنسية ، التحقوا بالمدارس التبشيرية ما عدا شمالي نيجيريا حيث الإدارة الاستعمارية قائمة على البعثات التبشيرية ، وتم فتح مدارس في الإمارات الإسلامية دون موافقة الأمراء أنفسهم ، ومهما كانت الحال وسواء تحدثنا عن القسم الفرنسي أو عن القسم الإنجليزي ، فإن عدد المتعلمين في عام ١٩٤٥م كان تافهًا : ففي عام ١٩٤٤م بلغ عدد الأطفال في المدارس الفرنسية بغربي أفريقيا ٧٦ ألف طفل ، في حين بلغ عدد السكان ١٥ مليون نسمة ، وكان شعور الأفريقيين أن الطفل الأفريقي إذا ما دخل المدرسة فإنه يكون طبيبًا أو مهندسًا ، ولكن هذا الاحتمال أو الأمل ما كان يتحقق إلا نادرًا ، وكانوا يدرسون له في المدارس الثانوية بعض الأفكار والسياسات الاستعمارية الأوروبية [(١)] .

وقد عمد الاستعمار إلى التفرقة الدينية في التعليم ، ونأخذ مثالًا على ذلك تنزانيا ، فمن المعلوم أن تنزانيا جعلت التعليم في المرحلة الابتدائية إجباريًا بينما جعلته فيما بعد هذه المرحلة يعتمد على مقدرة الشخص المالية ، إذ إن معظم المدارس الثانوية تطلب قدرًا معينًا من المال ، نظرًا لأن المدارس الحكومية الثانوية لا تفي إلا بحاجة عدد محدود من الطلاب ، وأن هذه المدارس تدار بواسطة لجان يسيطر عليها المسيحيون ، ومن عجب أن قبول الطلاب لهذه المدارس يتم بصورة سرية تمكنهم من اختيار الطلاب الذين يريدونهم بكل

---

(١) أحمد طاهر ، أفريقيا فصول من الماضي والحاضر ، جمهورية مصر العربية ، دار المعارف ، (د. ت) ، (ص١٨٩ ، ١٩٠) .

حرية ، بغض النظر عن مستواهم الأكاديمي ، والجدول التالي يبين لنا عدد المدارس الثانوية في تنزانيا والجهات التابعة لها :

عدد المدارس الثانوية في تنزانيا والجهات التابعة لها :

١ـ عدد المدارس الخاصة الحكومية والتي تدار بواسطة لجان يسيطر عليها المسيحيون .	٨٦ مدرسة
٢ـ عدد المدارس الخاصة التي تشرف عليها الكنائس إشرافًا مباشرًا وتعتبر مدارس أكاديمية .	١٢٢ مدرسة
٣ـ عدد المدارس الخاصة التي تشرف عليها الكنائس إشرافًا مباشرًا بإضافات مركزة من التعاليم النصرانية .	٢٢ مدرسة
٤ـ عدد المدارس الخاصة التي يشرف عليها المجلس الإسلامي .	٦ مدارس
٥ـ عدد المدارس الخاصة التي تشرف عليها جمعية الطلبة المسلمين .	٣ مدارس
٦ـ عدد المدارس الخاصة التابعة للشيعة وتسيرها الشيعة .	١ مدرسة
المجموع	٢٤٠ مدرسة

من الجدول السابق يتبين لنا بجلاء أن التعليم بعد المرحلة الابتدائية يقع بأكمله تحت سيطرة الكنائس ، بينما نجد أن المدارس التي يشرف عليها المجلس الإسلامي لا يتعدى عدد المسلمين فيها الـ ٤٠٪ في أحسن الأحوال ، ومن المعلوم أن نسبة الطلبة المسلمين في المدارس الابتدائية يمثل أكثر من

٧٠٪ ، ولكن هذا العدد يتقلص في المراحل العليا إلى أن يصل إلى أدنى درجاته في المراحل الجامعية المختلفة .

ومما لا شك فيه أن الحكام الاستعماريين عندما فكروا لأنفسهم وسمحوا بتعليم الإنسان الأفريقي ، غرسوا بأنفسهم النبتة الأولى في صرح سيطرتهم واستعمارهم ، فمن ناحية لم يتخرج كل الذين سمح لهم بدخول المدارس أطباء أو مهندسين أو إداريين ، ولم تتعلم الأغلبية الأفريقية إلا ما يكفي أن يجعلها متذمرة بحياتها الريفية البسيطة البدائية ، مما جعل هذه الفئة تهجر أراضيها إلى المدن للحصول على وظائف أو عمل خاص ، وهذا يمثل نتيجة سيئة من نتائج الاستعمار ، كما أنه يمثل نتاجًا تعليميًّا لا يسد رمق الأفريقيين المتعطشين لنور العلم الذي تعلو به الهمم وتصان به الأوطان ، والذي بواسطته تأخذ الدول الإفريقية مكانتها وسط الدول المتقدمة مما يجعلها تحافظ على أمنها وقوميتها .

وكانت خطط التنمية ـ سواء في مجال التعليم والتعلم أو في مجال التنمية بصفة عامة ـ توضع بمعرفة الحكام الاستعماريين دون استشارة الأفريقيين الذين تطبق عليهم هذه الخطط .

ولقد وصف الاستعماريون في يوم من الأيام سياستهم في أفريقيا بأنها مشاركة ولعلهم كانوا يقصدون بالمشاركة تلك ، هي التي تكون بين السيارة وصاحبها ، فالسيارة لا تقرر أين تذهب ؟ أو متى تذهب ؟ بل صاحبها هو الإداري وهو المستعمر في أفريقيا ، وهو الذي يقرر في الوقت الذي يراه هو مناسبًا مع سياسته وأطماعه .

والواقع أن النظام الاقتصادي يؤثر تأثيرًا مباشرًا في جميع الأنظمة الأخرى وخاصة في النظام التعليمي ، فإذا كان النظام الاقتصادي نظامًا استعماريًا بدائيًا

الهدف منه أساسًا تموين أوروبا بالمواد الخام التي تحتاج إليها من أفريقيا باختلاف وتنوع هذه المواد الخام وحسب ما تمتلكه الدول الأفريقية ، أما مصالح الأفريقيين المختلفة سواء في مناهج التعليم والمواد التعليمية فكانت أمرًا عارضًا ، وقد عمل المستعمر على تقليل وتهميش نشر التعليم العربي والإسلامي في الدول الأفريقية مقارنة بالمدارس الأخرى .

وكان النظام السائد يستبعد الأفريقيين من تولي أي مركز ذي مسؤولية أو شبه مسؤولية إدارية ، إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية عندما سمح الرجل الأبيض للأفريقي أن يعمل في الطب ، دون أن يتمتع بنفس ميزات البريطاني أو الفرنسي مهما حصل من شهادات ومهما امتدت به التجربة ، وفي أفريقيا الغربية الفرنسية لم يتمتع الأفريقيون بحرية التعبير إلا اسمًا فقط ، ولم يكن هناك حرية للصحافة ، ولما وجد الأفريقي أنه قد حرم حقه الطبيعي في التعبير عن آماله وآلامه لجأ إلى العنف ، بل صار عدوًا لسياسة الاستعمار الخاصة بتجنيد الأفارقة بالقتال في أوروبا خلال الحرب العالمية الأولى (١) .

على أن التعليم بمعناه الواسع يتخطى «صقل» القوة العاملة من الناحية الفنية ، أو ظهور طبقات من ذوي المؤهلات الفنية العالية ، أو حتى تشجيع الثقافة الصناعية في المدارس والكليات للحفاظ على قاعدة إنتاجية ، بل ينطوي التعليم علاوة على ذلك كله ، على استيعاب عميق لأسباب التغير في عالمنا ، ولمشاعر الناس والثقافات الأخرى تجاه تلك المتغيرات ، وما هي العناصر المشتركة بينهم جميعًا ؟ وما هي العوامل التي تفرق فيما بين الثقافات والطبقات والأمم ؟ إضافة إلى ذلك ، في الوقت الذي يتعين على عملية

---

(١) أحمد طاهر ، المرجع السابق ، (ص١٩٢، ١٩٣) .

التساؤل هذه أن تكون ـ إن أمكن ـ متسامحة ومتعاطفة ، فإنها لن تكون خالية من قيمة [١] .

إن تعزيز دور التعليم مرتبط بشكل لا يمكن فصله بقضية أكبر ونعني بها إهمال مكانة وتعليم المرأة في بعض الأقطار الأفريقية النامية ، وهناك دليل على أن الصلة وثيقة بين الوضع السيئ للمرأة والزيادة المطردة في السكان والفقر المتقع والتخلف الاقتصادي الذي هو أساس الصعوبات التي تواجه التعليم .

*****

---

(١) بول كيندي ، الاستعداد للقرن الحادي والعشرين ، ترجمة محمد عبد القادر ، غازي مسعود ، جمهورية مصر العربية دار الشروق ، ١٩٩٠ ، (ص٤١٦) .

الفصل الثاني
الصعوبات التي تواجه التعليم العربي المعاصر في إفريقيا

المبحث الأول
صعوبات تتعلق بالدول ذات الأطماع

يواجه التعليم في القارة الإفريقية بعضًا من الصعوبات عبر طرق متعددة والتي تؤثر على التعليم وأنواعه ومناهجه وطرق تدريسه تأثيرًا مباشرًا، وسوف نقدم بعضًا من هذه الصعوبات ونذكر منها:

١ ـ صعوبات تتعلق بالنظم السياسية في الدول الإفريقية والتي تؤثر تأثيرًا مباشرًا على عمليات التعليم والتعلم.

إن من أهداف المستعمر هو إحكام قبضة اليد على عمليات التعليم بالقطر الذي تم السيطرة عليه سياسيًا، ويصل الأمر إلى فرض مناهج دراسية معينة تتناسب مع أهدافه وأطماعه وعزل بعض المناهج عن مجموع درجات الطالب، أي تهميش وتقليل قيمة مواد أخرى لا تنال رضا عقل المستعمر.

٢ ـ من الصعوبات التي واجهت وما زالت تواجه التعليم في الدول الأفريقية أن الاستعمار الأوروبي قد عمل على نقل نماذجه التعليمية وأهدافه الاستعمارية وترويجها في البلاد التي استعمرها، فلم يهدف التعليم في ظل أي حكم استعماري إلى خلق رجال قادرين على خدمة أوطانهم، بل كان يرمي إلى تلقين القيم والسلوكيات السائدة في الدول المستعمرة، وإلى إعداد شباب الدول التي استعمروها ليكون في خدمة المستعمر [1].

---

(1) Bowden. Lord. B.V. Openining Address. Conference of Crisis in engineering and Science education umist (machester. Endland) 1974.

ولقد تكررت الصورة في معظم الدول الإفريقية التي اكتوت بنار الاستعمار وعانت من سيطرته وقهره، فأكثر النظم التربوية والتعليمية السائدة في دول إفريقيا تعكس المناهج التعليمية التي خلفتها الدول التي استعمرتها سواء كانت تلك المناهج التعليمية تتفق مع احتياجات ومصالح وطموحات تلك الدول الإفريقية أم لا .

٣ـ دور الاستعمار في التقليل من قيمة الحضارات والثقافات الوطنية وخوفه من أن يصل الأفارقة إلى مستوى ثقافي مرتفع يذكي الروح الوطنية، ويدفعهم لمناهضة الاستعمار .

٤ـ الفرق الدينية التي وفدت إلى القارة الإفريقية مع الاستعمار الذي شجع أهل هذه الفرق على الهجرة إلى القارة الإفريقية، والقيام بأنشطة واسعة في أوساط الشعوب الإفريقية بقصد تمزيق وحدتهم وخلق تكتلات وتجمعات إفريقية متصارعة، تؤدي بطريق مباشر إلى خدمة أهداف المستعمر، ومنها إجهاض الكيان الإفريقي ونشر مذاهبه التعليمية التي تخدم مصالحه .

٥ـ الدعوة إلى إحياء الحضارات والثقافات الإقليمية والتجمعات العرقية التي كانت من أهم الأهداف التعليمية والثقافية للاستعمار البريطاني في المناطق التي استعمرها، فقد كان من سياسته العمل على إحياء اللغات الوطنية لوقف تيار انتشار تعليم اللغة العربية، ومن ثم إقامة حاجز بين العالم الإسلامي في الشمال الإفريقي والشرق الأوسط، وإفريقيا فيما يلي الصحراء، واتبع وسائل عدة أهمها [1] :

---

(١) محمد جلال عباس، المد الإسلامي في إفريقيا، جمهورية مصر العربية، القاهرة، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، ١٩٩٨م، (ص١٠٤، ١٠٥) .

أ ـ تشجيع المبشرين على دراسة اللغات الوطنية وكتابتها بالحروف اللاتينية .

ب ـ منع كتابة اللغات الوطنية مثل : الهوسا ، والفلاني ، والوولوف في غرب إفريقيا ، والسواحيلي في شرق إفريقيا بالحروف العربية التي كانت تكتب بها منذ عهد ما قبل الاستعمار بقصد قطع الخيط الذي يربطها بالعربية .

جـ ـ إصدار الصحف وتنظيم إذاعات باللغات الوطنية دون العربية .

د ـ العمل على تطعيم اللغات الوطنية بكلمات إنجليزية وفرنسية تدريجيًا للقضاء على ما فيها من كلمات عربية دخلتها مع الإسلام ، أو على الأقل للإقلال من أهمية صلتها بالعربية .

هـ ـ محاربة التعليم الإسلامي والعربي الذي اختلف الفرنسيون عن الإنجليز في سياستهم نحوه ، فاتبع الفرنسيون سياسة صريحة هي منع التعليم العربي إذا استطاعوا وإحلال التعليم الفرنسي محله ، أما الإنجليز فقد اتبعوا السياسة السلبية في موقفهم من التعليم العربي بعدم مده بالإعانات وعدم قبول من يتخرجون في المدارس العربية بالمدارس الثانوية ليموت هذا التعليم ويندثر من تلقاء نفسه .

و ـ الدعاية المغرضة ضد الحركات الإصلاحية ممثلة في حركة الاتحاد الثقافي الإسلامي في إفريقيا الغربية الفرنسية وإثارة أهل الطرق الدينية عليها بتخويفهم من أثرها على نفوذهم الديني مما أدى إلى اشتداد الخلاف ووصوله إلى درجة الاصطدام بين المسلمين من جهة ، والمتطرفين من جهة أخرى ، وأوجد ذلك الفرصة لتدخل السلطات الفرنسية لوقف الاصطدام ومنع

النشاط الإسلامي .

٦ـ كانت أول وأهم وسيلة اتبعها المستعمرون لمحاربة التعليم العربي والإسلامي هي المسيحية ، فأرسلوا البعثات التبشيرية مزودة بتعاليم الاستعمار والتسلط الأجنبي متجردة من طبيعة التسامح التي تميز المسيحية واستطاع المبشرون شراء عقائد بعض الذين استأجروهم من الأفريقيين وتعلموا منهم لغتهم ، واتخذوا من هذه اللغات وسيلة لجذب الإفريقيين حولهم .

٧ـ الغزو الثقافي الذي يميز العقلية الفرنسية المستعمرة والذي ينبثق عن سياستهم التي ترمي إلى نشر ثقافتهم وهيمنتها على جميع الشعوب التي استعمروها بشتى الوسائل لتحقيق «فرنستها» أو امتصاها وذوبانها في الثقافة الفرنسية .

٨ـ التسلل التدريجي للقضاء على الثقافة الإسلامية واللغة العربية وإحلال الثقافة الاستعمارية محلها ومحل الثقافة العربية ، فبدء البريطانيون بتشجيع دراسة اللغات المحلية وإثارة النعرات القومية أو الإقليمية التي اعتقدوا أنها قد تضعف من كيان الثقافة الإسلامية .

٩ـ استغلال الخلافات المذهبية في الإسلام لخلق نوع جديد من الفرقة بين المسلمين حتى في ميدان التعليم ، وظهر هذا العنصر بوجه خاص في شرق إفريقيا ، حيث استغلوا الهنود وعلاقة الهند القوية بهذه المنطقة من إفريقيا عبر المحيط الهندي .

*****

المبحث الثاني
صعوبات تتعلق بدول إفريقيا

١ـ صعوبات تتعلق بمدى التزام الحكومات الإفريقية بتطبيق مناخ التعليم العربي ومدى تدخل المستعمر في نوعية التعليم ووضع منهجه وتقديم المغريات المادية والوظيفية لهم .

٢ـ صعوبات تتعلق بالمشكلات بين الدول الإفريقية .

لعل مشكلات الحدود بين بعض الدول ونشوب الحروب المتعددة الأطراف كانت من أهم الأسباب التي تأخر بها التعليم في الدول الإفريقية ومن أمثلة هذه الصعوبة :

أ ـ المشاكل التي نشبت بين الدول الأفريقية بخصوص الحدود ومنها مشكلة الحدود بين المغرب والجزائر ، وذلك بسبب المناطق الواقعة في أقصى الجنوب حيث ضمت بعض المعادن ومنها معدن الحديد بالقرب من منطقة تسمى «تندوف» التي ضمت للجزائر فيما بعد وهل في تلك الخلافات السياسية والحروب بين هذين البلدين الشقيقين يحدث تبادل للمعرفة والثقافات ونقل الخبرات سواء في مجال التعليم أو في غيره ؟ وهل يكون هناك استقرار في أهداف المناهج التعليمية بين الدول الإفريقية الأخرى ؟

ب ـ ومن المشكلات التي أثرت على التعليم وأدوات التقدم في المغرب العربي الإفريقي مشكلة الصحراء الغربية التي ترتبط بالمنطقة التي كانت تحتلها أسبانيا وتطلق عليها الصحراء الأسبانية «وادي الذهب» .

٣ـ صعوبات تتعلق بالمشكلات الاقتصادية التي تعاني منها بعض الدول الإفريقية :

أ ـ مما لا شك فيه أن عرقلة النظام الاقتصادي في أية دولة يتبعه على التوالي عرقلة في عمليات وأدوات التعليم والمناهج من تطوير في الأدوات والنظريات المستخدمة ، وقد بذلت جهودًا لحل مشكلة مديونية هذه الدول ، وواجب الدول الإفريقية أن تقدم ما تستطيع تقديمه سواء من الخبرة الفنية أو المادية أو غيرها لمواجهة مثل هذه المشكلات .

ب ـ مشكلات ثقافية تتعلق بموقف الدول الإسلامية من التيارات الثقافية المعادية .

حيث إن الدول الإسلامية الأفريقية في هذا القرن تواجه تيارات وثقافات ومبادئ تتنافى مع تعليم ومناهج وأخلاق الإسلام .

٤ ـ مشكلات تتعلق بالأقليات الإسلامية في إفريقيا .

٥ ـ المشكلات التي تتولد بين الأقليات الإسلامية في الدول الإفريقية سواء كانت على الحدود المشتركة بينها أو على علاقة كل قطر بالاستعمار تؤثر كلها في المناهج وطرق تعليمها ، كما تؤثر بصفة عامة في المناخ التربوي التعليمي .

٦ـ إن من الصعوبات التي تواجه التعليم بالدول الإفريقية ذلك الأمر العصيب الذي يتعلق بالمصادر المالية والاتجاهات المرتفعة للأسعار بصورة مزعجة وغير مباشرة للمستقبل التعليمي ولا يمكن القضاء على هذه الصعوبة إلا بتقليص النفقات الهائلة على التسليح في كل دولة إفريقية ، واستخدم ذلك من أجل السلام وبالتطوير الهائل لقدرات النظم والنظريات التعليمية [(١)] .

---

(1) coombs P.H THE WORLD DEUCATIONAL CRISIS OXFORD UNIVERSITY PRESS (NEW YORK) LONDON TORONTO 1968 .

٧ـ عدم وجود فلسفة تربوية صحيحة لها .

لابد لمناهج التعليم من فلسفة واضحة ذات أهداف محددة تشتق من فلسفة المجتمع الإفريقي عامة وقيمه ومثله العليا وتطلعاته ، وبما يحتاجه مستقبل هذه المجتمعات بشرط انعكاس هذه الفلسفة على أهداف عمليات التعليم والتعلم ، ولكن من المؤسف له أن أصحاب الفلسفات من الدول المستعمرة تبنوا تلك الانحرافات المنهجية المفتقرة إلى فلسفة محددة واضحة لحياة الشعوب الإفريقية التي استعمروها وسيطروا على أفكار براعم وشباب تلك الدول ، مما أوقع شعوب تلك الدول في حيرة تربوية تعليمية وهي التي عانى منها إنسان إفريقيا أمس واليوم والتي نتج عنها عدم فهم رسالته في الحياة ، وفي هذا يقول فلتشر (١٩٦٢) ، هل علاقة الإنسان بالحياة قد فهمت فهمًا واضحًا ؟ وهل الحياة للمتعة مع إحساس بالتقدم المادي والعضوي فقط ؟ أم يجب أن يخشاها الإنسان ويخافها فينسحب من المشاركة فيها ؟ هل يجب أن تحتمل الحياة في هدوء يتسم بالفضيلة والأخلاق في مواجهة كل الأحداث ؟ وإنسان هذا شأنه لا يمكن أن يكون لديه عطاء تربوي أو علمي أو أن تكون له فلسفة واضحة وصالحة للتعليم أو أن تكون طموحاته محدودة على قدر ذاته وليس على قدر ما يحتاج إليه وطنه وشعبه [١] .

وقد أوقعت هذه الصعوبة الدول الإفريقية ـ وخاصة القائمين على التربية ـ في كم من الارتباك التربوي والحيرة التعليمية التي يعاني منها الإنسان الإفريقي اليوم مهما بلغت درجة ثقافته ، مما ينعكس على كل ثرواته التربوية من زوايا

---

(1) ficicher . c.s (editor) educallenge ahead 1962.

المناهج الدراسية وطرق تدريسها مما تسبب عنه بعض التصدع في مجال التربية والتعليم ، وتربويون هذا شأنهم لا يمكن أن يتكون لديهم عطاءات تربوية أو تنموية أو فلسفات هادفة تقوي مسيرة التعليم والتعلم .

*****

المبحث الثالث
صعوبات تتعلق بالإفريقيين أنفسهم

١ـ من الصعوبات التي تواجه أهداف التعليم في إفريقيا هو اقتصار هدف الدارسين وطالبي العلم على الحصول على الشهادات وفي ذلك يقول مارتن (١٩٦٩م) : إن التأكيد على النجاح مقاسًا بهذه الأطر الكمية ، والدرجات الجامعية ، وهي وسائل أصبحت غايات قد أدت إلى فشل العملية التعليمية فشلًا ذريعًا ، ويضيف مارتن : إن المعاهد العليا قد أصبحت أدوات قانونها ودستورها الشبه ثابت أن التعليم لإعطاء شهادة ، مما أثر على تعليم اليوم ، فقد أصبح التعليم نقل وتلقين للمعلومات إلى مجموعة من الدارسين الناشئين والحافظين للكم المعلوماتي الذي يتلقونه على من يعتبرونهم قدوة في مجال التعليم لهم [(١)] .

٢ـ صعوبات ترتبط بالأوضاع القبلية والعرقية في الأقطار الإفريقية الإسلامية .

وقد سبق أن برزت هذه المشكلة بوضوح وبشكل صارخ في الصومال مثلًا ، وهو قطر إسلامي من أقطار الجامعة العربية ، وترتب على الصراع الدامي بين القبائل والفصائل المختلفة والنزاع بينهما على السلطة إلى سقوط مئات القتلى والجرحى وفرار عدة آلاف ولجوئهم للأقطار المجاورة ، حيث كانوا يعيشون في خيام أو مراكز إيواء مؤقتة وينتظرون الغوث من الهيئات

(1) MC Donald f j : Education psychology second Education 6 th printing wads worth publishing co inc Belmont California 1969 p 170 .

الدولية وغيرها ، هذا بالإضافة إلى فصم وحدة البلاد وظهور حركات انفصالية ، وعدم وجود حكومة مركزية واحدة يخضع لها الكل وترتب على ذلك تصدع أركان الدولة ووقف عمليات التنمية وغيرها [١] .

وقد ظلت هذه الظروف وتلك الأطماع الاستعمارية ، والصراع الدائم بين القبائل والتنافس الدموي على السلطة ، هل ينتظر أن يسير التعليم بهذه الأقطار الإفريقية كما يتمناه خبراء التربية الآن وما سبقهم ؟ وهل يفرز التعليم الكوادر العلمية والتربوية المطلوبة لحماية أمن وثقافة أوطانهم ؟ وهل ينسج عنكبوت التعليم خيوطًا لها من المتانة العلمية والقومية الأخلاقية لما يجعلها تشد من بنيان تلك الأوطان ليتواصل العطاء فيما بينها دون تدخل أيدي في الخفاء لما يجعلها لتطفئ تلك الشموع ؟ وهل تعلم الشعوب الإفريقية أن عمليات التعليم تحتاج إلى مناخ تربوي مناسب وإلى هدوء سياسي وديمقراطية في منهجية التعليم ؟ هذه الأحزاب وتعدد الأعراق وتحيزها كانت وما زالت سببًا في تأخر التعليم ووقف الإبداعات في عمليات التعليم والتعلم .

٣ـ من الصعوبات التي جعلت التعليم يتعرض لأزمة غاية في الخطورة والتي لا تتحدد فقط في تزايد أعداد الأميين في الدول الإفريقية ، بل أيضًا في تزايد العنف بين الإنسان الإفريقي وأخيه ، والتنافس الشديد على السلطة وانصياعه لتلك التيارات الهدامة والطموحات الواهية التي لا تهدف إلى توعية المجتمع وحل مشاكله ، ويكفينا من ذلك نظرة عابرة إلى تاريخ عالمنا المعاصر واسترجاع الجرائم التي اقترفها الإنسان الإفريقي في غياب الوعي وإهمال

---

(١) شوقي عطا الله الجمل ، عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم ، جمهورية مصر العربية ، مكتبة كلية الآداب بقنا ، ١٩٩٦م ، (ص١٢٦) .

التعليم والتخبط التربوي والسياسي ومن ذلك :

أ ـ مليون قتيل سقطوا في الحرب العالمية الثانية وسبع سنوات من البؤس والشقاء والرعب عاشها العالم كله في نارها .

ب ـ مآسي كل من جنوب إفريقيا وناميبيا وروديسيا .

جـ ـ المجازر البشرية في كل من ، بنجلاديش ، والصومال ، وزنجبار ، وإريتريا ، وتشاد ، وأنجولا ، والسودان [١] .

د ـ ما يحدث الآن في إقليم دارفور بغرب السودان الشقيق وما يحدث به من انتهاك لجميع حقوق الإنسان من نقص التعليم والأزمات الإنسانية والاجتماعية والسياسية .

لقد تعرض التعليم أثناء تلك المجازر لإهمال كامل وتدهور تام .

٨ـ بالإضافة إلى الصعوبات السابقة توجد صعوبة أخرى وتتمثل في الخلاف على مهمة الجامعات ، هل هي للتعليم فقط أم للبحث العلمي والتدريب المهني .

أ ـ الخلاف الدائم بين العاملين بحقل التربية لا يحصدون منه غير نتائج وتوصيات المؤتمرات دون تطبيق ما ينبغي على الجامعات الإفريقية الأخذ به .

ويرى البعض أن فتح باب الجامعات على مصراعيه ، خاصة في البلاد النامية كان سببًا واضحًا في تدني نوعية الخريجين ، وفي تفريخ أعداد متزايدة منهم في تخصصات لا تحتاجها مجتمعاتهم ، حتى أصبح التعليم الجامعي لا

---

(١) زغلول راغب النجار ، أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالي للفكر الإسلامي ، ط٢ ، ١٩٩٥ ، (ص١٧) .

يقصد لذاته بقدر ما يقتصد للاستعلاء الاجتماعي والتباهي ، حتى انتهى به الأمر إلى فقد قيمته وإلى تفشي البطالة بين المتعلمين ، أو اضطرارهم في كثير من الأحيان إلى قبول أعمال أبعد ما تكون عما أهّلوا له ودرسوا السنوات الطويلة من أجله ، وهذا في حد ذاته يمثل أحد الأبعاد الرئيسية لأزمة وصعوبات التعليم في الدول الإفريقية [١] .

٩ـ من الصعوبات التي تواجه التعليم في إفريقيا :

انفصال نظام التعليم عن حياة المجتمعات الإفريقية ويتمثل ذلك بوضوح في فقد أواصر الصلة بين المواد التعليمية التي يدرسها المتعلمون وبعضها من جهة ، وبين الجامعات والمعاهد العلمية والمجتمعات الإفريقية وما تحتاجه من جهة أخرى ، مما تسبب في تباين المعارف والعلوم التي يتلقاها المتعلمون من دولة إفريقية إلى دولة إفريقية أخرى حتى جعل طلاب الدراسات العليا يقعون في تساؤلات وحيرة تعليمية تجعل البعض منهم لا يكمل دراسته ؛ لأن المعارف بين الجامعات الإفريقية مفككة وغير مترابطة وتكاد تكون مقطوعة الصلة بالبيئة ومما يزيد الطين بلة أن البرامج التعليمية غير مهتمة بقضايا ومشكلات المجتمع الرئيسية بل هناك اهتمام بحشد الجهود للصراعات وقضايا التفرقة العنصرية وغيرها من الصور غير المرغوب فيها ، مثل تفكك الأسر ومشاكل الأقليات والتنافس على الحدود والصراع الدموي إلى غير ذلك من القضايا التي تهدم مجتمعاتنا الإفريقية وتنعكس سلبًا على نواتج التعلم .

إن بدايات التعليم يجب أن تكون مهمتها التربوية أكبر مما كانت ، حيث

---

(١) زغلول راغب النجار ، المرجع السابق (ص٤٨) .

مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، فهي تعلم بطريقة مجردة ، وهي لا تمارس التحويل ؛ لأن التحويل يمر بتدريب الكفاءات البشرية تدريبًا عمليًا ، أي تدريب العبقرية المبدعة للفرد نفسه ، فخلال المرحلة الأولى للتعليم وخلال المراحل الأخرى يجب على الشباب أن يتدربوا على العمل التطبيقي ؛ لأن قيمته التربوية هائلة [١] .

١٠ـ من الصعوبات التي تواجه التعليم بدول إفريقيا :

انخفاض المستوى الثقافي ويرجع أساسًا لعدة أسباب منها [٢] :

أ ـ غلبة الأمية خاصة أنه لم يؤخذ بمبدأ الالتزام في التعليم في المراحل الأولى إلا في عدد محدود من الدول الإفريقية .

ب ـ إهمال التعليم الفني وتوجيه الجهود لتخريج فئة من الوطنيين للعمل في الإدارة الاستعمارية .

جـ ـ التركيز حتى في الدراسات الجامعية على الدراسة النظرية دون الاهتمام بالدراسات والوسائل التي تسهم في تكوين المواطن المثقف القادر على الخلق والإبداع .

د ـ أسلوب التعليم وأهدافه لا يسهم في تنمية روح البحث والتحليل ومن ثم أصبح يتخرج من المدارس والجامعات أنصاف متعلمين غير مؤهلين

---

(١) أحمد سيكوتوري ، أفريقيا والثورة ، ترجمة أديب اللجمي ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٦٧م ، (ص٢٤٠، ٢٤١) .

(٢) عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، شوقي عبد الله الجمل ، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، جمهورية مصر العربية ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٧م ، (ص٤١١، ٤١٢) .

لمسايرة التقدم العلمي السريع في عصرنا هذا .

و ـ عدم الاهتمام باللغة الوطنية والأدب الوطني والتراث الثقافي .

١١ ـ افتقار الدول الإفريقية إلى ما يسمى التخطيط التربوي ، وهذا المفهوم يعرف بأنه : عملية تحكم من طراز توسع التربية في المستقبل وتحقيق توسع سليم متوازن [١] .

إن من أهداف التخطيط التربوي تنمية التربية وربط هذه التنمية بالتنمية الشاملة «اقتصاديًا واجتماعيًا» حيث إنه لا يمكن تحقيق تنمية اجتماعية أو تنمية اقتصادية ما لم يسبق ذلك تنمية في رأس المال البشري ، أي إعداد أفراد متخصصين ومدربين وفنيين وذوي كفاءات ومهارات معينة للقيام بمتطلبات التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، لهذا لا يمكن للتربية أن تفلح في تحقيق أهدافها ما لم يسبق ذلك تصور دقيق وشامل لأهداف التربية الشاملة التي تنشدها القارة الأفريقية [٢] .

ومن خلال تلك الأهداف السابق دراستها وتحديدها يقوم المتخصصون وأصحاب الخبرة في التخطيط التربوي بإجراء دراسات مسحية لجميع طبقات المجتمع الإفريقي للوقوف الصحيح على الإمكانات البشرية الإفريقية ، وكذلك الإمكانات المادية والطبيعية ، وعمل برنامج زمني لتحقيق الأهداف المطلوبة ، وبعد ذلك تأتي مرحلة المتابعة وتحديد العوائق والعمل على إزالتها .

---

(١) عبد الله عبد الدائم ، التربية في البلاد العربية ، لبنان ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٤م ، (ص١١٨، ١١٩) .

(٢) محمود طنطاوي دنيا وآخرون ، الفكر التربوي ، ط٣ ، الكويت ، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب ١٩٨٨ ، (ص٢٢٢) .

١٢ـ هناك صعوبة تواجه التربية في أحيان كثيرة في الدول الإفريقية وهي غياب القدوة الحسنة ، وهي من الأساليب التي يرتكز عليها خبراء التربية دائمًا ؛ لأن من خصائص الطفل في بداية تعليمه أنه يميل إلى التقليد والمحاكاة لمن يتقابل معهم ويحادثهم ؛ لذلك فهو يكتسب ألوانًا مختلفة من السلوكيات ويتأثر بنوع القدوة التي يتعرض لها والعمل معها .

١٢ـ التفكك الأسري كثير من الأحيان في الشعوب الإفريقية :

الأسرة بالنسبة للطفل هي المناخ الأول والمرعى التربوي الأول الذي يستمد منه كل مقومات الحياة ؛ لذلك تكون الأسرة هي المسؤولة عن بدايات تعليم الأطفال ، والأسرة ممثلة في الوالدين وهي المسؤولة عن تحقيق أهداف التربية في مراحلها المبكرة ، بما يتناسب مع طبيعة دور ومسؤولية كل منهما ، فإذا أصاب هذا المنبع مرض التفكك ووجود الاضطرابات الأسرية والانفصال والأزمات والضغوط الاجتماعية فكيف تحقق التربية أهدافها المنشودة ؟

*****

الفصل الثالث
التحديات التي تواجه
التعليم العربي المعاصر في إفريقيا

لقد واجهت القارة الإفريقية أنواعًا مختلفة من التحديات التي عرقلت وما زالت تقف حاجزًا في طريق تقدم التعليم وازدهاره ووقف عمليات الأخذ بأحدث ما وصل إليه العالم الغربي من تكنولوجيا المعرفة ومن هذه التحديات :

المبحث الأول
التوجهات الاستعمارية التي تحدت
مسيرة التعليم العربي المعاصر في إفريقيا

١ ـ البعثات التبشيرية في غرب إفريقيا :

لقد توغلت البعثات التبشيرية المسيحية في غرب إفريقيا والتي تدين بالمذهب الكاثوليكي وكان من أهداف تلك البعثات نشر الثقافات غير الإسلامية في المدارس الإفريقية ، والتقليل بقدر الإمكان من نشر الدين الإسلامي وتقديم الإغراءات لتلك الشعوب الفقيرة والغارقة في ظلام الجهل العلمي وغياب التربويات التعليمية الهادفة ، ومن هذه الإغراءات إرسالية كنيسة إنجلترا تهب نفسها لخدمة غرب إفريقيا ، وكان من واجباتها نشر الإنجيل وقد كان ذلك ما بين أعوام ١٩٥٢ ـ ١٨١٦م [(١)] .

---

(١) فيج . جي . دي ، تاريخ غرب إفريقيا ، ترجمة السيد يوسف نصر ، بهجت رياض صليب ، ط١ ، جمهورية مصر العربية ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ، (ص٢٥٤) .

ولما بدأ المبشرون عام ١٨٣٤م يقتحمون المدارس في البلاد الإفريقية كان معظمهم يقصر التعليم على التوراة والإنجيل لا يريد أن يتعداهما ، إذ إن غاية المبشرين الحقيقية كانت إعداد الشبان للتعليم في مدارسهم أو العمل في مكاتبهم توسيعًا لحركة التبشير .

وقد أجمع المبشرون كلهم على أن التعليم الديني شيء أساس في سبيل غايتهم ؛ لهذه الأسباب يعمل المبشرون على استغلال الجهل بين الشعوب والأمم لينفذوا إلى غايتهم .

ويرى المبشرون أن يتظاهروا بحل المشاكل المختلفة للشباب الإفريقي ، وبذلك ينفذون إلى نفوس هؤلاء الشباب من أهون الطرق لاجتذاب عقولهم إلى مذاهبهم وأفكارهم عن طريق بعض الإغراءات المادية والتعليمية والوظيفية ، لقد أساء المبشرون إلى أشرف مبادئ الإنسانية إلى العلم ، عندما اتخذوا منه وسيلة إلى التبشير ، إن الأب الذي يأتمن على ابنه مدرسة ما من هذه المدارس يقدم أثمن وأغلى ما لديه وهو يعتقد أنه وضع ابنه وهو لا يزال يافعًا ساذجًا بريئًا بين يدي أنبل الناس ، بين يدي المعلمين ، ولكن المبشر مخلوق قد نفرت من قلبه أجمل معاني الإنسانية ، فقد نفرت من قلبه الأمانة والاستقامة والصدق [١] .

وأما التعليم الذي يظهر عليه طابع الرقي والإحسان فإن المبشرين يهتمون به كذلك ، واعتقد المبشرون أن يكون بجانب كل مدرسة يدفع روادها من التلاميذ نفقات مدرسية ، أن تنشأ مدرسة للفقراء مجانية ، ليس لتعليمهم في

---

(١) مصطفى خالدي ، وعمر فزوخ ، التبشير والاستعمار ، ط٥ ، بيروت ، لبنان ، المكتبة العصرية ، ١٩٧٣م ، (ص٧٠، ٧٦) .

الدرجة الأولى ، بل لحفظ المظهر التبشيري ؛ لأن في اعتقادهم أن الفقراء أكثر انقيادًا وقبولًا للأهداف التبشيرية ، حيث كانت تقدم لهم الطعام والكتب والملبس مجانًا ، حيث كان الهدف من تعليم هؤلاء الفقراء هو تشويه الثقافة العربية الإسلامية ؛ لأنه «كما يظنون» وسيلة للحط من شأن الأفارقة وقد كانوا يشجعون اللغة العامية رميًا إلى تفكيك وحدة العالم الإسلامي .

وقد عمد المبشرون على أن يتعرفوا على أحوال المسلمين التعليمية والاجتماعية والاقتصادية ثم يسعوا إلى الإصلاح «في الظاهر» سعيًا إلى التأثير على الرأي العام بأن هدفهم خدمة المجتمعات الإفريقية مجردة من الغرض التبشيري .

لم يكن المبشرون محسنين بالمعنى القويم والنبيل الذي نفهمه نحن الأفارقة ، ولكنهم كانوا يستغنون ما بأيديهم من وسائل العطف والإحسان نظرًا للفقر والجهل الذي نعيش فيه حتى يصلوا إلى أهدافهم التبشيرية .

وكان المبشرون أول من بدأ التعليم في قارة إفريقيا وعلى سبيل المثال في أوغندا ظل التعليم قرابة نصف قرن (١٩٢٥ ـ ١٨١٧) ، وعندما تم تأسيس المجلس الاستشاري للتعليم الإفريقي تمثلت فيه للأسف الحكومة البريطانية والإرساليات التبشيرية ، حيث كان المبشرون الإنجليز يحملون أعباء أساسية في إدارة المدارس الإفريقية ، ثم اتسع عدد المبشرين بطريقة مذهلة حيث بلغ عددهم في عام ١٩٢٥م نحو ٦٣٠٠ في جميع أنحاء القارة الإفريقية ، وقد انتشروا في هذه القارة بثياب مختلفة ، تارة في ثياب رجل الدين وأخرى في ثياب الأطباء ومرة ثالثة في ثياب المدرس والموظف .

٢ـ إحياء الاهتمام الفرنسي بغرب إفريقيا :

أثر الاهتمام الفرنسي بغرب إفريقيا تأثيرًا سلبيًا على التعليم العربي وعلى منهجية تطور التعليم في هذه البلاد الإفريقية ، ومما يجب ذكره أن فرنسا في عام ١٨١٧م كان في مقدورها فرض سيطرتها وسيادتها على شمال سيراليون ؛ ولكن في خلال الحروب النابليونية ، انفصلت عن فرنسا المراكز الفرنسية في سيراليون والقريبة من السنغال ، وشعوب السودان كانت تمثل الجزء الأعظم والمهم من الدول القوية إلى حد ما ، فكثيرًا من تجارتها الخارجية كانت مع شمال إفريقيا ، وكان يسيطر عليها التجار المسلمون ؛ لهذا كان من المحتمل أن تقوم فرنسا بغزو عسكري لتخضع هذه الشعوب تحت سيطرتها ، وفي ظل هذه الظروف اضمحل التعليم وانكمش ؛ مما أثر على أجيال تلك الحقبة من الزمن .

٣ـ النشاط الفرنسي في ساحل غينيا في الفترة ما بين أعوام ١٨٦٥ ـ ١٨٨٣م :

من الملاحظ على فرنسا أنها بعد الحروب النابليونية عملت بنشاط كبير جدًا في غرب إفريقيا سواء كان عن طريق :

ـ الغزو الفكري .

ـ تحديد مناهج التعليم في معظم الدول الإفريقية التي استعمرتها .

ـ جذب بعض الأفارقة إلى بلادهم وتقديم بعض المساعدات التجارية لهم .

٤ـ التقدم الفرنسي بالسنغال في الفترة ما بين أعوام ١٥٥٤ ـ ١٨٦٥م :

وفرض مناهج التعليم الفرنسي على هذه الدول الأفريقية وخلق نوع من الفتوحات الاقتصادية كي يكفل الرخاء بالتجار الفرنسيين .

٥ـ بداية الزحف الأوروبي على الأقاليم الإفريقية :

ونقصد بالزحف بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان «زحف فكري ـ زحف عسكري ـ زحف أمني ـ زحف تربوي» وكانت كل من فرنسا وألمانيا يهدفان إلى إيجاد مستعمرات خاضعة لنفوذها بشكل مباشر .

٦ـ تقسيم إفريقيا بين الأوروبيين :

نتيجة لما تتمتع به إفريقيا من ثروات طبيعية وبشرية وحيوانية حدث تنافس بين الدول الأوروبية وكان من نتيجة هذا التنافس أن قسّمت إفريقيا بين الأوروبيين ، ولم يكن هذا التقسيم نتيجة عمل مباشر لحكومتي فرنسا وألمانيا بل كان نتيجة أعمال فردية قام بها الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا ، الذي انحصرت رغبته في حصوله على إمبراطورية خاصة به في الكونغو ، مما أدى إلى نشوب صراع بين كل من بريطانيا وفرنسا والبرتغال ، وقد اضطرهم ذلك في عام ١٨٨٤ إلى المطالبة بعقد مؤتمر الكنغو في برلين ، يضم كل من القوى الأوروبية المهتمة بإفريقيا والتي لها مصالح مشتركة مع الكنغو ، وفي عام ١٨٨٥م ، اجتمع ممثلون عن القوى الأوروبية والعالم ككل [١] ، وتم تقسيم الدول الإفريقية بين المعسكرين الشرقي والغربي ودول عدم الانحياز .

٧ ـ المخابرات الفرنسية ودورها السلبي في نشر التعليم العربي وإجهاض أية محاولة للتغيير وتهميش مناهج التعليم غير الفرنسي ، وعدم إعطاء أولوية في التعليم لمن لا يأخذ حظه من التعليم والمنهج الفرنسي ، ولعل المخابرات الفرنسية هي المخابرات الوحيدة التي تكاد تكون من نوعية خاصة بين

---

(١) سلوى محمد لبيب ، دبلوماسية القمة والعلاقات الدولية ، جمهورية مصر العربية ، دار المعارف ، ١٩٩٧م ، (ص٤٦ ـ ٤٩) .

مخابرات العالم ؛ لأنها منذ تأسيسها تقوم على عمل «اللامعقول» من أجل بقائها ضمن إطار اختصاصها ومهمتها الأساسية ، وهكذا وصلت الحال بالمخابرات الفرنسية في فترة ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى أنها كانت شكلًا من أشكال «الشرطة السرية الداخلية»[١] .

٨ ـ الاستشراق ودوره في نشر الثقافات غير العربية :

الاستشراق لم يكن مجرد تقديم قراءة نقدية لمنظور الحقل وحصاده السياسي ، بل أيضًا الموقف السياسي ، الثقافي الذي يجعل خطابه ممكنًا وقابلًا للبقاء إلى هذا الحد والخطابات والمناهج التعليمية التي على شاكلة الاستشراق لن تكون جديرة باسمها إلا إذا شخصت على نحو اختزالي يجعلها شبيهة بالأحذية : ترقع حين تبلى ، وترمى وتستبدل بالجديد حين تعتق ويتعذر إصلاحها ، الكرامة الأرشيفية والسلطة المؤسساتية الخاصة بالاستشراق يتوجب أخذها على محمل الجد[٢] .

٩ ـ التحديات التي تواجه دول وسط إفريقية «دول الصحراء» :

تشتمل هذه الصحراء على مساحات واسعة من الدول الإفريقية ، والتي تقع أجزاء كبيرة منها في وسط إفريقية ، وتمتاز هذه الدول باعتدال مناخها ، وليست هذه الدول ذات أراض جافة فقط وإنما هي بلاد داخلية بعيدة عن البحار ، منزوية وسط القارة وهي : تشاد ، النيجر ، مالي ، بوركينافاسو ، إفريقية الوسطى ، وقد تعرضت هذه الدول من القارة الإفريقية لأطماع

---

(١) سعيد الجزائري ، المخابرات والعالم ، ج١ ، دمشق ، منشورات مكتبة النوري ، ٢٠٠٠ ، (ص٣٨٣) .

(٢) إدوارد سعيد ، تعقيبات على الاستشراق ، ترجمة صبحي حديدي ، ط١ ، عمان ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧م ، (ص٧١) .

المستعمرة في نواحي متعددة ومنها التعليم والمناهج التعليمية التي تدرس لهذه الشعوب فهي تكاد تكون خاوية من أية تعاليم إسلامية ، و مناهج تربوية تساعد الأجيال الإفريقية على ملاحقة الركب الحضاري الغربي .

١٠ـ التحديات التي تواجه التعليم في الدول الإسلامية في شرقي إفريقية :

ونأخذ الحبشة كمثال لهذه التحديات :

ومع أن ثلثي سكان الحبشة هم من المسلمين غير أن الشائع لدى الناس أن الحبشة بلاد نصرانية ، وذات أغلبية نصرانية وذلك لأن الحكام يفرضون نوعًا من الهيمنة على المسلمين هذا من جهة ونوعًا من الإعلام من جهة ثانية ، هذا بالإضافة إلى الجذور التاريخية للنصرانية في هذه البلاد .

تبلغ مساحة الحبشة ١.٢٢١.٩٠٠ كيلومتر مربع ، وتشغل أكثر أراضيها هضبة مرتفعة يزيد ارتفاعها على ٣٠٠٠م ، تنتصب بين حافتي الأخدود ، وهذا الارتفاع يجعلها غزيرة الأمطار فتنحدر منها الأنهار التي تغذي نهر النيل وأشهرها النيل الأزرق ، وتقل الأمطار كلما اتجهنا شرقًا ويزرع فيها البن والذرة ، والقطن ، وتكثر تربية الحيوانات .

*****

المبحث الثاني

التحديات التي تواجه التعليم العربي المعاصر والتي تتمثل في تقسيم إفريقيا بين المستعمرين

١ـ من أكبر التحديات التي تواجه التنمية بصفة عامة والتعليم بصفة خاصة في الدول الإفريقية هي مشكلة التمييز العنصري .

من أبشع ما خلفه الاستعمار الأوروبي في إفريقيا التفرقة العنصرية ، وهي من المشكلات الشديدة العنف التي عانى منها الأفارقة وخاصة في جمهورية جنوب إفريقيا بعد أن تخلصت روديسيا الجنوبية «زيمبابوي» من هذه المشكلة بعد قيام الحكومة الوطنية فيها .

وقد وصل الأمر أن خصصت للسود أحياء سكنية خاصة عرفت «بالمعازل» حرم عليهم مغادرتها ، كما حرم عليهم استخدام وسائل المواصلات غير المخصصة لهم ، حرم عليهم كذلك دخول المسارح والفنادق والمدارس المخصصة للبيض ، بل وصل الأمر أن خصصت لهم مكاتب بريد وبنوكًا وبالتأكيد امتد الفصل والتمييز إلى التعليم والمستشفيات والمحاكم وغيرها ، فكيف يمكن للتعليم تحقيق أهدافه في ظل هذا التمييز العنصري ؟

*****

الفصل الرابع

الفراغ التربوي وتأثيره على مستقبل التعليم العربي المعاصر في الدول الإفريقية

لم تتمكن الدول الإفريقية أن تعبر فجوة التخلف في مجالات متعددة، كذلك التي بينها وبين الدول المتقدمة، ولم تتمكن هذه الدول من بناء نظام اجتماعي واقتصادي يكون له من المتانة التصدي لكل مجريات الأحداث العالمية دون أن يكون التعليم هو المنفذ إلى هذا التقدم الاجتماعي والاقتصادي الذي تهدف إليه هذه الدول.

إن العالم اليوم كما يراه البعض منقسم إلى دول متقدمة ذات نفوذ وسيطرة على الساحة الدولية، ودول متخلفة مغلوبة على أمرها، خاضعة إلى حد ما للدول ذات السيادة، وقد أدى صراع الدول النامية في مواجهة الشعوب المتقدمة في جميع المجالات، وخاصة في المجال التعليمي الذي هو أساس التقدم في جميع المجالات الأخرى.

والذي يثير الدهشة أن هذه الشعوب الإفريقية النامية انقسمت في كثير من الأحيان داخليًا على نفسها، فكل شعب يوجد فيه المتعلمون والأميون، ومثل هذا الانقسام له من الصعوبات النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي من شأنها تفتيت المجتمع الإفريقي بالإضافة إلى أنها عامل سلبي يشجع على بعض المخاطر، والرياح الاستعمارية التي تهب على هذه الدول من خارجها.

إن مشكلة التعليم العربي في إفريقيا وازدياد أعداد الأميين في مجتمعات تلك

القارة ، وهو عدم مقدرة النظام التعليمي وخاصة في المراحل الأولى على الوفاء بكل أهداف هذه المرحلة ، له من الأهمية بمكان في أن المراحل التعليمية التالية وهي المراحل الثانوية والجامعية كلها تعتمد على نتاج المرحلة الابتدائية ، فالاعتناء بأمر هذه المرحلة هو في الحقيقة اعتناء بجميع المراحل التالية .

وقد كان الاهتمام بالتعليم العالي في الدول الإفريقية على حساب الاهتمام بالتعليم الابتدائي مما جعل هذه المرحلة من التعليم لا تأخذ حظها من الأهمية بواسطة القادمين على التعليم وواضعي السياسات التعليمية بهذه الدول ، وتعاني المرحلة الابتدائية كافة أنواع التصدع والعجز في العنصرين البشري والمادي ، حيث يوجد عجز في الكوادر المدربة والمؤهلة تربويًا للقيام بمهمة التعليم بالإضافة إلى الافتقار إلى وسائل التقنية الحديثة في التعليم ، بينما المدارس المنتشرة في القرى وبعيدًا عن المدن فحدث ولا حرج فهي سيئة وفقيرة جدًا لأنواع وسائل التعليم الحديث ، خاصة وأن هذه المناطق الريفية تضم عددًا من السكان لا يستهان به .

وفي الواقع أن زيادة عدد الأمية في دول إفريقيا يمكن أن ترجع أسبابه إلى عدم كفاءة النظام التعليمي بتلك الدول ، وعليه يمكننا تحديد أسباب الأمية وعدم توافر الكوادر المؤهلة تربويًا للأسباب الآتية :

١ـ عدم قدرة نظام التعليم للمرحلة الأولى على استيعاب جميع الأطفال الذين هم في سن الإلزام .

٢ـ عدم وجود الكفاءة في التعليم الابتدائي على تخريج المتعلم القادرة على القراءة والكتابة بكفاءة مما يتسبب في جعل نسبة عالية من التلاميذ يرتدون إلى

الأمية بعد سنوات قليلة من ترك المدارس الابتدائية .

٣ـ وجود نسبة تسرب عالية بين أطفال المدارس الابتدائية ، نظرًا للفقر الذي تعاني منه تلك الشعوب ، ولجوء الأطفال للأعمال غير المناسبة .

وإلى جوار هذه الأسباب التي تعتبر ينابيع أساسية لتزايد الأمية في الدول الإفريقية ، توجد بعض العوامل تسببت أيضًا في تفاقم تلك المشكلة ومنها :

أولًا : عوامل تتعلق بالمستوى الثقافي المنخفض :

١ـ ضعف عوامل التشجيع للتعليم ومواصلة الدراسة .

٢ـ نسبة التسرب العالي والارتداد للأمية لعدم ممارسة القراءة والكتابة بعد ترك المدرسة الابتدائية .

٣ـ عدم وعي الآباء بقيمة التعليم .

٤ـ عدم توافر مدارس رياض الأطفال ، والتي تعتبر منبهات ثقافية في المجتمعات وخاصة الريفية .

ثانيًا : عوامل تتعلق بعدم تنظيم الأولويات في التعليم :

١ـ عدم وضع أهداف تعليمية واضحة في نظام التعليم الابتدائي ، مما يتسبب في ترك بعض الأطفال المدارس قبل إكمال هذه المرحلة .

٢ـ جفاف المنهج في التعليم الابتدائي وعدم مناسبته لأطفال هذه المرحلة ، ويتمثل ذلك في عدم وجود نماذج محسوسة ، وحصص للأنشطة ، وألعاب ترفيهية .

٣ـ إحساس المتعلم بأن العائد المادي بعد التخرج لا يكفيه .

٤ـ ارتفاع مصروفات التعليم وخاصة أن معظم الأطفال فقراء .

٥ـ عدم قدرة النظام التعليمي على التعامل بفعالية مع التوازن الاجتماعي والثقافي والصحي لحالات العدد الأكبر من الأطفال .

ثالثًا : عوامل تتعلق بسوء الوضع الاقتصادي وعدم العدالة في توزيع الدخل :

١ـ عدم مقدرة كثير من الأسر الفقيرة دفع مصروفات أطفالها ، ونفقات التعليم ، مثل الملبس والمواصلات وغيرها .

٢ـ فقر الأسر الإفريقية يجعلها ترسل أطفالها للعمل بدلًا من الذهاب إلى المدرسة .

٣ـ عدم الوعي الصحي وسوء التغذية للأمهات أثناء فترات الحمل والرضاعة مما يؤدي إلى عدم النمو العقلي والبدني الذي ينتج عنه عدم مقدرة الأطفال على التحصيل .

٤ـ الأمراض المتوطنة مثل الملاريا والتيفود والبلهارسيا وتأثيره على النمو العقلي والصحة بصفة عامة .

٥ـ عدم جدية معلمي هذه المرحلة في كثير من الأحيان ، نظرًا لقلة الرواتب والنظرة الاجتماعية لمعلمي المرحلة الابتدائية .

وهناك بعض الجهود المقترحة من أجل وضع حد لمشكلة الأمية والتعليم الابتدائي منها :

١ـ لابد من ربط مناهج التعليم الابتدائي بالبيئة التي يعيش فيها الأطفال .

٢ـ لابد من وضع أطفال هذه المرحلة تحت مظلة الرعاية الصحية والاجتماعية .

٣ـ زيادة حوافز معلمي المرحلة الابتدائية والترغيب في العمل بهذه المرحلة ، والاهتمام بصفة عامة بوضع معلمي هذه المرحلة .

٤ـ لابد من وضع سياسة حاسمة وسريعة لتعميم التعليم الابتدائي لكل طفل إفريقي مهما كان وضعه الاجتماعي أو الثقافي أو البيئي .

٥ـ لابد من وجود حملات توعية للمواطنين وخاصة في الأرياف بأهمية التعليم والوعي الصحي لهم ، وذلك بكافة الطرق المتاحة ، وحثهم على إلحاق أطفالهم بالمدارس الابتدائية .

٦ـ التوسع في إنشاء رياض الأطفال والمدارس الابتدائية ، وتعليم الأطفال مجانًا ، وتوفير وجبة غذائية لهم أثناء اليوم المدرسي .

٧ـ تقديم المساعدات المادية لبعض الآباء الذين لا تسمح ظروفهم الأسرية بتوفير الأدوات التعليمية لأطفالهم ، وكذلك تقديم المساعدات العينية مثل المواد الغذائية وبعض الملابس ، وتوفير الرعاية الصحية لهم .

٨ـ حشد جميع الطاقات ووسائل الإعلام بجميع وسائلها للحث على التعليم ومواصلات الدراسة وتعلم الأبناء .

٩ـ وضع قوانين رادعة للمواطنين الذين يتسببون في تسرب أطفالهم من التعليم الابتدائي .

رابعًا : عوامل تتعلق بتطوير العناصر البشرية :

١ـ استخدام التقنية الحديثة في تدريب العاملين بحقل التربية والتعليم ،

وتوفير ظروف العمل المناسب لكل متدرب .

٢ـ إعادة النظر في توزيع القوة العاملة في حقل التربية ، وتوجيه القوة البشرية إلى ما يناسبها من عمل تربوي سواء في التعليم أو في تخطيط المناهج أو في الإدارة المدرسية .

٣ـ نهج سياسة بناء الكوادر وتوزيع المهارات والاهتمام بها مع متابعة الإشراف والتقويم والعمل على إزالة العقبات .

٤ـ تنظيم سوق العلم التربوي ووضع الخبرات المناسبة في المكان المناسب حتى لا يلجأ الإنسان الإفريقي إلى شغل وظيفة لا تتناسب مع تخصصه .

٥ـ الاهتمام بالعنصر النسائي وتعليم المرأة على قدم وساق مع الرجل ، وخاصة في مجال التعليم والتمريض والطب .

*****

الفصل الخامس

كيف يمكن للدول الإفريقية مواجهة الصعوبات والتحديات التي تواجه التعليم العربي المعاصر

١ـ معالجة المشكلات التي تتعلق بالنظام السياسي في الأقطار الإفريقية ، وخاصة الإسلامية ، لما تتعرض له من أطماع في مجالات متعددة وخاصة مجال التعليم والسيطرة على مناهجه وطرق التعليم في هذه الدول .

٢ـ حل المشكلات والصعوبات التي تتعلق بالأقطار الإفريقية بعضها مع البعض الآخر ، والتي تتمثل في الحدود بين الدول وانتماء أحد الدول لبعض القوى الغربية ، وإعطاء الفرصة للمستعمر بالتدخل في شئون البلاد الداخلية .

٣ـ زيادة فعالية الجامعة العربية والمنظمات الدولية في كفاحها ضد أطماع العالم الأوروبي ، وقد تكون هناك سلبيات واختلافات في وجهات النظر فيما يتعلق بالدور الذي يمكن أن تقوم به الجامعة العربية وممارستها لحقوقها ومواقفها من القضايا الكبرى ، التي يتعرض إليها العالم العربي والإفريقي ، وواجب هذه المنظمات وتلك الدول أن تتفق فيما بينها على مناهج تعليمية ينتج من تعلمها قوة عقلية تؤثر في اتخاذ القرارات ، التي من شأنها جعل القارة الإفريقية تتقدم بخطوات فعالة نحو الازدهار .

٤ـ إيجاد حلول سريعة للمشكلات الثقافية التي تتعلق بعلاقات الشعوب الإفريقية بغيرهم من المسلمين في الأقطار الإفريقية والعربية الأخرى ؛ لأن

التعليم جزء لا يتجزأ من ثقافات الدول ؛ لذا يجب الحرص على تقويم مناهجه بصفة مستمرة .

٥ـ من أنجح الحلول لمواجهة التحديات والصعوبات التي تواجه التعلم ، هي المشكلات التي تتعلق بالاقتصاد الذي تعاني منه كثير من الدول الإفريقية .

٦ـ التحقق من مدى التزام الدول الإفريقية بتطبيق منهجية الشرعية في التعليم والمناهج وخلق التعاون العلمي والفني والتربوي فيما بينها ، وتبادل الخبرات والمعارف .

٧ـ تفعيل دور منظمة الوحدة الإفريقية وإرغامها على احترام وتنفيذ القوانين الدولية وحل المشكلات ووقف نزيف الدماء بين الدول ، والاهتمام بنواحي التعليم المختلفة في الدول الإفريقية ، وتحديد موقف هذه الدول من التيارات الثقافية المعادية .

٨ ـ معالجة المشكلات التي تتعلق بالمنظمات الدولية والمنظمات الإقليمية ومساعدة الأقليات على النهوض إلى المستوى التعليمي المطلوب ، وزيادة البعثات التعليمية والتربوية والأدبية إلى الدول الإفريقية .

كما يمكن للدول الإفريقية أن تواجه تحديات التعليم بالآتي :

٩ـ وضع نظام مدروس لنشر التعليم بين جميع الأطفال في سن الإلزام .

١٠ـ الإكثار من المدارس الفنية وغرس روح التقدير للعمل اليدوي .

١١ـ اتباع سياسة تهدف لتخريج مواطنين مثقفين وإذكاء روح التفكير والتطوير والإبداع بين جمهرة المتعلمين ، والخروج من إطار التعليم الذي

وضعته الدول المستعمرة ، والذي يهدف لتكوين أناس يتلقون الأوامر وينفذونها .

١٢ـ تشجيع المتعلمين للاتجاه للاستفادة من إمكانات بلادهم للنهوض بها في مجالات الزراعة والصناعة ومجالات الاستثمار الأخرى بدلًا من البطالة ، والتكالب على الوظائف التي قد لا تتناسب في كثير من الأحيان مع التخصصات التي قضوا سنوات طويلة في معرفتها .

١٣ـ الاهتمام بإحياء اللغة العربية وتعاليم الإسلام وسماحته ، والاهتمام بالتراث القومي وإظهار البطولات على مر العصور ، ونشر ذلك بين فئات المتعلمين بالمراحل المختلفة .

١٤ـ تفعيل دور الإعلام الوطني في كل دولة إفريقية بمختلف أنواعه المرئي والمسموع والمقروء .

حيث إن الخلط الإرهابي الإعلامي هو في الوقت الحاضر من أخبث الوسائل المتبعة وأوسعها انتشارًا من حيث توظيفها ، ليس لمكافحة الأعمال الإرهابية بحد ذاتها ، بل لأغراض الحملة العالمية الراهنة الهادفة إلى ربط الإرهاب بالتعليم وخاصة التعليم الإسلامي ، فأصبح حملة الأقلام المعارضة للإسلام والمغرضة تتناول بسمومها شتى مجالات الحياة ومنها مجال التعليم العربي الإسلامي ويتخذون من كل حادثة ترتكبها مجموعة من المجموعات ذات اسم إسلامي ، والتشكيك في أهداف وممارسات تربوية قويمة لا غبار عليها لمجرد أنها ترتبط بالدعوة إلى الحكم الإسلامي [١] .

---

(١) نبيل شبيب ، معالم الموقف الإسلامي بين الإرهاب والاستبداد ، مجلة البيان ، الإصدار الثاني ، مجلة إسلامية شهرية ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، (ص٢٠) .

وقد تبين من خلال الأبحاث التربوية أن وسائل الإعلام يمكنها أن تقوم بدور نشط في مجال التربية والتعليم، عن طريق الوسائل التي تمتلكها على المستوى السمعي أو المرئي أو الاثنين معًا، فكثير من البرامج ما يخدم المناهج المقررة والأبحاث والمواد الدراسية والتعليمية في المراحل التعليمية المختلفة، وتكون مثل هذه البرامج مخططة ضمن النسق المنهجي، ويقوم على إعدادها تربويون متخصصون، وتعرض على فترات زمنية تتيح لطلاب المدارس والمعاهد والجامعات مشاهدتها، في أوقات محددة [١].

١٥ــ إنشاء مراكز للبحوث وتطويرها والعمل على تبادل المعارف والثقافات بين المعلمين والمتعلمين.

١٦ــ الاستفادة من الدراسات والبحوث التي أجريت على الدول الإفريقية.

١٧ـ الاهتمام بمراكز الشباب وتزويدها بالمكتبات العامة وتوفير وسائل التثقيف والترفيه وجعلها في متناول كل الطبقات والمستويات، حتى يتسنى لجميع المراحل العمرية الوقوف على حقيقة ثقافة بلادهم والعمل على النهوض بها في جميع المجالات.

١٨ـ توفير الاعتمادات المالية للنهوض بالتعليم بأنواعه المختلفة العلمية والفنية، وتقديم الحوافز للمتفوقين وتشجيع الكفاءات في مختلف التخصصات والأخذ بيدها.

---

(١) عبد الفتاح أبو معال، عصر وسائل الإعلام على الطفل، ط١، الأردن، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٩٠م، (ص٢٤).

١٩ـ الخروج بالتربية ومنهجية التعليم من قوقعة التخوف من الإلقاء المباشر لموضوع وجود علاقة حقيقية بين موارد الدولة والارتقاء بالتعليم، فقد نجحت الحملات المتوالية في العقود الماضية في التحكم في مقدرات التعليم، ثم صار نجاحها في العصور الحديثة أكبر من خلال ما وصلت إليه من تفتت الشعوب وانقلاب الشعوب على من بيدهم زمام الأمر .

٢٠ـ النقد والإنتاج التربوي من أهم مقومات الحرية التربوية والبناء في المجتمع الإفريقي والنقد التراثي في مختلف المناشط التربوية في مجالات التعليم والتعلم أو مجالات الفكر والتخطيط التربوي أو غيره من المجالات المتعددة .

ويمكننا أن نقسم المناشط التربوية التعليمية إلى أهداف متعددة بطريقة مختلفة وإن كانت الصلة بين هذه الأهداف لا تحتاج إلى تأكيد ونذكر منها :

ـ تعميق الفكر التربوي لدى المتعلمين .

ـ إصدار اللوائح والقوانين والنظم الإدارية في مجال التربية وما يحيط بها .

ـ الربط بين المؤسسات التعليمية .

ـ توفير أدوات التعليم طبقًا لظروف المجتمع وإمكاناته .

ـ المضمون التعليمي في المقررات الدراسية ومدى ارتباطه بحاجات المجتمع .

ـ الكوادر البشرية من معلمين ومتعلمين وإمكاناتها .

٢١ـ لابد من تفعيل دور المنهج في جميع مراحل التعليم نحو العمل، ومساعدة وتشجيع المتعلمين على القيام بأعمال إنتاجية أثناء حصص النشاط في المجالات المختلفة ومنها الاقتصاد المنزلي والرسم وورش المدارس الصناعية ،

حتى يدرك المتعلم قيمة العمل وأهميته ودوره في بناء حضارة المجتمع ، وهذا يحقق تنمية ميول المتعلم نحو تقديس وحب العمل مما يكون لديه اتجاهًا إيجابيًا نحو العلم .

٢٢ـ تعميق الصلة بين ثقافة المجتمع ودور المنهج نحوها .

يجب أن يركز المنهج على تنمية قدرة التمييز على التفكير العلمي ، ويتم ذلك عن طريق تدريبه على حل المشكلات التي ترتبط بحاجته وميوله ، وبالبيئة والمجتمع الذي يعيش فيه ، كما يجب الاهتمام بتدريس اللغة القومية وبعض اللغات الأجنبية وتنمية قدرة التلميذ على الاستماع والفهم والتحدث والقراءة والكتابة ، سواء باللغة القومية أو الأجنبية ؛ نظرًا لما لها من آثار بالغة الأهمية على حياة الفرد والجماعة [(١)] .

٢٣ـ ضرورة تقوية الروابط العربية الإفريقية :

لابد لنا من القول إن تعميق الأواصر والروابط وتقويتها ودعمها بين «إفريقيا» والبلاد العربية ضرورة تاريخية وجغرافية وثقافية وتعليمية لصالح الطرفين ، ولقد جربت إفريقيا معظم أنواع الاستعمار الدموي المتوحش وعانت منه ما عانت ، وضحت بشبابها في سبيل الخلاص منه ؛ لأن الاستعمار جاء ناهبًا وسالبًا ولم يتوفر من أهدافه غير استغلال ثروات هذه البلاد .

٢٤ ـ المساواة بين الناس بمختلف طبقاتهم ؛ لأن ذلك يزيل ما بالحياة من طبقية مبنية على أساس العشائر المسيطرة على زمام الأمور .

---

(١) حلمي أحمد الوكيل ، حسين بشير محمود ، الاتجاهات الحديثة في تخطي وتطوير مناهج المرحلة الأولى ، ط٢ ، الكويت ، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع ، ١٩٩٠م ، (ص٦٩) .

٢٥ـ التعارف وهو ينطوي على فكرة التعايش الذي يزيل ما بين القبائل والمذاهب من تنافس وتناحر وصراع والذي يؤدي بدوره إلى منازعات وحروب مستمرة بين هذه القبائل .

*****

خاتمة

تعرض البحث للصعوبات والتحديات التي تواجه التعليم العربي المعاصر في إفريقيا ، وقد اشتمل على خمسة فصول :

الفصل الأول : أثر الاستعمار على التعليم العربي المعاصر في إفريقيا .

وقد تحدثت فيه عن السياسة الاستعمارية في الدول الإفريقية وكيف استغل الاستعمار الفقر الاقتصادي والتربوي والتهمش السياسي في فرض سيطرته على هذه الدول ، وكيف خطط لفرض نفوذه السياسي والتعليمي .

الفصل الثاني : الصعوبات التي تواجه التعليم العربي المعاصر في إفريقيا ، وقد اشتمل على ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : صعوبات تتعلق بالدول ذات الأطماع وأوضحت فيه أن الاستعمار عمل على نقل نماذجه التعليمية إلى الدول الإفريقية التي استعمرها مما أدى إلى إحكام قبضة اليد على التعليم ومناهجه .

المبحث الثاني : صعوبات تتعلق بالدول الإفريقية ، وقد تطرقت فيه إلى المشاكل التي نشبت بين الدول الإفريقية وبعضها البعض ، وكذلك المشكلات الاقتصادية التي أثرت على التعليم بشكل مباشر ، كما ناقشت عدم وجود فلسفة تربوية صحيحة بين الدول الإفريقية .

المبحث الثالث : صعوبات تتعلق بالإفريقيين أنفسهم ، وقد ناقشت فيه الأوضاع القبلية والعرقية والتي أدت إلى فشل العملية التعليمية في تحقيق جميع أهدافها ، كما أن الصراع الدائم والتنافس الدموي وحب السيطرة ، هو الذي

أدى إلى اضمحلال التعليم، وافتقار مناهجه إلى سياسة تربوية صحيحة.

الفصل الثالث: التحديات التي تواجه التعليم العربي المعاصر في إفريقيا.

المبحث الأول: التوجهات الاستعمارية التي تحدت مسيرة التعليم العربي المعاصر في إفريقيا، ومن أمثلتها البعثات التبشيرية في غرب إفريقيا، وإحياء الاهتمام الفرنسي بغرب إفريقيا، والنشاط الفرنسي في ساحل غينيا.

المبحث الثاني: التحديات التي تواجه التعليم العربي المعاصر والتي تتمثل في تقسيم إفريقيا بين المستعمرين.

الفصل الرابع: الفراغ التربوي وأثره على التعليم العربي المعاصر في إفريقيا:

وتحدثت فيه عن العوامل التي أدت إلى اضمحلال التعليم وافتقار مناهجه إلى التقنية الحديثة وأسباب تدني مستوى الخريجين، وإمكانية رفع المستوى التعليمي والنهوض بالدول الإفريقية إلى لمستوى الثقافي المطلوب.

الفصل الخامس: ناقشت فيه كيف يمكن للدول الإفريقية التصدي للصعوبات والتحديات التي تواجه التعليم العربي المعاصر.

ولاشك أن مجالات البحث مفتوحة لأي فرد لكي يحلل ويناقش ويضع الاقتراحات للنهوض بهذه القارة إلى طريق الازدهار.

والأهم بطبيعة الحال هو البحث عن الصعوبات والتحديات التي تواجه التعليم العربي المعاصر في إفريقيا، وما تتعرض له المؤسسات التعليمية الإفريقية من تخبط وإرهاب فكري وغزو ثقافي، والأهم من ذلك هو الدفاع أولًا عن مصالح الأسرة الإفريقية بمجموعها وهو ما لا يتحقق دون ربط

مكافحة الإرهاب الفكري الدولي بشروط أساسية لا يمكن فصلها عن مكافحة الاستبداد الدولي لجميع المؤسسات الإفريقية وفي مقدمتها :

أولًا : تأكيد مشروعية حق الدول الإفريقية في مقاومة الغزو الفكري وأشكاله المختلفة ، مع مشروعية المقاومة لكل أنواع الثقافات التي من أهدافها تمزيق وتشويه الفكر الإفريقي وتحديد أشكال تلك الثقافات .

ثانيًا : التعامل مع الواقع الدولي على أنه واقع استعماري استبدادي ليس من أهدافه نمو الشارع الإفريقي ، والشروع في معرفة الأسباب النموذجية لتلك الأطماع ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا اجتمعت الدول الإفريقية بكل مؤسساتها على أرضية الواقع المشترك حتى يمكن أن تساهم في معرفة الخلل ومناطق التصدع والعمل على إزالتها من جذورها حتى تنبت الشجرة الإفريقية يانعة خالية من تشوهات وتطل بظلالها على الشعوب الإفريقية بأسرها .

ثالثًا : تلاقي المواقف والجهود والوقوف على التوجهات الاستعمارية بكل الوسائل الممكنة ، حتى يمكن مقاومة أوضاع جائرة مرفوضة بكل مقاييس الشرائع السماوية والدولية والعقلية ، والرجوع إلى نقطة البداية للتحرك من جديد من داخل بلادنا الإفريقية مصطحبين معنا أحكام الشريعة الإسلامية واحترام إرادة الشعوب وتحقيق طموحاتها مع غرس المزيد من الأسباب التي تؤدي إلى زيادتها وتفاعلها مع دول الجوار .

رابعًا : لابد وأن يكون التعليم ومناهجه متمشيًا جنبًا إلى جنب مع الأهداف القومية للشعوب الإفريقية مجتمعة ، ولابد أن تنتزع الجسور والعقبات والحواجز التي تحول دون ذلك ، حتى تأتي النتائج متفقة مع طموحات الشاب الإفريقي الذي يأمل أن يحيى حياة مملوءة بالعلم والإيمان

دون أن تمتد يد المستعمر لتفسدها وتعمل على وقف نموها .

خامسًا : يجب أن تركز أجندة العمل الإفريقية وحقائب التربويين على الصورة الحقيقية للتعاون بين تلك الدول وخاصة في المناطق ذات المصالح المشتركة حتى لا توضع أوراق تلك الدول في حقائب مستبدة أخرى ، وأن تحتوي تلك الحقائب على معرفة الأسباب التي تعوق الديمقراطية منها الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة الإفريقية .

سادسًا : أن تتعاون الدول الإفريقية في نزع فتيل النزعة القبلية البدائية ووضع الضوابط لكي تترابط الأسرة الإفريقية بدلًا من التفكك وضياع أجيال متعاقبة من الأطفال .

والدراسة المتأنية والمدققة لتاريخ الإسلام والمسلمين في القارة الإفريقية وتاريخ التعليم لشعوب هذه القارة ، ولما واجههم في سبيل نشر رسالتهم وما يواجههم اليوم هو الطريق السليم لتعليم هذه الشعوب ونشر الإسلام وتعاليمه على نطاق واسع .

وهذا هو واجب المسلمين دولًا وأفرادًا .

والله المعين .

«الباحث»

المراجع والمصادر

أولا : المراجع العربية :

١ـ أحمد طاهر ، أفريقيا فصول من الماضي والحاضر ، جمهورية مصر العربية ، دار المعارف ، (د . ت) .

٢ـ أحمد سيكوتوري ، أفريقيا والثورة ، ترجمة أديب اللجمي ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٦٧م .

٣ـ باتيرك موما ، الاستعمار والفراغ ، مجموعة البحوث المقدمة في المؤتمر العلمي العالمي حول الاستعمار والفراغ ، قسم العلوم السياسية ، ط١ ، ليبيا ، بنغازي ، جامعة قاريونس ، كلية الاقتصاد ، ١٩٩١م .

٤ـ بول كيندي ، الاستعداد للقرن الحادي والعشرين ، ترجمة محمد عبد القادر ، غازي مسعود ، جمهورية مصر العربية دار الشروق ، ١٩٩٠ .

٥ـ حلمي أحمد الوكيل ، حسين بشير محمود ، الاتجاهات الحديثة في تخطي وتطوير مناهج المرحلة الأولى ، ط٢ ، الكويت ، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع ، ١٩٩٠م .

٦ـ زغلول راغب النجار ، أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالي للفكر الإسلامي ، ط٢ ، ١٩٩٥ .

٧ـ سعيد الجزائري ، المخابرات والعالم ، ج١ ، دمشق ، منشورات مكتبة النوري ، ٢٠٠٠ . إدوارد سعيد ، تعقيبات على الاستشراق ، ترجمة صبحي حديدي ، ط١ ، عمان ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧م .

٨ ـ سلوى محمد لبيب ، دبلوماسية القمة والعلاقات الدولية ، جمهورية مصر العربية ، دار المعارف ، ١٩٩٧م .

٩ـ شوقي عطا الله الجمل ، عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم ، جمهورية مصر العربية ، مكتبة كلية الآداب بقنا ، ١٩٩٦م .

١٠ ـ عبد الله عبد الدائم ، التربية في البلاد العربية ، لبنان ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٤م .

١١ ـ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، شوقي عبد الله الجمل ، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، جمهورية مصر العربية ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٧م .

١٢ ـ عبد الفتاح أبو معال ، عصر وسائل الإعلام على الطفل ، ط١ ، الأردن ، عمان ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ١٩٩٠م .

١٣ـ فيج . جي . دي ، تاريخ غرب إفريقيا ، ترجمة السيد يوسف نصر ، بهجت رياض صليب ، ط١ ، جمهورية مصر العربية ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .

١٤ ـ محمد جلال عباس ، المد الإسلامي في إفريقيا ، جمهورية مصر العربية ، القاهرة ، المختار الإسلامي للطباعة والنشر ، ١٩٩٨م .

١٥ ـ مصطفى خالدي ، وعمر فزوخ ، التبشير والاستعمار ، ط٥ ، بيروت ، لبنان ، المكتبة العصرية ، ١٩٧٣م .

١٦ ـ محمد عبده يماني ، إفريقيا لماذا ، جمهورية مصر العربية ، القاهرة ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .

١٧ـ محمود طنطاوي دنيا وآخرون ، الفكر التربوي ، ط٣ ، الكويت ، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب ١٩٨٨ .

١٨ـ مركز الدراسات العربي الأوروبي ، تحديات العالم العربي في ظل المتغيرات الدولية ، المؤتمر الدولي الثاني ، جمهورية مصر العربية من ٢٥ ـ ٢٧ يناير ١٩٩٤ .

١٩ـ نبيل شبيب ، معالم الموقف الإسلامي بين الإرهاب والاستبداد ، مجلة البيان ، الإصدار الثاني ، مجلة إسلامية شهرية ، ط١ ، ٢٠٠٤م .

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

(20) Bowend , Lord , B.V . Opemining . Address , Conference of Crisis in engineering and science education units (Manchester , England) 1974 .

(21) coombs P.H THE WORLD DEUCATIONAL CRISIS OXFORD UNIVERSITY PRESS (NEW YORK) LONDON TORONTO 1968 .

(22) ficicher . c.s (editor) educallenge ahead 1962.

(23) MC Donald f j : Education psychology second Education 6 th printing wads worth publishing co inc Belmont California 1969 p 170 .



المراكز الحضارية في القارة الإفريقية ، ودورها التعليمي والثقافي في بلورة الشخصية الإفريقية

إعداد

أ/ فادية عبد العزيز إبراهيم القطعاني(*)

مقدمة

إن الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية يعود زمنها إلى فترة ما قبل الإسلام ، إنها قديمة ، وهذا ما تدلل عليه النقوش الأثرية ، فقد تنقل العرب في أفريقيا ، وتنقل الأفارقة في بلاد العرب ، واختلطوا وتزاوجوا ، وتبادلوا الأفكار ، وتأثرت ثقافاتهم بعضها بالبعض الآخر ، فلم تقف البحار أو الصحاري حائلًا دون ذلك الاتصال .

وبعد دخول الإسلام إلى القارة الأفريقية وانتشاره فيها ، أصبحت أفريقيا مركزًا مهمًا من مراكز الحضارة الإسلامية ، وأصبحت اللغة العربية لغة الفكر والثقافة في أفريقيا ، وعبرت المؤثرات العربية وانتشرت في شرق أفريقيا ووسط القارة ، وحملها العرب للتقدم غربًا حتى أعماق الكونغو ، وعبر الصحراء الأفريقية ، لتترك آثارها الحضارية ، تتزاوج وتختلط بالإنسان الأفريقي ، اجتماعيًا وعقائديًا وثقافيًا وحضاريًا واقتصاديًا .

وهكذا ، بفضل انتشار الإسلام ، وضعت أفريقيا على الخريطة الحضارية والثقافية في العالم ، بقيام مراكز حضارية إسلامية فيها ، منها ــ على السبيل ــ

(*) باحثة ليبية .

تمبكتو وجني وكانو وغيرها .

وقد كانت هذه المراكز العلمية منارات يهتدي بنورها كل متطلع إلى العلم والمعرفة ، فقد فتح الإسلام أمام الإنسان الأفريقي آفاقًا جديدة ، وبانتشاره حدثت ولادة روحية جديدة للثقافة الأفريقية ، أحدثت تغييرات جذرية في نمط حياة الإنسان الأفريقي ، فقد تدخل الإسلام ـ بدون شك ـ في صياغة النسق الفكري عند الأفارقة ، وعملت مجموعة الخصائص والسمات التي اختص بها الإسلام على إعادة تشكيل الشخصية الأفريقية وبلورتها ، وفق ما تضمنته الثقافة العربية الإسلامية ، حيث منظومة القيم فيها ثابتة مستوحاة من الوحي الكريم ، الذي يكرم الإنسان لأنه إنسان ، والذي يأمر بالشورى والعدل كأسس للحكم ، ويرفض الظلم ، وينادي بالحرية والمساواة والسماحة الفكرية والاجتماعية وبالمسؤولية في العمل ، بوصفها أسس قيام الجماعة البشرية .

ومن هنا ، فإن هذه الدراسة تهدف إلى إبراز تأثير التعليم والثقافة العربية الإسلامية في الإنسان الأفريقي ، من خلال الدور التعليمي والثقافي للمراكز الحضارية في القارة الأفريقية ، حيث سيتم تناول موضوع المراكز الحضارية في القارة الأفريقية ، ودورها التعليمي والثقافي في بلورة الشخصية الأفريقية ، من خلال النقاط التالية :

١ ـ لمحة تاريخية عن علاقة العرب بأفريقيا .

٢ ـ المراكز الإسلامية في أفريقيا ودورها في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية .

٣- تأثير التعليم والثقافة العربية الإسلامية في الشخصية الأفريقية .

أولا : لمحة تاريخية عن علاقة العرب بأفريقيا :

لا شك أن الترابط الجغرافي وحركة التواصل البشري بين العرب وأفريقيا تمتد جذورها في أعماق التاريخ ، فبالنظر إلى الخريطة الأفريقية من القرن الأفريقي شرقًا إلى نهر السنغال غربًا ، ومن البحر المتوسط شمالًا إلى أواسط أفريقيا جنوبًا ، لا نلحظ الفواصل الجغرافية ، أو الموانع الطبيعية العائقة للتواصل والتلاحم والتفاعل المشترك .

فالبحر الأحمر لم يكن ليحول بين العرب وشرق أفريقيا ، كما أن الصحراء لم تكن إلا عامل اتصال عبر العديد من الطرق التي كانت تتخلل القارة ، ذهابًا وإيابًا ، بين شمالها وجنوبها ، فالعلاقة بين العرب وأفريقيا تاريخيًا هي علاقة روابط تاريخية وحضارية ، وسأحاول في هذه النقطة أن أسلط الضوء بإيجاز على هذه العلاقة .

ارتبط العرب في الجزيرة العربية بعلاقة وثيقة مع البلاد الأفريقية المجاورة لهم ، سواء في الساحل الشرقي الأفريقي ، أو سواحل البحر الأحمر ، أو البلاد المتاخمة للصحراء الكبرى ، وقد تكونت هذه العلاقة منذ البداية على الود والتآخي ، فبدأت تجارية مصلحية متكافئة [١] .

وقد تم الاتصال بين العرب وسائر شرق أفريقيا عبر منطقتين ، حملتا المؤثرات العربية إلى شرق أفريقيا هما :

جنوب البحر الأحمر والخليج العربي ، وأسهم قرب المسافة بين شاطئ

---

(١) صالح عبد السلام البغدادي ، اللغة العربية ودورها في الثقافة العربية ، أعمال مؤتمر التعليم ، ج٢ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٣٣٣) .

البحر الأحمر والشاطئ الأفريقي في المناطق الجنوبية ، عند باب المندب ، ومنذ عصور مبكرة ، في ربط هاتين المنطقتين ، وذلك باتخاذه معبرًا تدفقت من خلاله موجات الهجرات الأولى ، التي شكلت السكان في المنطقة ، ومما ضاعف من أهمية وعبقرية المكان العامل الاقتصادي المتمثل في المصالح التجارية المتبادلة بين شاطئ باب المندب الأفريقي والآسيوي ، حيث كان باب المندب يتحكم في عملية التبادل التجاري بين الشرق « الصين ، الهند ، فارس » ، وبين أفريقيا ، وكان من نتائج هذا الارتباط الاستراتيجي والتجاري بين شاطئ باب المندب ، أن ارتبطت مصالح الشعوب المطلة عليه سياسيًا واجتماعيًا ، وهو ما فسح المجال أمام سكان المنطقتين من جهة أخرى لتبادل المؤثرات الحضارية بينها (١) .

بيد أن حدود العلاقة بين العرب وأفريقيا لم تقف عند باب المندب ، بل امتدت إلى أجزاء أخرى ، حيث تمت اتصالات بين بلاد العرب وشرق أفريقيا عبر الخليج العربي ، تعود في تاريخها إلى حقب قديمة ، كما حددتها الأدلة الأثرية التي أرجعتها إلى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، كما قامت مملكة معين وحضرموت في ذلك الوقت ، بدور تجاري مهم بين الجزيرة العربية وشرق أفريقيا ، وكانت التجارة في هذه المنطقة تعتمد على السلع التي تنتجها بلاد العرب ، إلى جانب السلع الأخرى التي تجمع من أفريقيا والشرق ، مما تطلب من معين وحضر موت القيام بدور مهم وفعال لتوسيع دائرة الاتصال بين هذه المناطق ، حتى تتجمع السلع لتجار البحر المتوسط .

---

(١) أحمد إلياس حسين ، انتشار الإسلام في شرق أفريقيا ، محاضرات الموسم الثقافي (١٩٧٩، ١٩٨٠) ، ط١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، ١٩٨٩ ، (ص٢٢٦) .

وقد ترتب على هذا العمل المهم الحافل بالنشاط أن كان لكل من الطرفين سفنه التجارية العاملة بين الخليج العربي والساحل الأفريقي [١] .

وفي هذا الإطار يمكن القول : إن المناخ ، علاوة على الموقع الجغرافي المؤثر ، كان عاملًا مساعدًا في تنمية علاقة العرب بأفريقيا ، وفي التواصل بين المنطقتين ، فقد لعبت الرياح الموسمية التي تهب في فصل الخريف في اتجاه جنوبي - غربي في دفع السفن من موانئ الهند والخليج العربي إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ثم تواصل اتجاهها في دفع السفن إلى الجنوب الغربي ، على سواحل أفريقيا ، وفي فصل الربيع يتغير اتجاه الريح إلى الشمال ، فيمكن السفن من العودة على الطريق نفسها [٢] .

وهكذا ، مع انتظام حركة التجارة البحرية القائمة على الاستفادة من العوامل الجغرافية ، ومصادر السلع ، وبعد أن صارت الملاحة أمرًا معروفًا من البحر الأحمر ، إلى السواحل الأفريقية والهند ، في الألف الأخير قبل الميلاد ، توطدت الصلات ، وقويت الروابط بين السواحل العربية والأفريقية الشرقية .

وفي هذا السياق تشير بعض الدراسات إلى أن أقوى ارتباط للعرب بشرق أفريقيا تم في عهد دولة هوازن العربية ، من خلال الدور الذي قامت به في تعميق وتقوية الصلات التجارية على ذلك الساحل ، كما فعل الفينيقيون في البحر المتوسط ، ولعل ما تركته هذه الدولة يدل على عمق الأثر على تلك السواحل ، فقد عرفت سواحل الصومال وكينيا وتنزانيا قديمًا باسم « ساحل

---

(١) المصدر السابق ، (ص٢٢٨) .

(٢)المصدر السابق ، الموضع السابق .

هوازن » أو « أزانيا »[١] .

نخلص مما سبق إلى أن سواحل شرق أفريقيا قد أطلت على السواحل العربية ، وتبادلت معها المصالح التجارية ، وقد كان للتجارة الأفريقية نصيب وافر أسهمت به في تجارة العالم القديم ، مما هيأ له التعرف على مختلف الثقافات القديمة .

أما عن علاقة العرب بغرب أفريقيا فلا يمكن الحديث عنها دون أن نعالج جغرافيتها ، وذلك لما لها من تأثيرات واضحة على تاريخها خلال العصور ، كما لا يمكن أن نتجاهل الدور المؤثر للصحراء الكبرى في سير هذا التاريخ ، أثناء الألف سنة الأخيرة على الأقل ، وذلك للعلاقة المتبادلة والمستمرة بين أهالي الصحراء الكبرى وشعب السودان الغربي .

تقع بلاد السودان الغربي في غربي أفريقيا ، وتطل على المحيط الأطلسي غربًا ، وخليج غينيا جنوبًا ، وتحدها الصحراء الكبرى من الشمال ، ومن الشرق خط يكاد يمر بالحدود الشرقية لنيجيريا ، وليس من اليسير تحديد الحدود الشمالية والشرقية لغرب أفريقيا تحديدًا دقيقًا بالمصطلحات الجغرافية التقليدية ، فليس هناك في الشرق أو في الشمال حواجز جغرافية طبيعية تعتبر علامات بارزة تحدد بوضوح اتساع الأقاليم التي تحتوي على أفريقيا الغربية ، ولم تكن الصحاري أو النهران الكبيران « النيجر والسنغال » اللذان يجريان بمحاذاة حافة الصحاري الجنوبية ، في أي يوم من الأيام لتمنع أو تعطل انتقال الشعوب المختلفة أو تعرقل تجارتها .

بالإضافة إلى ذلك فإن المتوغل في غرب أفريقيا ، من جهة الشمال ، يلاحظ

---

(٣) المصدر السابق ، (ص٢٢٩) .

تغيرًا جغرافيًا يطرأ أثناء الانتقال من الصحراء إلى الأماكن الآهلة بالسكان، كما يشاهد أن بعض مناطق الصحراء ليست خالية تمامًا من السكان، وأنه ليس بشرقها حواجز جغرافية طبيعية حتى تصل إلى مستنقعات النيل الاستوائية، أو المرتفعات الحبشية، هذه الصورة الجغرافية العامة أثرت بشكل ملحوظ في تاريخ وحضارة هذه المنطقة عبر العصور (١) .

لقد أثبتت الدراسات الأثرية والتاريخية مدى الوحدة الثقافية وتأصلها وتجذرها بين سكان هذه المنطقة، فنقوش ورسوم ما قبل التاريخ التي وجدت في كهوف وعلى صخور وفي وديان المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقًا، حتى المحيط الأطلسي غربًا، أي من صعيد مصر والسودان حتى موريتانيا ومالي، تؤكد تماثل وتداخل هذه الأدوات والنقوش والرسوم في أعمارها وعناصرها وموضوعاتها وأساليبها ومدلولاتها، وهذا يشهد على ما كان بين سكان هذه المنطقة من اتصال وتواصل، وتأثر وتأثير (٢) .

كذلك عثر المنقبون على صور للعربات والأبقار والحيوانات وأنواع من الأسلحة وأصناف المزروعات، وكانت العربات تشق طريقها من البحر المتوسط إلى غرب أفريقيا، عبر الطريق نفسها التي سلكتها القوافل في العصر التاريخي المعروف، فقد سلكت العربات طريقين رئيسيين، من الشمال الأفريقي إلى غرب أفريقيا، مستخدمة في ذلك الخيول والأبقار :

---

(١) عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية بإفريقيا، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٦١، (ص٧) .

(٢) عبد السلام محمد شلوف، المقوم التاريخي لإنجاح تجمع دول الساحل والصحراء، مجلة الثقافة العربية، ع١، (ص٢٧)، يناير ١٩٩٩، (ص٣١) .

الأول من سرت في ليبيا حتى مدينة غاو أو جاو في مالي ، عبر الهاجار وجبال إيفوارس .

والثاني من جنوب المغرب إلى وادي نهر النيجر ، عند بلدة كوندام في مالي .

وقد جرت المبادلات التجارية بين الطرفين ، خاصة في العاج وريش النعام ومسحوق الذهب والأدوات المصنوعة ، وهو أمر له شأنه في الميدان الحضاري [١] .

وفي هذا الإطار أيضًا انصبت الدراسات على جانب آخر من الجوانب الاقتصادية لتلك العلاقة في مجالين هما : اللغة ، واستخدام المعادن .

ففي مجال اللغة يقر بعض الباحثين بقوة تأثير سكان شمال أفريقيا ، بحكم القرب الجغرافي والعلاقات البشرية الواضحة بين جنوب الصحراء الكبرى وشمال أفريقيا ، ويؤكدون على أن السكان القدماء في هاتين المنطقتين يشتركون في ثقافة ذات أصل واحد .

أما في مجال المعادن فقد لعبت دول الشمال الأفريقي دورًا مهمًا في تعريف غرب أفريقيا بطرق استعمال المعادن ، الأمر الذي أدى إلى تقدم حضاري متطور ، نتج عنه الانتقال من حضارة معدنية إلى أخرى [٢] .

وإذا استعرضنا تاريخ غرب أفريقيا في العصور التاريخية ، نجد أن صلاته بالعالم الخارجي كانت في الغالب ، عن طريق الصحراء الكبرى بصفة رئيسية .

---

(١) عطية مخزوم الفيتوري ، الروابط التاريخية والحضارية بين دول الساحل والصحراء وموقف الاستعمار منها ، مجلة الثقافة العربية ، ع١ ، (ص٢٧) ، يناير ١٩٩٩ ، (ص٣٦) .

(٢) المصدر السابق ، (ص٢٦ـ ٣٧) .

وكانت تلك الصلات قليلة في الجهات الساحلية ، وقد تيسر النقل عبر الصحراء كثيرًا منذ حوالي عام ٣٠٠م ، حينما أصبح الجمل وسيلة النقل في شمال أفريقيا ، حيث لعب هذا الحيوان دورًا مهمًا في تاريخ المنطقة الاقتصادي « التجاري » ، وذلك لربطه تلك المناطق اقتصاديًا بسواحل البحر المتوسط ، وقد أسهمت هذه الوسيلة في دعم الترابط والتقارب ، وجعلت من الصحراء دولة واحدة ، سواحلها البحر المتوسط شمالًا ، وخط الاستواء جنوبًا [(١)] .

ومما يؤكد ذلك أن انتقال عروض التجارة ما بين أوروبا ودول الصحراء كان يتخذ من موانئ دول الساحل منفذًا له ، وقد بنت المدن الساحلية الشمالية القديمة ، كقرطاجة وصبراته وأويا ولبدة وغيرها ، مجدها وازدهارها على أنها ممرات ومعابر لهذه التجارة ، ومحطات لها .

كما أن مدن الدواخل ، مثل مرزق وغات وغدامس وتمبكتو وكانم وغيرها ، اعتمدت في وجودها ونشاطها على التجارة عينها ، وكانت القوافل المكونة من الرجال والجمال المحملة بالأرزاق ترتاد الصحراء في كل الاتجاهات ، وفي كل الأوقات ، تنقل عروض التجارة وقاصدي الحج وطلاب العلم .

ومنذ أقدم العصور كانت الهجرات الوافدة من الشرق إلى طريق القرن الأفريقي ، أو عن طريق سيناء ، أو عن طريق البحر ، تنساح في الشمال الأفريقي ، حتى تصل المغرب الأقصى ، ويستقر بعضها حيث أراد ، ويواصل بعضها هجرته ليجتاز الصحراء جنوبًا ، لينتشر في دول الصحراء .

هذه الهجرات أحدثت تأثيرًا اجتماعيًا وثقافيًا ، انعكس على الروابط القديمة حتى أن العديد من القبائل في دول الصحراء يعود أصلها إلى هذه

---

(١) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص٨) .

الهجرات والتحركات [١] ، فقد كانت أفريقيا ، بحكم موقعها على الساحل المقابل للجزيرة العربية ، مجالًا حيويًا للجماعات التي خرجت من بلاد العرب في موجات من الهجرات المتتالية ، منذ أقدم العصور ، وخاصة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، حيث لم يشكل البحر الأحمر عقبة أمام استمرار الهجرات البشرية ، عبر مضيق باب المندب ، حيث يضيق الطرف الجنوبي للبحر الأحمر ، فيقترب جنوب الجزيرة العربية قربًا شديدًا من شرقي القارة الأفريقية في تلك الجهات ، ويسهل عملية التنقل بينهما .

وهكذا كان باب المندب إحدى نوافذ الهجرة من الجزيرة العربية وغربي آسيا إلى أفريقيا ، وامتدت هذه الهجرات لتشمل مساحات واسعة في شرق أفريقيا « الحبشة والصومال » ، وانتقل بعضها شمالًا إلى السودان ومصر والصحراء وحتى شمال أفريقيا ، وهكذا كانت مصر والسودان وشمال أفريقيا مراكز استقطاب للمهاجرين عن طريق باب المندب أو برزخ السويس ، الذي يعد منفذًا قديمًا منذ ما قبل العصر الحجري الحديث [٢] .

كذلك حدثت في إطار علاقة العرب بأفريقيا ، هجرات منظمة واسعة نحو الجنوب ونحو الصحراء وما وراءها ، كما عرفت تلك الجهات هجرات متلاحقة من مختلف قبائل الشمال الأفريقي ، قطنت الصحراء ووسط النيجر وغانا ، ومن هذه الهجرات التي كان لها تأثير على الأوضاع الديمغرافية والسياسية بالصحراء وغرب أفريقيا :

---

(١) عبد السلام شلوف ، مصدر سابق (ص٣٣) .

(٢) حبيب وداعة الحسناوي ، الهجرة الإفريقية بين الماضي والحاضر ، ع١ ، (ص٢٢) ، يناير ٢٠٠٠ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، (ص١٥٦، ١٥٧) .

١ـ المجموعة الأولى : كانت جماعة من صنهاجة ، وخاصة من قبائل لمتونة الملثمين ، وقد قطنت الواحات الصحراوية في شمال شرق مالي الحالية ، وأصبح يطلق عليها اسم الطوارق .

٢ـ المجموعة الثانية : من صنهاجة أيضًا ، وقد اتجهت نحو الجنوب الغربي ، وتوغلت في مدن أفريقيا ، واستقرت في المناطق التي تتوفر فيها المياه والمراعي .

٣ـ المجموعة الثالثة : جاءت بعد اكتساح الوندال للمغرب ، في بداية القرن الخامس ، واتجهت على طريق الواحات الوسطي ، باحثة عن مكان للاستقرار ، فاستقرت في كوكبًا الواقعة جنوب مدينة غاو ، حيث التربة الخصبة والثروة السمكية والوسط التجاري المناسب [(١)] .

يتضح مما ذكر أن علاقة العرب بأفريقيا ضاربة في القدم ، وأن هذه العلاقة حملت على مر العصور طابع الديمومة والحيوية ، نظرًا لتوفر مقومات وجودها المستمد من العامل الجغرافي والاقتصادي ، الأمر الذي ترتب عليه علاقات سياسية واجتماعية ، ساهمت بدورها في توطيد ودوام علاقة العرب بأفريقيا .

ثانيا : المراكز الإسلامية في أفريقيا ودورها في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية :

بعد هذه اللمحة الموجزة عن علاقة العرب بأفريقيا قديمًا ، لا يمكن لنا الحديث عن المراكز الإسلامية في أفريقيا ودورها التعليمي والثقافي ، دون التطرق للإسلام والوشائج التي أوجدها ، منذ ظهوره في العقد الثاني من القرن السابع الميلادي ، ودخوله إلى القارة الأفريقية ، وما ترتب على ذلك من

---

(١) عطية مخزوم الفيتوري ، الروابط التاريخية ، (ص٣٦) .

نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، غيرت على نحو شامل البنية والسمات العامة التي كانت عليها القارة من قبل ، وهو ما سيوضح في حينه .

١ـ نظرة عامة على دخول الإسلام إلى أفريقيا :

لقد بدأت الدعوة إلى دين الله من أول يوم ظهر فيه الإسلام ، وإذا كانت الدعوة قد بدأت في المحيط العربي ، من حيث إنه نبع في الجزيرة العربية ، فإنها لم تلبث ، بعد الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة المنورة ، وبعد تحقيق الأمن الداخلي لمسلمي الجزيرة العربية ، أن اتسع نطاقها لتتجاوز حدود الجزيرة العربية إلى العالم الخارجي [(١)] .

ويعود الفضل في هذا الانتشار إلى ما كان يتمتع به الإسلام من خصائص وسمات ، شكلت المحور الأساسي في إقناع الآخرين باعتناقه ، فالإسلام يدعو إلى التوحيد ، وينادي بتحرير العقيدة من الشرك ، وبتحرير العقل والفكر ، ويدعو إلى طلب العلم والتعلم ، وإلى الحرية المسؤولة ، والعدل والمساواة ، وطلب الرزق ، والجد في العمل والحياة ، بجانب العمل للآخرة ، كما يدعو إلى نشر العقيدة الإسلامية وإلى الجهاد في سبيل الله للدفاع عنها ، وعن أرض الإسلام ومصالح المسلمين [(٢)] .

فالعوامل الذاتية التي اختص بها الإسلام كدين وعقيدة ومنهج وسلوك أثرت بشكل واضح على انتشاره ورسوخه في أفريقيا عمومًا ، وبدرجة سريعة .

---

(١) عمر محمد التومي الشيباني ، تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا ، ط١ ، طرابلس ، منشورات جامعة الفاتح ، ٢٠٠١ ، (ص٩٩) .

(٢) المصدر السابق ، الموضع السابق .

ولقد أشرنا في بداية حديثنا إلى صلات العرب بشرق أفريقيا وشمالها وغربها قبل ظهور الإسلام ، والحقيقة أنه لولا هذه العلاقة ما كان للإسلام أن يشق طريقه إلى أفريقيا ، فالأرضية التي نمت عليها الصلات العربية الأفريقية هي أرضية الصلات التي كانت تربط بين تلك المناطق قبل ظهور العرب وحضارتهم ، وقبل ظهور الإسلام وانتشاره .

أما عن الطرق التي سلكها الإسلام إلى أفريقيا ، فنجد أنه نبع من شبه الجزيرة العربية ، وانتشر في مصر وشمال أفريقيا ، بيد أنه كان قبل ذلك في الحبشة ، حيث يرجع أول اتصال للمسلمين بشرق أفريقيا إلى الفترة التي سبقت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، فقد تمت اتصالات بين الرسول ﷺ ونجاشي الحبشة منذ السنة الخامسة للبعثة ، وتوجهت تلك العلاقة بهجرة أصحابه إليها ، أمام أذى قريش ، وقد تمكن المهاجرون من عرض رسالتهم بصدق في بلاط النجاشي ، وبذلك يكون صوت الإسلام قد ارتفع في الحبشة ، قبل أن يتعدى حدود مكة المكرمة .

وبعد انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، واستقرار الأحوال فيها ، نشطت المسالك القديمة في نقل الدين الجديد إلى السواحل الأفريقية ، ودخلت العلاقات مرحلة جديدة ، حتى أصبح ما بين أريتريا ومدغشقر ، منذ القرن الهجري الأول ، جزءًا من العالم الإسلامي .

وكان مما سهل هذا الأمر المعلومات الوافية التي كانت لدى العرب عن شرق أفريقيا ومسالكها ، عند ظهور الإسلام ، حيث كانت الحبشة قريبة من

اليمن ووثيقة الصلة بها [(١)] .

والجدير بالذكر هنا ، ذلك الدور المهم الذي لعبته بلاد البجة وجزر دهلك في نشر الإسلام في شرق أفريقيا ، فالعرب كانوا قد عرفوا أرض البجة أو البجاة ، حيث كانت تقع مواطن قبائل البجة في المنطقة المحصورة بين نهر النيل والبحر الأحمر ، فقد كان العرب يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر الأحمر ، وانتشروا في بلاد النوبة وغيرها ، لاسيما بين النيل النوبي والبحر الأحمر والأراضي الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريبًا ، مما أدى إلى انتشار الإسلام بينهم عن طريق الإقامة والمصاهرة ، وتوثقت عرى التعاون بينهم وبين العرب بمرور الزمن ، وقد ساهمت الظروف السياسية والاقتصادية الخاصة بالعرب في توطيد هذه العلاقة [(٢)] .

أما جزر دهلك فهي تضم أكثر من مائة جزيرة ، أهمها دهلك كبير ، دحل ، نخرة ، وغيرها ، وتقع مقابل ميناء مصوع في البحر الأحمر ، وتعد هذه الجزر مهدًا لحضارة شمال شرق أفريقيا ، فقد كانت بحكم موقعها الجغرافي القريب من البرين العربي والأفريقي ، وعلى مقربة من طريق الملاحة الدولي في البحر الأحمر ، ملتقى للحضارات ، ومركزًا للتجارة ، وكانت لها علاقات مع مصر

---

(١) أحمد إلياس حسين ، مصدر سابق ، (ص٢٣٠ ، ٢٣١) ، كذلك علي الطاهر عريبي ، ملامح صلات العرب الثقافية بأفريقيا الشرقية ، أعمال مؤتمر التعليم ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٢٢٧) .

(٢) محمد كريم إبراهيم ، أثر العرب في بلاد البجة وجزر دهلك على انتشار الإسلام والثقافة العربية في شرق أفريقيا « الحبشة » ، مجلة البحوث التاريخية ، ع١ ، س١٩ ، يناير ١٩٩٧ ، طرابلس مركز جهاد الليبيين ، (ص٦٠ ، ٦١) .

واليونان في العصور القديمة .

وقد تشكل سكان دهلك ـ في الأعم الأرجح ـ كما تذكر بعض المصادر من الهجرات اليمنية ، بحكم موقعها الجغرافي ، فهي لا تبعد عن الحديدة على الساحل اليمني سوى نحو خمسين كيلومترًا ، وقد استقرت فيها موجات المهاجرين من الحميريين في عهد سبأ ، بعد انهيار سد مأرب ، ومنها انتقل المهاجرون إلى البر الأريتري ، ثم إلى الهضبة الأكسومية ، وشكلوا فيها بعد مملكة الحبشة .

وفي العصور الوسطى ارتبطت دهلك مع اليمن ارتباطًا وثيقًا ، وكان ظهور الإسلام وانتشاره عاملًا مهما من عوامل ذلك الارتباط ، فقد حافظ الإسلام على الصلات البحرية الوثيقة بين شرق أفريقيا وجزيرة العرب ، كما ازدادت الصلات توطدًا بما أملته عليها الظروف الطبيعية والاقتصادية المتبادلة [1] .

وهكذا شق الإسلام طريقه إلى شرق أفريقيا عبر الطريق البري الذي يرتبط بدور بلاد البجة في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في بلاد الحبشة ، وعن طريق القبائل العربية التي هاجرت إلى بلاد البجة واستقرت فيها ، مكونة إمارات عربية إسلامية .

والطريق الثاني كان الطريق البحري الذي يرتبط بدور جزر دهلك في نشر العروبة والإسلام في الحبشة ، إذ كانت تلك الجزر بمثابة الجسر المؤدي إلى الحبشة ، ثم ازدادت الهجرات العربية إليها ، للعمل في التجارة ، مما ساهم في انتشار الإسلام والعروبة ، وامتدادهما من تلك الجزر إلى بلاد الحبشة وساحل

(١) المصدر السابق (ص ٧١، ٧٢) .

أفريقيا الشرقي [(١)] .

ومن هنا أحرز الإسلام تقدمًا واضحًا على الساحل ، ابتداء من جزر دهلك والمدن الساحلية ، وبين قبائل البجة في الشمال الحبشي وأهل سيداموا في الجنوب ، وإمارة شرق إقليم شوا ، وفي منطقة هرر قرب بحيرة زوالي في الغرب ، وبذلك أحاط الإسلام الهضبة الحبشية ، بل دخل في جزء منها وهو إقليم شوا [(٢)] .

أما عن انتشار الإسلام في غرب أفريقيا ، فيمكن القول : إنه أخذ ينتشر تدريجيًا عبر الأقاليم الجنوبية حتى بلغ ساحل أفريقيا الغربي ، عن طريق التجارة ، كما أنه انتشر من ساحل البحر المتوسط في شمال أفريقيا نحو الصحراء الكبرى ، وفي إقليم المراعي والشجيرات القصيرة جنوبي الصحراء ، وبلغ في بعض الجهات إلى ساحل المحيط الأطلسي وساحل غينيا .

وبيان ذلك أن العرب ، بعد أن تم لهم فتح مصر في سنة (٥٤٠م) ، على يد عمرو بن العاص ، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، واستقام أمرها للمسلمين ، فتح المسلمون برقة صلحًا ، ثم فتحت طرابلس ، واستمرت الفتوحات الإسلامية تواصل نشاطها نحو بلاد المغرب ، ففتحت تونس ، وأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان فيها ، فاتخذها المسلمون قاعدة انطلاق لنشر الإسلام في شمال القارة وغربها ، كما تمكن المسلمون من نشر الإسلام في

---

(١) نفسه (ص٥٩) .

(٢) خديجة أحمد الطناشي ، العلاقات السياسية بين القوى الإسلامية في الحبشة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، ط١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، ١٩٩٦ ، (ص٧٧) .

المغرب [١] .

ولكن على الرغم من توالي الأحداث السياسية التي عمت شمالي أفريقيا وغمرتها في حالة من الفتن والقلاقل ، لم يؤثر هذا الوضع على الدور الملحوظ الذي لعبه أهل الشمال الأفريقي في نشر الإسلام والثقافة العربية ، خاصة ما قام به المرابطون ، ثم الموحدون ، في أنحاء واسعة من القارة الأفريقية ، وهكذا انساب الدين الإسلامي عابرًا المساحات الشاسعة في أفريقيا ، فوصل إلى ساحل غينيا ونيجيريا ، وخصوصًا في سكتو وكانو وزاريا وغيرها ، وفي جنوبي غانا وساحل الذهب وفي داهومي [٢] .

يستخلص مما سبق أن انتشار الإسلام في أفريقيا قد اجتاز عدة مسالك نجملها فيما يلي :

١ـ طريق شمال أفريقيا ، مجتازًا مصر وبرقة وطرابلس وتونس والمغرب الأوسط وبلاد السوس الأقصى إلى مصب نهر السنغال ، وبعد نمو البحرية الإسلامية اشترك معها طريق بحري من موانئ الشام ومصر إلى موانئ المغرب الأقصى .

٢ـ الطريق الصحراوي ، ويبدأ من أسيوط ، مارًا بواحات مصر في الصحراء الغربية ، ويجتاز بلاد المغرب ، حتى يصل إلى غرب أفريقيا .

---

(١) فضل كلود الدكو ، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي ، لإمبراطورية كانم من ٦٠٠ ـ ١٠٠٠هـ ، ١٢٠٠ ـ ١٦٠٠م ، رسالة دكتوراه منشورة ، ط١ ، كلية الدعوة الإسلامية ، ١٩٩٨ ، (ص٣٩ ، ٤٠) .

(٢) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ط٤ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ٢٠٠٠ ، (ص١٦ ، ١٧ ، ٢٢) .

٣ـ طريق القوافل من طرابلس وبلاد المغرب ، بقسميها الأوسط والأقصى ، إلى شمال السودان ، وخاصة الطريق الذي يبدأ من جنوب تونس إلى بلاد برنو ، غربي بحيرة تشاد ، ومن جنوب الجزائر إلى بلاد الهوسا ، شمال نيجيريا ، ومن جنوب مراكش إلى مصر نهر السنغال ومنحنى النيجر .

٤ـ طريق وادي النيل عبر الصحراء الشرقية إلى بلاد النوبة وشمال السودان .

٥ـ الطريق البحري من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى ساحل أفريقيا الشرقي ، ومنه إلى قلب أفريقيا [١] .

٢ـ وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا :

إن صورة انتشار الإسلام وتغلغله داخل القارة الأفريقية لا تكتمل إلا بذكر الوسائل أو الكيفية التي تم عن طريقها تحقيق هذا الانتشار ، والذي أحدث صدى إيجابيًا وتأثيرًا قويًا في حياة وثقافة الإنسان الأفريقي ، هذه الوسائل نجملها فيما يلي :

أـ اللغة العربية :

دخلت اللغة العربية إلى القارة الأفريقية قبل ظهور الإسلام ، حيث شكلت الصلة التجارية بين العرب والأفارقة البدايات الأولى لانتشار اللغة العربية في أفريقيا قبل الإسلام .

وقد نمت هذه الصلة وتطورت بعد ظهور الإسلام ، فمع الفتوحات الإسلامية كان أول بلد استقرت فيه من البلدان الأفريقية هو مصر ، ثم

---

(١) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص٥٠) .

انطلقت إلى السودان جنوبًا ، وليبيا غربًا ، وأصبحت اللغة العربية هي القادرة وحدها على استيعاب الوجه الحضاري والثقافي والسياسي الجديد .

ثم بعد ذلك توجهت اللغة العربية إلى تونس والمغرب ، ثم امتدت إلى أقطار أواسط أفريقيا وجنوبها ، فبعد أن وصلت موريتانيا امتدت إلى السنغال ، ومنها إلى غينيا ومالي والنيجر وتشاد والكاميرون وفولتا العليا ، في الوقت الذي دخلت فيه عن طريق باب المندب إلى الصومال وكينيا وأوغندة وجيبوتي ومدغشقر وجزر القمر وتنزانيا وموزمبيق ، فاللغة العربية هي لغة العقيدة ، لغة القرآن الكريم ، ولهذا فهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بانتشار الإسلام ، وقد كفل هذا الارتباط سعة الانتشار والبقاء لكل منهما [(١)] .

ب ـ التجارة والتجار :

لقد كانت التجارة الركيزة الأولى للصلات العربية الأفريقية قبل ظهور الإسلام ، وشكلت العامل الأساسي في انتشار الثقافة العربية في القارة الأفريقية ، وقد تعززت هذه الصلات وأخذت مضمونًا ثقافيًا جديدًا ، بعد ظهور الإسلام [(٢)] .

كانت الصحراء ، وما زالت ، أداة وصل فعالة ، وحدت بين شمال القارة وجنوبها ، فهي عند أبنائها دروب واضحة المسالك ، ينسابون عليها بقوافلهم

---

(١) عبد الجليل مغتاظ التميمي ، اللغة العربية إحدى اللغات الأفريقية التي يمكن اعتبارها لغة مشتركة ووسيلة من وسائل الاتصال بين الشعوب الأفريقية ، أعمال مؤتمر التعليم ، ج٢ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٢٩٩ـ ٣٠١) .

(٢) حميد دولاب ضيدان ، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية ، ط١ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ٢٠٠٣ ، (ص١١٠) .

المحملة بالخير والعطاء ، والمتنقلة بين طرابلس وكاوار وكانم وزويلة وبرنو وغدامس وتمبكتو ومرزق وجالو وسيوة ومراكش وأورقلة وغرادية وعشرات المدن ، فيما يعرف الآن بتشاد ومالي والنيجر ونيجيريا ومصر وليبيا وتونس والجزائر وغيرها [١] .

شهدت هذه الصحراء قبل الإسلام علاقات تجارية بين العرب وأفريقيا ، حيث كانت بعض القبائل تقوم بهذا النوع من التجارة الصحراوية ، منذ أمد بعيد ، غير أن هذه التجارة تطورت ، وأصبحت هناك صلات تجارية كبيرة ومنظمة ، وفي نشاط متزايد بين أنحاء القارة الأربعة ، حيث أتت القوافل في تلك الفترة من الشمال الأفريقي ومصر وشبه الجزيرة العربية ، وفي مواسم مختلفة ، ناقلة إلى أفريقيا ما تحتاج إليه من هذه المناطق ، وتعود محملة بالبضائع الأفريقية الرائجة في أسواق المغرب والمشرق العربيين .

وقد ألفت أفريقيا جنوب الصحراء هؤلاء التجار في مرحلة ما قبل انتشار الإسلام ، ولامست عن كثب سلوكياتهم في التعامل ، من كبرياء وتعالٍ وتعامل بالربا وتجارة الرقيق [٢] .

ثم شاهدوا كيف تغيرت هذه المظاهر والطباع والسلوكيات ، بدخول هذه الفئة الإسلامية ، والتزامها بتعاليمه ومبادئه ، فكانوا بشكل أو بآخر ، دعاة لهذا الدين في الأماكن التي ارتادوها ، فنجدهم في القرن الأول الهجري

---

(١) محمد الطاهر الجراري ، الافتتاحية ، مجلة البحوث التاريخية ، ع١ ، س٣ ، يناير ١٩٨١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، (ص٥) .

(٢) عطية مخزوم الفيتوري ، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء ، ط٤ ، بنغازي ، منشورات جامعة قاريونس ، ١٩٩٨ ، (ص١٠١) .

يحملون مع تجارتهم إلى بلاد غرب أفريقيا دينًا جديدًا ، هو الإسلام ، كما حملوا عادات وتقاليد طيبة في السلوك والمعاملة ، كان الإسلام هذبها وطورها ، ولم يكن أولئك التجار جميعهم طلاب ربح ومال ، بل كان فيهم نخبة ممتازة من الفقهاء والعلماء ، اختلطوا مع سكان القارة في الأسواق والمدن والقرى ، نشروا بينهم الدعوة إلى الإسلام ، كما ساهمت فئة التجار في تعزيز الروابط الاجتماعية ، وذلك بالمصاهرة مع قبائل غرب أفريقيا ، فوجدت أجيال إسلامية عربية تتقن اللغة العربية ، وتتحدثها بطلاقة ، إلى جانب اللغة الأفريقية الأم ، مما ساعد على تغلغل الثقافة العربية الأفريقية في القارة [1] .

كما كان من الأمور التي يسرت حركة القوافل التجارية في ربوع القارة ، وتيسر معها نشر الإسلام في تلك الربوع ، ما قام به عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، حفيد عقبة بن نافع ، الذي حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات أفريقيا جنوب الصحراء ، وبين مدينة أودغست بصحراء المغرب الأقصى ، الأمر الذي سمح بانتظام حركة القوافل المتجهة نحو غرب أفريقيا ، مما تمخض عنه نتائج حسنة في إدخال الإسلام ونشره في بلاد ما وراء الصحراء الكبرى [2] .

يتضح مما سبق أن الاتصال التجاري يؤدي إلى تبادل ثقافي ؛ إذ لا يخفي أن البيع والشراء يصحبهما دومًا تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ، لاسيما أن العنصر الإسلامي أظهر كل مهاراته في الميدان

---

(١) فضل كلود الدكو ، مصدر سابق ، (ص١٢٥) .

(٢) المصدر نفسه ، (ص١٢٦) .

التجاري ، وما يتعلق به من تعامل مع الآخرين .

كذلك لولا طرق القوافل التي كانت تربط بين أجزاء القارة ، لما ازدهرت في وقت من الأوقات الحضارة الإسلامية التي عرفتها دول وممالك أفريقيا .

أما ما يتعلق بشرق القارة ، فقد نما النشاط التجاري العربي في عصر صدر الإسلام ، وبدأ المسلمون يشرفون على التجارة ، وامتد نفوذهم على ساحل البحر الأحمر حتى دهلك ، ونمت مراكز التجارة الإسلامية على هذا الساحل ، كما نشأت المراكز التجارية ، منذ الربع الأخير من القرن الهجري الأول ، جنوبًا على ساحل الزنج حتى كلوة ، فنشطت موانئ زيلع وبربرة وباد ولامو ومالندي ومنبسة وزنجبار .

وأشرفت تلك المراكز إشرافًا مباشرًا على تجارة أفريقيا ، ووفد الكثير من التجار ، وخاصة من اليمن والخليج العربي ، واستعادوا دورهم الطليعي القديم في شرق أفريقيا ، وقد اقتضت طبيعة التجارة والملاحة في المنطقة استقرار التجار لفترات طويلة ، فترتب على هذه الإقامة اختلاط هؤلاء التجار العرب بالعنصر المحلي ، مما أدى إلى سرعة انتشار الإسلام بينهم ، وانتقاله إلى الداخل ، كذلك استقرت مجموعات من التجار المسلمين على سفوح هضبة الحبشة في الداخل ، فكانوا روادًا للإسلام هناك [١] .

يلاحظ على ما ذكر أن التاجر العربي أدى دور الداعية للإسلام ، من خلال تجواله بتجارته ، فيتغلغل الإسلام بمقدار ما يتغلغل هؤلاء التجار ، ويستقر بمقدار ما يستقرون ، وهكذا حمل التجار المسلمون ، عربًا ومحليين ، الدين

---

(١) أحمد إلياس حسين ، مصدر سابق ، (ص٢٣١) ، كذلك خديجة أحمد الطناشي ، مصدر سابق ، (ص٧٦ ـ ٧٩) .

الإسلامي إلى قلب القارة ، واحتكوا بتلك الشعوب ، مما كان له تأثير إيجابي على العلاقة بينهما ، ومن ثم على نشر الثقافة العربية الإسلامية في تلك المناطق .

جـ ـ الدعاة والمعلمون :

إذا كان الإسلام قد دخل شمال أفريقيا بواسطة الجنود الإسلاميين ، فإنه دخل جنوب القارة عن طريق الدعاة والتجار [١] .

والإسلام ـ كما يراه البعض ـ دين محلي ، ويعني ذلك أن الإنسان بمجرد اعتناقه الإسلام ، وإعلانه الشهادتين ، يصبح صاحب الفكرة ، التي تنطلق منه إلى غيره ، خلافًا لما نجده في اليهودية والمسيحية ، حيث يكون المبشرون من السادة [٢] .

أما في الإسلام فلا يوجد تضارب في الأدوار بين الفاتح والداعي ، فالداعي المسلم كان يعقب الفاتح ، ليكمل النقص في تحويل الناس إلى الإسلام [٣] .

ويبدو أن هذا هو السر الحقيقي في نجاح الدعاة ، فليس هناك هوة بين الداعي إلى الإسلام والمتحول إليه ؛ إذ يصبح كلاهما متساويين أمام الله [٤] .

قام نشاط الدعاة والمعلمين على الإرشاد ونشر التعاليم الإسلامية ، وهم الذين وهبوا أنفسهم لنشر هذا الدين بين سكان غرب أفريقيا ، فهم لا يمثلون فئة مرسلة من قبل هيئة إسلامية ، أو حكومة مركزية ، بل كانوا يقومون بهذا

---

(١) جبريل أبو بكر علي ، الثقافة في بلدان الساحل الأفريقي ، محاضرات الموسم الثقافي الحادي عشر ، لسنة ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ ، ط١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ ، (ص١٥) .

(٢) المصدر نفسه ، (ص١٦) .

(٣) حسن إبراهيم نفسه ، مصدر سابق ، (ص٦١) .

(٤) المصدر نفسه (ص٧٧) .

العمل بدافع الواجب الديني ، فكان منهم التاجر الذي يتخذ من التجارة وسيلة للعيش الحلال ، ثم يقوم بأداء رسالته .

كذلك من الدعاة من كرس جهده لدعوة الناس إلى دين الإسلام ، وانقطع لتعليم معتنقيه تعاليمه وقواعده الشرعية ، فكان هؤلاء يتوغلون في داخل البلاد ، ويختلطون بالسكان ، ويتزوجون ممن أسلم ، ويقومون بتعليم الأطفال مبادئ العقيدة ، وكان يفد على هؤلاء الدعاة الأطفال المسلمون والوثنيون على السواء ، طلبًا لهذا العلم الجديد ، وبعد دراسة شيء من آيات القرآن الكريم ، يدخل كثير من الوثنيين في الدين .

ولما فتح الشمال الأفريقي جاء كثير من الدعاة في ركاب القوافل التجارية الآتية من الشمال ، وكان من العادة أن يصطحب التجار العرب المسلمون معهم عالمًا أو فقيهًا ، يؤمهم في الصلاة ، ويبصرهم بأمور دينهم .

وكان الدعاة المسلمون الذين وفدوا إلى غرب أفريقيا من شمالها ، واستقروا بها ، وكذلك المهاجرون الذين قصدوها بحثًا عن العمل ، وسكنوا مع أهل البلاد ، يعدون دعاة للإسلام ، سواء أقاموا بهذا العمل بطريق مباشر أم بطريق غير مباشر [(١)] .

ويعتبر من بين الدعاة أيضًا الحجاج العائدون من الحجاز ، والذين كانوا يتأخرون في العودة لرغبتهم في قضاء مدة أطول في مجاورة الحرمين ، لتلقي تعاليم الدين ، ونظام الدعوة إليه في حلقات العلماء ، فكان من بين هؤلاء العلماء من ساهم في نشر الدين وثقافته في غرب أفريقيا ، دون أن يرتحل إليها ،

---

(١) فضل كلود الدكو ، مصدر سابق ، ١٣٦ ـ ١٣٧ .

وذلك بتعليم الوافدين من الحجاج مبادئ الدعوة وبعضًا من علوم الفقه والسيرة النبوية ، وشيئًا من التوحيد والتفسير ، ليكونوا أقدر على إقناع الآخرين بما جاء به الإسلام ، ومن هنا عرف نظام المجاورة للحرمين الشريفين ، وعرف حجاج غرب أفريقيا بهذا اللقب .

كذلك كان من الدعاة أهل البلاد الأصليون ، الذين أسلموا وارتحلوا طلبًا للعلم في المراكز الإسلامية ، كالقيروان وفاس وطرابلس والأزهر الشريف ، ثم عادوا إلى ديارهم دعاة ومرشدين يعلمون الناس ، وقد حظي هؤلاء باحترام وتقدير الحكام والأهالي (١) .

د ـ الفرق الصوفية :

بتحول كثير من أهل أفريقيا إلى الإسلام ظهر من بين المسلمين كثير من العلماء والفقهاء والزهاد ، ولما كان أصحاب الطرق الصوفية كتابًا وفقهاء ومعلمين ومتشبعين بالميول الصوفية ، من زهد وتقشف والتزام بأوامر القرآن الكريم ومبادئ التوحيد (٢) ، فقد التف حولهم الأفارقة ، وانضموا إلى حلقات ذكرهم ، مما أشاع في نفوس هؤلاء الأفارقة الأمان والاطمئنان ، وبخاصة أن هذه الفرق الصوفية قد انتشرت في مناطق وبيئات بسيطة ، حيث ينتشر الفراغ والبطالة بين الناس (٣) .

كان أول انتشار لهذه الفرق في أفريقيا على يد القادرية ، حيث ظهرت هذه

---

(١) المصدر السابق ، (ص١٣٨ ، ١٣٩) .

(٢) حسن إبراهيم حسن ، مصدر سابق ، (ص٤٣ ، ٤٧) .

(٣) عطية مخزوم الفيتوري ، دراسات ، (ص١٠٨) .

الفرقة في مصوع ويزلع ومقديشيو وبعض المدن الساحلية [١] ، كما انتشرت السنوسية بزواياها من مصر إلى المغرب ، وامتدت في الداخل حتى واحات الصحراء وفي السودان والحبشة والصومال ، بل امتدت إلى بلاد العرب والعراق وأرخبيل الملايو ، أما التيجانية فانتشرت في الصحراء الكبرى والسودان [٢] .

إن انتشار الفرق الصوفية ، كالقادرية والتيجانية والسنوسية ، يعود لما في تعاليمها من سمات وخصائص ، تعد في مجملها نموذجًا مثاليًا وتجسيدًا للخصائص الذاتية للإسلام .

وقد استقطب ما قامت به الفرق الصوفية من أعمال إيجابية الأفارقة ؛ إذ قام أصحاب هذه الفرق بنشاط ثقافي تربوي اجتماعي اقتصادي ، فبذلوا جهودًا لإحالة الصحراء إلى مناطق آمنة ، بإقامة مؤسسات دينية اجتماعية وثقافية ، فكانت الزوايا والتكايا والخلاوي تقدم لروادها ما يحتاجون إليه من مأكل وملبس ، بالإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم القراءة والكتابة والوعظ والإرشاد ، مما شجع أعدادًا كبيرة من الأفارقة على الدخول في الإسلام والانضمام إلى هذه المؤسسات [٣] .

وهكذا ، فأيًا ما كان التباين والتشابه بين دعوات هذه الفرق ، فإنها جميعًا كانت تتفق على هدف واحد هو العمل على نشر الإسلام وتعميقه في النفوس .

---

(١) علي الطاهر عريبي ، مصدر سابق ، (ص٢٢٦) .

(٢) حسن إبراهيم حسن ، مصدر سابق ، (٤٥ ، ٣٦ ، ٤٨) .

(٣) د . أ . م . كاني ، مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال أفريقيا ووسط السودان ، مجلة البحوث التاريخية ، ع ١ ، س ٣ ، يناير ١٩٨١ (طرابلي : مركز جهاد الليبيين) ، (ص٢٤) .

هـ ـ الهجرة :

أفريقيا هي إحدى قارات العالم التي شهدت هجرات بشرية ، منها وإليها ، وهجرات داخلية بين مختلف أقسامها وأقاليمها ، وقد ترتب على هذه الهجرات نتائج بعيدة المدى ، ظهرت آثارها على الخريطة البشرية ومواطن الاستقرار ونمط العيش والسلوك وعلى الاختلاط والتمازج العرقي بين الأقوام والجماعات التي احتكت ببعضها سلمًا أو حربًا (١) .

مثلت أفريقيا ، بحكم موقعها على الساحل المقابل للجزيرة العربية ، مجالًا حيويًا للجماعات التي خرجت من بلاد العرب في موجات من الهجرات المتتالية ، منذ أقدم العصور ، وخاصة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، فلم يشكل البحر الأحمر عقبة أمام تدفق الهجرات البشرية عند مضيق باب المندب ، وهكذا كان هذا المضيق إحدى نوافذ الهجرة من الجزيرة العربية وغرب آسيا إلى أفريقيا ، وقد امتدت هذه الهجرات لتشمل مساحات واسعة في شرق أفريقيا ، وانتقل بعضها شمالًا إلى السودان ومصر والصحراء ، وحتى شمال أفريقيا .

وبظهور الإسلام تعمقت الصلات بين بلاد العرب وأفريقيا ؛ إذ أعطى الإسلام العرب قوة دافعة جديدة لنشر هذا الدين ، وتحويل الأفارقة إلى الإسلام ، فتدفق العرب بأعداد كبيرة على أفريقيا الشرقية والشمالية ، وتوغلوا فيها ، وامتزجوا مع سكانها الأصليين ، بالاختلاط والمصاهرة ، ونشروا الإسلام بين المجموعات الوثنية من السكان ، وارتبطوا معهم بمصالح

(١) حبيب وداعة الحسناوي ، مصدر سابق ، (ص١٥٣ ، ١٥٤) .

مشتركة ، وتعربت تلك المناطق بالنمو الدائم في علاقات المصاهرة ، والدين الإسلامي وثقافته [(١)] .

هذا ومن الجدير بالذكر أن أكثر الهجرات الإسلامية فعالية هي تلك التي كانت تتوغل في القارة عن طريق المسالك الصحراوية القادمة من ليبيا ، وأهم هذه جميعًا هجرات أولاد سليمان والأدوار الفعالة للدعوات الفكرية الإسلامية التي انطلقت من المغرب العربي [(٢)] .

وهكذا ، بعد استعراض الملامح الأساسية لانتشار الإسلام في أفريقيا على نحو شمولي ، يمكن لنا أن نتناول المراكز الإسلامية في أفريقيا ، ودورها في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية .

يعد بروز المراكز الإسلامية في القارة الأفريقية من الظواهر الإيجابية لانتشار الإسلام هناك ، وقد أسهمت هذه المراكز بفعالية بالغة في إرساء الحضارة العربية الإسلامية في ربوع القارة .

لقد حمل الإسلام إلى أفريقيا عاملين حضاريين يعتبران من أهم العوامل الحضارية التي ساعدت أبناء القارة على استيعاب المفاهيم الحضارية بشكل جيد ، وهما : اللغة العربية ، وإن كانت موجودة من قبل ، ولكن اتسع انتشارها بانتشار الإسلام ، والكتابة العربية ، ذلك أنه من المعروف أن ثقافة

(١) المصدر السابق ، (ص١٥٨ ، ١٥٩) .

(٢) عبد المولى صالح الحرير ، الإسلام وأثره على التطورات السياسية والفكرية والاقتصادية في أفريقيا جنوب الصحراء ، مجلة البحوث التاريخية ، ع ٢ ، س١١ ، يوليو ١٩٨٩ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، (ص٩٩) .

أفريقيا ، قبل الإسلام ، كانت ثقافة شفهية غير مدونة [١] ، ويعزو بعض الباحثين انتشار اللغة العربية في أفريقيا إلى عدم جواز ترجمة القرآن الكريم ، وكتابته بغير اللغة العربية ، التي نزل بها ، فضلًا عن عدم جواز القراءة بغير اللغة العربية في الصلاة ، ومن ثم كان على كل أفريقي دخل الإسلام أن يتعلم ويحفظ من القرآن ما يمكنه من أداء طقوسه الدينية [٢] .

وهكذا ، مع انتشار الإسلام في أفريقيا ، انتشرت في ركابه اللغة العربية والكتابة العربية ، فلولا دخول هذين العاملين إلى القارة لما برزت المراكز العلمية الإسلامية ، ولما ظهر العلماء والفقهاء والمعلمون الذين آثروا بعلمهم الحياة العلمية والثقافية في أفريقيا .

أما عن المراكز الإسلامية فهي : القاهرة وجامعها الأزهر وأروقته ، مثل الرواق السناوي والفوراوي والتكروري ، كذلك طرابلس الغرب والقيروان وفاس والزيتونة بتونس ، وتمبكتو وجنى وكانوا وجاو وأودغست وكانم برنو ..... وغيرها .

وسنكتفي هنا ، بإعطاء بعض الأمثلة لهذه المراكز ونشاطها العلمي والثقافي كمدينة تمبكتو وجنى وكانم ـ برنو وكانو .

١ـ مدينة تمبكتو :

حملت تمبكتو أسماء عديدة ، كالمدينة الفاضلة ، المدينة الثرية ، المدينة

---

(١) الهادي المبروك الدالي ، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا ، بيروت ، دار صنين ، ١٩٩٦ ، (ص١٧٥) .

(٢) نفسه (ص٦٨) .

الممنوعة ، جوهرة الصحراء ، مدينة الإشعاع الإسلامي ، وغير ذلك من الأسماء الأخرى التي عكست خصائصها على مدى ثلاثة قرون كاملة ، أشعت فيها ، بفضل علمائها وأئمتها وشيوخها ومرابطيها ، على كامل السودان الغربي والأوسط ، وإلى أبعد من ذلك ، وعلى أرضها أقيمت إمبراطوريات وممالك إسلامية عظيمة ، ساهمت في نشر الإسلام ، الذي بفضله ارتقت تلك الممالك والإمبراطوريات الإسلامية ، وسجل ملوك وأباطرة تلك الدول الإسلامية أسماءهم في سجل المجد لهذه الأمة العظيمة ، وبهذا الدين الذي حمل أولئك الرجال لواء الإسلام إلى كافة أنحاء المنطقة [1] .

كانت تمبكتو مركزًا تجاريًا مهمًا ؛ إذ كانت التجارة عماد تكوينها كمدينة منذ البداية ، الأمر الذي مكنها من استيعاب الوافدين إليها ، بعد أن برزت كمركز إسلامي حضاري ، فتمبكتو بحكم موقعها على حافة الصحراء الكبرى الجنوبية ، وعلى ضفاف نهر النيجر ، تنطلق منها ، وتأتي إليها التجارة من الشمال والجنوب على حد سواء ، حيث أنها كانت مركزًا للتبادل التجاري ومنطقة تخزين رئيسية لمختلف أنواع البضائع ، وكان التجار يستخدمون الإبل في نقل أو استجلاب التجارة من الشمال ، بينما يستخدمون القوارب لنقلها أو جلبها باتجاه أرض الجنوب عبر نهر النيجر ، وكان الاتفاق والتعاقد على تبادل التجارة يتم داخل المدينة بين التجار القادمين من الشمال ، وأولئك القادمين من بقية مناطق السودان الغربي أو الأوسط عن طريق وسطاء التجارة من أهل

---

(١) علي محمد عبد اللطيف ، تمبكتو أسطورة التاريخ ، ط١ ، ليبيا ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ٢٠٠١ ، (ص٦) .

المدينة نفسها [١] .

وهكذا بدأت تمبكتو تأخذ مكانتها كمدينة تجارية بالدرجة الأولى ، قبل أن تصبح في وقت لاحق منارة علمية ودينية ، وقد قدر لمدينة تمبكتو أن تكون من أهم المراكز الإسلامية في قلب القارة الأفريقية ، طيلة القرنين ١٤ ، ١٥ ، نظرًا لاستيعابها للحضارة المشتركة مع عرب الشمال ، فقد اندمجت الشعوب السودانية في غرب أفريقيا في عالم الحضارة الإسلامية ، وشاركت مسلمي الشمال في نظمهم السياسية والدينية والآداب والعلوم [٢] .

هذا وقد شهدت تمبكتو ازدهارًا علميًا ودينيًا ، عندما توافد العلماء ورجال الدين للتدريس في مساجدها [٣] ، فحيثما حل الإسلام ، وتكونت جماعة إسلامية كانت هناك مدرسة لتعليم الأطفال ، متمثلة في المساجد والكتاتيب التي كانت تمثل المدارس الأولية الابتدائية [٤] .

كان بالمدينة ثلاثة مساجد شهيرة : المسجد الأول أقامه الملك منسي موسى ، أحد أشهر ملوك إمبراطورية مالي ، والذي اشتهر عهده بحب العلم والعلماء ، في تمبكتو بعد عودته من رحلة الحج ، وهناك أيضًا مسجد سنكوري الشهير ، وهو المسجد الذي تحول إلى منارة علمية «جامعة» في المنطقة كلها ، أما ثالث هذه المساجد فهو الذي بناه محمد النهري تكريمًا لأحد علماء المنطقة ، وواحد

(١) المصدر نفسه ، (ص٣٠، ٨٧) .

(٢) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص٢١٦) .

(٣) علي محمد عبد اللطيف ، مصدر سابق (ص١٠٠) .

(٤) علي محمد كريدغ ، التعليم في أفريقيا أداة للاستعمار ووسيلة للتحرر ، أعمال مؤتمر التعليم ، ٣٨ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٦٨ ، (ص٢٨٩) .

من أبرز علمائها ووعاظها في مجال الدعوة والإرشاد، وهو الشيخ سيدي يحيى، والذي شيد في القرن الخامس عشر، واستمر كإمام وواعظ ومدرس لعلوم القرآن والحديث إلى أن توفي، بالإضافة إلى هذه المساجد الشهيرة، كانت هناك عشرات المساجد الأخرى الصغيرة، كما أقام السكان أيضًا المدارس لحفظ القرآن الكريم، وتفسير معانيه وتعليم اللغة العربية، فكان طلاب العلم يتوافدون إليها من مختلف مناطق السودان الغربي [١] .

توسع علماء تمبكتو في إقامة ندوات الوعظ والإرشاد لتوعية الناس بأصول دينهم وتثقيفهم بمختلف العلوم الإسلامية، وشتى المعارف الأخرى، حيث شهدت تلك الفترة تنامي وغزارة علوم ومعارف علماء تمبكتو، الذين نشطوا في تدوين المخطوطات المتضمنة شتى العلوم الإسلامية، من تأليفهم وإبداعهم، إضافة إلى المخطوطات التاريخية التي تسجل تاريخ المنطقة ومن فيها وما مر عليها من عهود وملوك وسلاطين [٢] .

أما بالنسبة للمناهج الدراسية بمدارس تمبكتو وجامعاتها، فقد كان منهج التعليم في المرحلة الابتدائية والإعدادية معًا يتضمن تحفيظ القرآن الكريم للأولاد الصغار، وتلقينهم مبادئ الدين الإسلامي الأساسية، إلى جانب تعليم قراءة اللغة العربية وكتابتها، حيث كانت اللغة الوحيدة المستخدمة في العلم والإدارة، وكما يذكر هذا المصدر كان تلاميذ تمبكتو من الكثرة بحيث إنه كاد يتعذر توفير المعلمين لهم، ولعلاج هذا الأمر كان طلبة القرآن أنفسهم يمارسون التعليم على نطاق واسع، إلى جانب دراستهم الخاصة.

---

(١) علي محمد عبد اللطيف، مصدر سابق، (ص١٠٠، ١٠١).

(٢) المصدر السابق (ص٩٣).

وفيما يتعلق بالمرحلة العالية ، فقد كان التعليم فيها ، وخاصة في مركز سنكوري ، أو كما يطلق عليه البعض جامعة سنكوري بتمبكتو ، يشتمل على نفس المناهج الدراسية التي كانت تدرس في كل من جامعة الأزهر والقيروان وفاس ، التي كانت مناهجها تتضمن علومًا مثل : التوحيد والتفسير والحديث والفقه والعلوم العقلية ، مثل : النحو والصرف والبلاغة والبيان والمنطق والتاريخ وغيرها من المعارف التي كانت تشكل في الوقت ذاته الدعائم الأساسية للعلوم الإسلامية ، كما اشتهرت هذه الجامعة بتدريس الفقه المالكي الذي كان يقوم بتعليمه فيها علماء من الأفارقة ، إلى جانب العلماء الزائرين من أساتذة القاهرة وفاس ، الذين كانوا يأتون لإلقاء الدروس على الطلاب الذين وفدوا على هذه الجامعة من مناطق غرب أفريقيا المجاورة [١] .

أوجد هذا التواصل والتعاون العلمي نوعًا من الارتباط الثقافي والحضاري بين مدينة تمبكتو وبين أشهر جامعات العالم الإسلامي ، ومن ناحية أخرى مكن مدينة تمبكتو من القيام بدور ثقافي بارز في بلاد السودان وغربها ووسطها وشرقها ، لاسيما في عهد مملكة مالي والسنغاي ، فقد اجتمع فيها العلماء من كل جنس ولون ، وكان فيهم المغاربة وأهل الأندلس والمصريون والحجازيون ، كما أمها الطلاب من كل بلاد السودان : من السنغال إلى النيجر ومن إمارات الهوسا وبرنو وكانم ودارفور ، وتعلم فيها الكثير من الفقهاء والعلماء ، وأُلِّفت بها العديد من المؤلفات في مختلف العلوم [٢] .

---

(١) فاي منصور علي ، إسكيا الحاج محمد ، وإحياء دولة السنغاي الإسلامية ، ط١ ، الجماهيرية ، كلية الدعوة الإسلامية ، ١٩٩٧ ، (ص٢١٥ ، ٢١٦) .

(٢) حميد دولاب طيدان ، مصدر سابق ، (ص١١٤) .

كان من النتائج الإيجابية لهذا التفاعل الفكري والإسلامي أن برز عدد من علماء المنطقة في شتى علوم الدين والتاريخ والفقه، كان من بينهم الشيخ محمد كرعك، محمد بن محمد الكاتسيناوي، نسبة إلى مدينة كاتسينا، المتوفى عام ١٧١٤، والعالم عثمان بن محمد بن فودي، المتوفى عام ١٨١٧، والشيخ العالم عبد الله بن فودي المتوفى عام ١٨٢٩، والذي ألف وحده أكثر من مائة كتاب ومخطوط، وهو شقيق الشيخ عثمان، ونجله محمد بللو، المتوفى عام ١٨٣٧، والذي ألف أكثر من ٢٠٠ كتاب، في شتى علوم الدين والتاريخ والفقه والبلاغة، والشيخ محمد الأمين الكانمي، والحاج عمر بن إدريس والشيخ مختار الكنس الكبير [١].

كذلك من علماء تمبكتو البارزين أحمد بابا (١٥٥٣ ـ ١٦٢٧) الذي ترك ما يربو على الأربعين مؤلفًا، والشيخ عبد الرحمن السعدي، صاحب كتاب تاريخ السودان، والقاضي محمود كعت وغيرهم [٢].

فمدينة هذا حالها في إنجاب العلماء والاهتمام بالعلم، كان لابد لها أن تعبر عن المستوى الثقافي الذي وصلت إليه، وهو ما تمثل في وجود مكتبة ضخمة بالمدينة؛ بالإضافة إلى المكتبات العامة التي يمتلكها العلماء، والمفتوحة لطالب العلم والمعرفة، كما أدت غزارة الإنتاج العلمي إلى وفرة الكتب، حيث كانت تباع في حوانيت تمبكتو إلى جانب السلع الأخرى، غير أن الكتب كانت أكثر السلع رواجًا في أسواقها [٣]، الأمر الذي له دلالته على المستوى الثقافي الذي

---

(١) علي محمد عبد اللطيف، مصدر سابق، (ص٢٢).

(٢) عبد الرحمن زكي، مصدر سابق، (ص٢٢٠، ٢٢١).

(٣) فضل كلود الدكو، مصدر سابق، (ص١٣٠)، كذلك علي محمد عبد اللطيف، (ص١٠٢، ١٩٤).

وصلت إليه البلاد .

وهكذا ظلت مدينة تمبكتو في تطورها الحضاري عبر القرون ، تمارس دورها التعليمي والثقافي في أفريقيا ، بفضل مساهمة هؤلاء العلماء وأهل الفقه واللغة والشريعة الإسلامية ، مما مكنها من أن تسهم في إرساء قواعد المعارف الدينية والثقافة العربية الإسلامية في أرجاء المنطقة ، لا يوقف مسيرتها ما قد يعترضها أحيانًا من فتن واضطرابات سياسية ناتجة عن تقلب تبعيتها من حكم إلى آخر .

٢ـ مدينة جني :

تقع مدينة جني إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو ، وكانت أرضها خصبة ، وكما تذكر بعض المصادر فإن طبيعة أهلها القائمة على التراحم والتعاطف والمساواة جذبت الناس إليها ، وخاصة القوافل التجارية من أرجاء البلاد ، مما هيأ لها أن تصبح سوقًا عظيمة من أسواق السودان الغربي ، يلتقي عندها تجار الملح القادمون من مدينة تغازة ، مع تجار الذهب الآتي من مناجم بيط ، وهما معدنان كانت لهما قيمة اقتصادية كبيرة في ذلك العهد [١] .

ولهذا كانت جني ، قبل الإسلام ، مزدهرة بتجارتها وأسواقها المتنوعة ، وكانت لها صلات مع شمال القارة ؛ إذ كانت همزة الوصل لتبادل الصلات بين المغرب والجزائر ، وبين كل ما يأتي من أفريقيا الجنوبية [٢] .

ومع أن جني قد ارتبطت بمدينة تمبكتو في ازدهارها التجاري ، حيث كانت

(١) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (٢١٨، ٢١٩) .

(٢) جبريل أبو بكر ، مصدر سابق ، (ص١٧) .

البضائع تحمل إليها من الأخيرة ، التي أصبحت لها أهمية تجارية كبرى في القرن الثاني عشر الميلادي ، مما وضع مدينة جنى في المرتبة الثالثة بعد تمبكتو وجاو ، إلا أنها من الناحية الحضارية احتلت المركز الثاني ، بعد تمبكتو ، من حيث الأهمية ، وذلك لكونها جمعت بين الأهمية التجارية والثقافية ، في نطاق المدن الإسلامية ، التي قامت على الطرق التجارية العابرة للصحراء الكبرى [١] .

تبوأت جني مكانة عظيمة بعد دخول الإسلام إلى القارة الأفريقية ، وأصبحت من أهم المراكز الإسلامية في غرب أفريقيا المنافسة لتمبكتو ، بدأ نجم جني يتألق في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي ، حيث شهدت المدينة نهضة ثقافية قامت في بدايتها على أكتاف التجار المسلمين ، ثم أتى إليها العلماء والفقهاء من شتى القبائل والبلاد ، فضمت بين جنباتها كثيرًا منهم ، أمثال العالم موري ماجانا الذي كان يتولى التعليم والإشراف عليه في مساجد المدينة ، في القرن الخامس عشر ، وكان يعلم الفقه والتفسير [٢] ، والشيخ محمد ساخو ، الذي كان عالمًا فقيهًا عابدًا ، ولاه السلطان السنغالي أسكيا الحاج محمد قضاء المدينة ، فأخذ يفصل بين الناس في قضاياهم ، وفق الشريعة الإسلامية ، وينشر الدعوة الإسلامية بين أتباعه ، والقاضي محمود بن أبي بكر ، والقاضي محمد سانو ، وغيرهم كثيرون [٣] .

ولم يكن نشاط مدينة جني التعليمي والثقافي يختلف عما كانت تقوم به المراكز الحضارية الأخرى في أفريقيا ، فجني بلغت في المجال الثقافي مكانة لم

---

(١) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (٢٢١) .

(٢) فضل كلود الدكو ، مصدر سابق ، (ص١٣٣) .

(٣) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (ص٢٢١) ، كذلك عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (٢٢٤) .

يسبقها فيها سوى تمبكتو التي كانت عاصمة السودان الثقافية ، وهكذا رسخت في مدينة جني التجارة ، والمعارف ، وأصبحت مركزًا تنتشر فيه على الدوام ثقافات البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط إلى المناطق المحيطة بها [(١)] .

٣ـ كانو :

تمثل كانو أولى إمارات الهوسا [(٢)] ، وكان باجودة (٩٩٩ ـ ١٠٦٣) أحد أحفاد بايزيدا ، أول ملوكها ، وأعقبه ثمانية وأربعون من الملوك ، وكانت إذ ذاك تشغل مساحة صغيرة ، وقد شيدت أسوارها القديمة من اللبن ، حوالي القرن الثاني عشر ، أثناء حكم ملوكها الثالث والرابع والخامس ، وكانت الكلمة النافذة في أزمانهم لصناع الحديد [(٣)] .

دخل الإسلام كانو حوالي القرن الثالث عشر ، وكان الإسلام قد دخل إلى مالي ووادي النيجر قبل ذلك ، على يد قبائل الونقارة ، الذين ربما كانوا من الفولة الوافدين من مالي ، وجلبوا معهم عقيدتهم الجديدة ، فاعتنقها أهل كانو في سلام ، ويقول المصدر نفسه : إن الزعيم الذي دخل الإسلام في عهده إلى كانو كان اسمه «ياجي» ، ومن ثم شيدت المساجد ، وازداد عدد الذين يعتنقون الإسلام [(٤)] .

---

(١) بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ط١ ، ترجمة : الهادي أبو لقمة ، محمد عزيز ، بنغازي ، منشورات جامعة قاريونس ، ١٩٨٨ ، (ص٢٣٣) .

(٢) كلمة هوسا تطلق على الأهالي واللغة التي يتكلمون بها والبلاد التي تشملهم ، عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص١٩٣) .

(٣) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص١٩٣، ١٩٤) .

(٤) المصدر نفسه ، (ص١٩٤) .

امتدت الثقافة الإسلامية إلى كانو وكاتسينا في القرن الخامس عشر ، حيث رحل إليها بعض علماء تمبكتو للقضاء والإرشاد ، ويقال : إن السيوطي رحل إلى شمال نيجيريا وأقام في كاتسينا فترة من الزمن يعلم ويرشد الناس ، ثم عاد إلى مصر سنة ٨٧٦هـ ، ١٤٧١م [(١)] .

وقد تضاعفت شهرة كانو بعد ضعف مدينة تمبكتو ، وظهر هذا في عهد محمد رنقة أشهر ملوك كانو (١٤٦٣ ـ ١٤٩٩) ؛ إذ شاع الأمن والطمأنينة في البلاد ، وقرب إليه العلماء ، ووفد في عهده إلى كانو علماء من مصر ، كما استقدم رجال الدين لإرشاد الناس وهدايتهم ، وشيد المساجد ، ووجدت التقاليد الإسلامية طريقها إلى الحياة في كانو ، فتمسك المسلمون بالدين بكل إخلاص .

وفيما يخص تدريس العلوم الإسلامية في كانو ، فقد كان المهاجرون يقومون بهذا العمل ، فهم يحفظون القرآن الكريم ، ويلمون باللغة العربية ، وكانت المدارس في كانو يشرف عليها فقهاء ، ويلحق بها الأطفال في سن مبكرة ، حيث يتعلمون في هذه المدارس ساعة قبل شروق الشمس ، وساعة قبل غروبها ، حتى يستطيعوا مساعدة ذويهم في أعمالهم .

أما المناهج الدراسية فكانت تقوم على نشر الدين الإسلامي وتعليم فرائضه وتلاوة القرآن وحفظه وتفسيره بالعربية أو باللغة القومية المحلية ، أما تلاميذ المرحلة العليا فكانوا يتلقون دروسًا في الحديث والفقه والتوحيد [(٢)] .

---

(١) المصدر نفسه ، (ص٢٢٥) .

(٢) حسن إبراهيم ، مصدر سابق ، (ص٢٢٥) .

لا تزال مدينة كانو تعتبر من أهم مراكز الإشعاع الإسلامي في غرب أفريقيا، وبها مدرسة للعلوم العربية وأخرى للقضاء الشرعي [1].

٤ ـ كانم ـ برنو :

يقول بعض المهتمين بتاريخ أفريقيا : إن الدول الأفريقية التي قامت في المنطقة لم تكن لها، في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام، لغة رسمية مكتوبة، ولكن مع انتشار الإسلام في تلك المناطق، بدأ تاريخ أفريقيا يتشكل، وكان من الطبيعي، والأمر كذلك، أن تتأثر الدول الإسلامية في منطقة بحيرة تشاد وغيرها من الممالك الإسلامية في شرق أفريقيا وغربها باللغة العربية والحضارة العربية، خصوصًا في الفترة التي تلت دخول الإسلام إلى تلك الممالك [2]، حيث دخل الإسلام إلى كانم ـ برنو، على يد المسلمين الأوائل، حوالي سنة ٤٦ هجرية، وهي السنة التي وصلت فيها طلائع المسلمين بقيادة عقبة بن نافع إلى إقليم كاوار، حيث كان قد سلك الطريق الذي يربط كانم بساحل طرابلس مباشرة، وقد مثل هذا الطريق قناة يتدفق من خلالها التأثير الإسلامي المبكر إلى كانم ـ برنو، وإلى مناطق أخرى في السودان الأوسط.

وعلى الرغم من أن تأثير الإسلام في كانم ـ برنو قد بدأ مبكرًا، منذ القرن السابع الميلادي، إلا أن قيام حكم إسلامي لم يحدث إلا في القرن الحادي عشر الميلادي.

---

(١) عبد الرحمن زكي، مصدر سابق، (ص١٩٥، ١٩٦).

(٢) سعيد عبد الرحمن الحنديري، المالك الإسلامية في منطقة بحيرة تشاد، مجلة البحوث التاريخية، ع١، س٢٢، يناير ٢٠٠٠، طرابلس، مركز جهاد الليبيين، (ص١٨٧).

ومهما يكن من أمر فقد استطاعت كانم ـ برنو أن تؤسس علاقات ثقافية مع شمال أفريقيا ومصر ، ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي ، وذلك بما أتاح أداء فريضة الحج من اتصال مع هذه البلاد ، ولتعزيز هذه الصلة بذل حكام كانم ـ برنو جهودهم في القرن الثالث عشر الميلادي لإنشاء الروابط الثقافية والدبلوماسية مع طرابلس ومراكش وغيرها ، مما ترتب عليه مساهمة علماء المراكز الثقافية الإسلامية في كل من القاهرة وفاس وتونس في نشر المعرفة الإسلامية في كانم ـ برنو وغيرها من مناطق السودان الأوسط ، فقد ظل العلماء الزائرون يقومون بمهمة كبرى في نقل التعليم والثقافة العربية الإسلامية ، كما أن تدفق الكتب والمؤلفات الأدبية من شمال أفريقيا كان قد أدى إلى انتشار الدراسات العربية وتعميقها [١] .

وجدير بالذكر أن الكانميين تمذهبوا بمذهب الإمام مالك ، فبنوا مدرسة للمالكية ، اتخذوها مركزًا للثقافة العربية [٢] .

وهكذا يمكن القول : إنه ، بفضل الإسلام ورجاله ، ومساهمة هؤلاء العلماء ، بلغ التعليم الإسلامي في كانم ـ برنو مستوى رفيعًا من التقدم خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، فتوطدت الثقافة العربية الإسلامية ، وحرص حكام البلاد على توقير العلماء ووضعهم في مكانة ممتازة ، فأصدروا المراسيم التي تجعل الشخص العالم وولده وماله حرامًا لا تمس بسوء طيلة حياته ، وامتد هذا التكريم إلى العلماء الوافدين من الشمال أو الشرق ، فارتفع شأن العلماء ، من أمثال القاضي محمد بن الحاج أحمد ، والإمام طاهر بن

---

(١) كاني ، مصدر سابق ، (ص١٣ ، ١٥) .

(٢) حسن إبراهيم حسن ، مصدر سابق (ص١٣١) .

إمام الحاج ، وعبد القادر الحاج وغيرهم [١] .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ما بلغته مكانة العلم والعلماء في نفوس حكام كانم - برنو .

ولابد ، في هذا السياق ، من أن ننوه إلى وجود مراكز إشعاع إسلامية أخرى ، ساهمت في إضاءة جنبات القارة الأفريقية ، ولو بقدر أقل ، مثل مدينة غانه أو كومبي عاصمة إمبراطورية غانا ، التي كان بها اثنا عشر مسجدًا ، وعاش فيها كثير من العلماء ورجال الدين والأدب والطلاب ، وكانت العربية لغة التدوين في جميع أرجاء البلاد [٢] .

وكذلك مدينة أودغست الواقعة في شمال غرب أفريقيا ، التي كان بها مدارس ومساجد [٣] ، وهناك أيضًا مدينة جاو التي ظلت عاصمة لإقليم سنغاي ، وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر ، عند اتصاله بوادي تلمس ، منحدرًا إليه من وسط الصحراء الكبرى ، فقد اشتهرت هذه المدينة بالنشاط السياسي والتجاري أكثر من النشاط الثقافي ، لقلة من وجد فيها من الأساتذة وطلاب العلم ، مقارنة بمدينتي تمبكتو وجني .

إضافة إلى ذلك كان ثمة مراكز أخرى ذات نشاط أقل مستمد من نشاط المدن الكبرى ؛ مثل ولاته وداندي وتغزة وغيرها [٤] .

كما تجدر الإشارة إلى مراكز إسلامية أخرى قامت بدور لا يقل أهمية عن

---

(١) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص٢٢٦) .

(٢) المصدر نفسه ، (ص٧٧، ٧٨) .

(٣) المصدر نفسه ، (ص٩٠) .

(٤) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (ص٢٢٢) .

دور المراكز التي سبق ذكرها ، وهي الأربطة [(١)] ، والزوايا ، التي قامت بنشاط علمي أساسه نشر الدين الإسلامي ولغته ، وقد قامت الأربطة في شمال أفريقيا في الصحراء الواسعة الممتدة التي تفصل الشمال عن الجنوب ، والتي تمتد من المغرب الأقصى حتى مدينة الإسكندرية ، وكانت من الأماكن التي شهدت نشاطًا علميًا وثقافيًا ؛ إذ تم من خلالها تلقين العلوم الإسلامية ونشرها داخل القارة ونسخ المصاحف ، وكتب الفقه والحديث ، فكان يوجد بداخل الرباط دارًا للكتب تودع فيها النسخ الأصلية لمؤلفات العلماء للرجوع إليها عند الحاجة ، وتولى المرابطون نسخ المؤلفات النادرة بأعداد وفيرة لتوزيعها على طلاب العلم الوافدين من غرب أفريقيا ، كما كان بالرباط حوانيت الوراقين ، وقسم لصناعة المداد وأدوات الكتابة والورق [(٢)] .

ولعل أقدم الأربطة الصحراوية في شمال أفريقيا وغربها والمغرب الأقصى هو رباط قصر طرابلس ، والذي أسس حوالي ١٨١هـ ، ٧٩١م ، وقد امتدت الأربطة بعد ذلك حتى بلغت نهر السنغال ، وانتشرت في الصحراء الكبرى وفي الواحات الجنوبية [(٣)] .

أما الزوايا فاعتبرت من أهم وسائل انتشار الإسلام ومن معاهده ، فهي تطلق على المكان الذي يتخذه المتصوفة لترويض النفس وتربيتها على الخلق الإسلامي القويم ، وقد كانت في بادئ الأمر أمكنة للعبادة ، وبمرور الزمن

---

(١) الرباط : كلمة تعني حراسة الحدود وحمايتها من غارات الأعداء ، ثم اتخذ الرباط مستقرًا للعلماء والزهاد .

(٢) فضل كلود الدكو ، مصدر سابق ، (١٤٠، ١٤١) .

(٣) المصدر نفسه ، (ص١٤٢) .

اتسع مفهومها حتى صارت تقوم بما تقوم به المدرسة في البلاد التي لم تكن بها مدارس ، ومع نشوء الطرق الصوفية انتشرت الزوايا في البلاد كمراكز لتلك الطرق ، وكان بعض هذه الزوايا تقع على طرق القوافل التجارية المارة وسط الصحراء الكبرى [١] .

كان أصحاب الزوايا في غرب أفريقيا ، يقومون بنشر الإسلام بين سكان أفريقيا وتعليمهم مبادئه ، وتحفيظهم شيئًا من القرآن الكريم وعلوم الفقه والحديث وتلقينهم قواعد الدعوة لهذا الدين ، ثم إرسالهم إلى داخل القارة كدعاة للإسلام ولتعليم اللغة العربية لمن يعتنقون هذا الدين [٢] .

وهكذا يتضح أن الأربطة والزوايا كانت من المعالم الدينية ومراكز تعليمية ساهمت من خلال نشاطها العلمي والثقافي في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية في أفريقيا .

ثالثا : تأثير التعليم والثقافة العربية والإسلامية في الشخصية الأفريقية :

العرب أمة ذات عطاء وقدرة ، ومنذ أن برزت إلى الوجود وهي على موعد مع التاريخ في صناعة الأحداث الكبرى ، التي حملت تغييرات نوعية في الحضارة الإنسانية ، وتاريخ الإنسان لا يتعلق بالأصل والكيان وحسب ، بل يشمل التفاعل والتأثير المتبادل .

وثقافة كالثقافة العربية الإسلامية كان لابد لها أن تتمتع بجملة من

---

(١) المصدر نفسه ، (ص١٤٤) .

(٢) المصدر السابق ، (ص١٤٦) .

الخصائص ، تمنحها القدرة على التأثير والانتشار والاستمرارية ، وليس ثمة أي ضرورة لاستعراض ماضي الثقافة العربية الإسلامية ، ولكننا نتبين من خلال ذلك الماضي الخصائص العامة ، التي تتلخص في المرونة والشمول والتطور والعالمية والحيوية والإيمان والولاء للإسلام وعقيدته ، إلى جانب نزعة التسامح والنزعة السلمية والنزعة العلمية والنزعة العقلية ، والشورى واللغة العربية ، التي تتجلى من خلالها الحضارة العربية الإسلامية ، باعتبارها الوسيلة الأساسية للتعبير عن نفسها ، من خلال تراثها العلمي والأدبي والفني ، كما تتصف الثقافة الإسلامية بالأصالة والأمانة ، ولهذا فهي صالحة لكل زمان ومكان [١] .

لذلك ارتبطت الشعوب الأفريقية بالثقافة العربية روحًا ومضمونًا ، وكونها وجدت في الثقافة العربية الثقافة الحليفة والمكملة لثقافتها ، بل أغنتها وطورتها ، ولم تكن الثقافة العربية يومًا بديلًا للثقافة الأفريقية ، كما فعل المستعمرون الأوروبيون [٢] ، فالإسلام وإن كان قد استوطن كل قطر أفريقي ، وأصبح جزءًا من التراث الأفريقي ، إلا أنه لم يمح الشخصية المعنوية التي اعتنقته ، بل احتفظت تلك الشخصية بكيانها [٣] .

وإذا أردنا أن نتناول تأثير التعليم والثقافة الإسلامية في الشخصية الأفريقية ، فلابد أن نذكر أن هذا التأثير ما كان له أن يحدث لولا وجود

---

(١) شاكر مصطفى ، عالم الثقافة المختلفة ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٩ ، ع١ ، أبريل ، مايو ، يونيو ١٩٨١ ، الكويت ، وزارة الإعلام ، (ص٣٢، ٣٣، ٣٤) .

(٢) حميد دولاب ضيدان ، مصدر سابق ، (ص١٣١) .

(٣) المصدر نفسه ، (ص١٠٤) .

الإسلام وثقافته وانتشاره في أفريقيا ، فما حدث في أفريقيا من انتشار للتعليم وللثقافة العربية الإسلامية ، من خلال المراكز الحضارية التي توزعت في شتى أنحاء القارة ، ما هو إلا ثمرة أو نتيجة لدخول الإسلام وتغلغله في القارة الأفريقية .

ولهذا فإن التحول أو التغيير الذي طرأ على الشخصية الأفريقية يتضح أساسه جليًا من خلال تجربة الإسلام في بناء الشخصية الحضارية ، وقد انطلق الإسلام في بناء تلك الشخصية من خلال مكونات تعتبر أساسية في إيجاد الشخصية الحضارية ، حيث تتمثل هذه المكونات في : الإيمان والعبادة والصلاة والزكاة والصوم والحج والأخلاق والثقافة والشعور بالمسؤولية [١] .

وتشير هذه المكونات في مجملها إلى مسألة مهمة عني بها الإسلام ، ألا وهي التربية ، فالتربية عملية اجتماعية تستمد خياراتها الأساسية من القيم السائدة في المجتمع ، ومن البديهي القول بأن للتربية علاقة وثيقة بالمجتمع الذي تقوم فيه ، كما أنها تعتبر وسيلة من وسائل تشكيل الوعي الفردي والجماعي [٢] ، ولهذا كان لابد لمجتمع كالمجتمع الأفريقي ، انتشر فيه الإسلام وثقافته ، أن يتكيف مع مجموعة القيم السائدة فيه ، وأن يبدأ باتخاذ نهج جديد لحياته يتماشى مع أساسيات بناء الشخصية الحضارية ، وهذا ما حدث ، فقد استجابت الفطرة الأفريقية لهذا الدين ، وأبدت قبولًا لتعاليمه ومبادئه ، وهو ما نتج عنه

---

(١) مجاهد شعبان ، الإسلام وبناء الشخصية الحضارية ، مجلة نهج الإسلام ، ع٤٤ ، (ص١٢) ، حزيران ١٩٩١ ، سوريا ، وزارة الأوقاف ، (ص١٤٠ـ ١٤٥) .

(٢) سعاد هاشم قصيبات ، دور التربية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية في أفريقيا ، أعمال مؤتمر التعليم ٣٨ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٣٧٨) .

ظهور نمط جديد من المجتمع ، جمع بين القيم الإنسانية الأفريقية ، وثقافات أبناء المنطقة وحضارتهم ، وبين النبع الثقافي والحضاري الأصيل للإسلام [١] .

فإذا كان الإنسان الأفريقي قد استجاب لهذه النقلة الحضارية ، وشهد حالة من الازدهار العلمي والثقافي أثرت إيجابيًا على شخصيته ، فإن ذلك يعود لعدة عوامل يسرت له عملية استيعاب ما جاءت به الثقافة العربية الإسلامية من مفاهيم حضارية مختلفة ، نذكر من هذه تلك الخصائص والسمات التي اشتمل عليها الإسلام ، وقد سبقت الإشارة إليها ، إلى جانب الكيفية التي تم بها نشر الإسلام ، كما لابد أن نشيد بإيجابية الحكام والسلاطين تجاه النشاط العلمي والثقافي في بلادهم ، كذلك كان من العوامل المهمة في هذا الصدد وجود العلماء والفقهاء المقيمين والزائرين الذين عملوا على نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية بين أبناء القارة ، بالإضافة إلى وجود المراكز الإسلامية المنتشرة في ربوع البلاد ، كالمساجد التي كانت بمثابة اللبنة الأساسية في المجتمع الإسلامي ، ولكونها دورًا للعبادة وللتثقيف والتعليم والتوجيه [٢] ، والمدارس والجامعات والأربطة والزوايا .

فإذا نظرنا إلى هذه العوامل ومدى الفعالية التي أسهمت بها في تغيير نمط حياة وسلوك الإنسان الأفريقي ، نجد أن مؤشرات أو علامات التحول في شخصيته قد برزت في مجال المعتقدات والسلوك وفي مجالات الحياة الاجتماعية

---

(١) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (ص١٨٤) .

(٢) جميلة محمد التكتيك ، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير ، ١٤٩٣ ، ١٥٢٨ ، ط١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، (ص١٨٠) .

والاقتصادية والسياسية والثقافية .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : ما هي الأداة أو الوسيلة التي تحقق بها هذا التحول أو التبلور في الشخصية الأفريقية ؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول : إن التعليم والثقافة العربية الإسلامية كانا الوسيلة المؤدية إلى هذا التحول ، فقد لعب التعليم والثقافة دورًا مهمًا في حياة الإنسان الأفريقي ، حيث وسعا إدراكه لأوضاعه ، وأسهما في بناء شخصيته والارتقاء بسلوكه الإنساني ، في مجال التعامل مع محيطه الخارجي ، ومعلوم أنه لا يمكن الفصل بين التعليم والثقافة ؛ إذ إن التعليم جزء من الثقافة ، ومن ثم فهما يعملان معًا على خلق حالة من الانسجام بين الإنسان وذاته وبينه وبين أبناء مجتمعه [(١)] .

هذه الحالة من العلاقة بين الشخصية والثقافة ونظام القيم الذي منح دلالته لطرق السلوك المقبولة ، تضع يدنا على أساس العلاقة بين اللغة والسلوك ، فالتعليم والثقافة العربية الإسلامية منبثقان من الإسلام ، وهذا التلازم أوجب على الإنسان الأفريقي ، كي يحسن إسلامه أن يتعلم لغة هذا الدين ، لكي يفهم المعاني والمبادئ التي جاء بها الإسلام ، ثم يندرج في دراسة العلوم المرتبطة بهذا الدين ولغته ، لكي يلم بكل ما له علاقة بالتراث الإسلامي ، من هذا المنطلق ، أو على هذا الأساس ، كانت الثقافة العربية الإسلامية ، تعني للإنسان الأفريقي الإيمان بالله وبأهمية وضرورة العمل الصالح في الدنيا ، وبالحساب والجزاء على ذلك في الآخرة ، وتحكيم شريعة الله في شؤون الحياة ، وعدم

---

(١) حسن علي صالح الزين ، التعليم والثقافة من أجل التقارب والوحدة والتحرر في أفريقيا ، أعمال مؤتمر التعليم ، ج٣ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص١٩٠) .

استبعاد عنصر الدين عن الحياة ، والتوفيق بين العلم والدين من جهة ، وبين العلم والحياة من جهة أخرى ، والارتباط بالمنابع الأساسية للفكر الإسلامي ، بما في ذلك منبع أو مصدر الاجتهاد الفقهي ، الذي يعترف بالتجدد والتطور في حياة المجتمع وفي حاجاته ومشكلاته وقضاياه ، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة المستمدة من القيم الإسلامية والإنسانية الثابتة [١] .

فإذا كان مفهوم الثقافة العربية الإسلامية ، عند الإنسان الأفريقي ، يعني كل ما تقدم ، فالنتيجة كانت غرس نموذج حضاري ، ورصيدًا من المفاهيم المختلفة ، أعاد بها الأفريقي بناء كيانه في ظل هذه المستجدات .

لقد حقق التعليم والثقافة العربية الإسلامية مجموعة من الفوائد والنتائج الإيجابية ، مما كان له تأثير على الذات الأفريقية ، وقد تجلت فيما يلي :

١ـ ترسيخ القيم الدينية والخلقية والارتقاء بالإنسان الأفريقي دينيًا وخلقيًا .

٢ـ الحفاظ على الهوية الأفريقية المتميزة في عاداتها وتقاليدها التي لا تتعارض مع روح الإسلام .

٣ـ الاعتزاز بالانتماء لثقافة عربية إسلامية توفر الأساس للعمل والإبداع والابتكار .

٤ـ عدم الجمود والانطواء على الذات ، بل التفتح على ثقافات الغير ، واختيار النافع منها والتفاعل معها .

---

(١) عمر التومي الشيباني ، دور التعليم في تأكيد الأصالة الثقافية الأفريقية ، أعمال مؤتمر التعليم ، ج١ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٤٥٥ ، ٤٥٦) .

٥ـ خلق الإنسان الباحث والدارس والمعلم في الوقت نفسه .

٦ـ تربية الإنسان الأفريقي ، عن طريق توسيع مداركه الفكرية وملكاته الروحية ، للارتفاع به إلى مستوى المعارف والعلوم التي تربطه بالعقيدة الإسلامية وبحياته في إطار المجتمع الذي يعيش فيه ، أو يتعامل معه ، عبر الظروف والزمان والمكان (١) .

ولو نظرنا إلى جانب آخر في حياة الإنسان الأفريقي ، فسوف نجد تبدلًا قد طرأ عليه ، بفعل الأثر العظيم الذي أحدثه الإسلام وثقافته في وسط القبائل الأفريقية ، إذ اكتسب الإنسان الأفريقي نظرة جديدة إلى الحياة والعلاقات الاجتماعية ، كما تخلى عن الكثير من العادات والطباع البدائية ، وهجر حياة العري أو شبه العري بارتداء الملابس ، كما حدث عند القبائل الزنجية والأهالي الذين لم يكونوا يغتسلون من قبل ، بدأوا يغتسلون ، بل يكثرون من الاغتسال ، وصاروا يتأنقون في ملابسهم ؛ لأن الإسلام يأمر بالنظافة على الدوام ، كما قلت الجريمة في أوساط تلك القبائل ، وقلَّ السلب والنهب والاعتداء على بعضهم البعض ، وبدأ الناس يأمنون على حياتهم وأملاكهم ، وتخلصوا كذلك ، بواسطة الإسلام ، من ظاهرة وأد الأطفال ، حيث كانت القبائل الزنجية تعتبر الأطفال الذين يولدون في ظروف شاذة أو لحقهم تشويه ، خطرًا يهدد المجتمع (٢) .

ولم يقف تأثير التعليم والثقافة العربية الإسلامية على الشخصية الأفريقية عند هذا الحد ، فإننا نجد شعبًا ـ كشعب سنغاي مثلًا ـ في عهد أسكيا محمد ،

---

(١) المصدر السابق ، (ص٤٦٩) وما بعدها .

(٢) حيد دولاب ضيدان ، مصدر سابق ، (ص١٠١) .

قد تحلى بالأمانة والشرف في معاملاته المختلفة، واتصف بالعناية الشديدة بحفظ القرآن الكريم، وعدم التفريط في أداء الفرائض، من صلاة وزكاة وصوم وحج، واحترام الكبار وتوقيرهم، وغير ذلك من الصفات، كإلزام المرأة بالاحتشام في اللباس عند خروجها من المنزل، والاهتمام بنظافة وأناقة اللباس، والالتزام بحضور المناسبات الدينية المختلفة، كالأعياد وصلاة الجمعة، والمولد النبوي الشريف، ومواكب الحجاج، وغيرها من المناسبات الاجتماعية العديدة [١] .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الانسجام الذي حدث بين الإنسان الأفريقي وبين ثقافة وقيم الإسلام، التي استطاع أن يتعاطى معها من خلال التعليم العربي الإسلامي، مما انعكس بدوره على سلوكه الخاص والعام.

يلاحظ مما سبق، أنه كان للتعليم والتربية الإسلامية دور بارز في تغيير نمط حياة الإنسان الأفريقي، وتطوره وتقدمه في كافة جوانب حياته، الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهي كلها جوانب مترابطة ومتداخلة ومتفاعلة فيما بينها، ويؤثر بعضها في بعض، ويتداخل بعضها مع بعض، فالجانب الثقافي بمعناه العام يشمل الجانب الاجتماعي وباقي الجوانب الأخرى، وهكذا يمكن القول بالنسبة للجانب الاجتماعي الذي يشمل أيضًا في مفهومه العام الجانب الثقافي وكذلك الجوانب الأخرى، ولهذا لا يمكن إنكار دور التعليم والتربية النابعة من الثقافة العربية الإسلامية في بلورة الشخصية الأفريقية، والتحكم في ثقافتها، وتوجيهها نحو اتجاهات جديدة،

---

(١) جميلة محمد التكيتك، مصدر سابق، (ص١٩٨، ١٩٩)، كذلك فاي منصور علي، مصدر سابق، (ص١٨٤، ١٨٦).

مستمدة عناصرها من ثقافة أصيلة تؤمن بالدين والعقل ، قابلة لإبراز المبادرات الإبداعية والابتكارية وقادرة على تفهم ثقافات الغير والاستفادة منها .

كل هذه المزايا وغيرها المتأصلة في الثقافة العربية الإسلامية استطاعت المراكز الحضارية في القارة الأفريقية أن توجه العناية إليها ، وأن تجعل غرسها في الشخصية الأفريقية هدفًا أساسيًا من أهداف دورها التعليمي والثقافي ، وأن تبذل كل الجهود الممكنة لتنمية الذات الأفريقية وتطويرها لإيجاد تناسق وانسجام بينها وبين الحضارة العربية الإسلامية ، حتى تضمن لها البقاء والاستمرار .

*****

اللغة العربية في إثيوبيا
«خلفيات الانتشار وعوامل الانحسار»

عمر السيد عبد الفتاح(*)

مقدمة:

إثيوبيا من الدول التي تتعدد فيها اللغات واللهجات، ويتراوح عدد اللغات الوطنية بها ما بين (٧٠ ـ ٨٠ لغة)، ومن بين هذه اللغات هناك أربع أو خمس لغات ذات أهمية كبيرة، وهذه اللغات تنال أهميتها إما بسبب عدد متحدثيها كلغة أم، أو بسبب أهميتها السياسية والثقافية والدينية، أو بسبب استخدامها كلغة ثانية.

وتأتي اللغة الأمهرية في مقدمة هذه اللغات فهي اللغة الرسمية لدولة إثيوبيا وهي لغة الإدارة والمصالح الحكومية، كما تستخدم في المدارس الحكومية وخاصة في مراحلها الأولى وتصدر بها غالبية الصحف اليومية في إثيوبيا، وتعتبر اللغة الأمهرية لغة أم لحوالي ١٠ ـ ١٢ مليون نسمة [١] وذهب البعض إلى أن عدد متحدثيها يصل لحوالي ٣٠ مليون نسمة [٢]، وكذلك فهي تعد لغة ثانية لقطاع عريض من الإثيوبيين، وربما تكون اللغة الثانية لبقية الشعب الإثيوبي، حيث تعتبر اللغة الأمهرية هي لغة التعامل Lingua franca بين

(*) مدرس مساعد قسم اللغات معهد البحوث والدراسات الإفريقية.

(1) Appleyard , David , Colloqial , P.2 وكذلك ، Ferguson , C.A , The Role of Arabic in Ethiopia , P112 .

(٢) المهدي، فايز محمد، الإذاعات المصرية الموجهة إلى شرقي أفريقيا، (ص٦٨).

سكان إثيوبيا .

ومن اللغات الهامة أيضًا نجد اللغة الأورومية وهي لغة قبائل الأورومو «الجالا» ويزيد عدد متحدثيها عن ٧ مليون متحدث [١] ، كما تعد اللغتان التيجرينية والصومالية من اللغات الهامة أيضًا في إثيوبيا .

أما باقي لغات إثيوبيا فإنها تشمل العديد من اللغات التي تتحدثها أعداد صغيرة غالبًا ما تكون عدة آلاف ، وإن كان هناك حوالي ١٢ لغة محلية في إثيوبيا يتحدث بها أكثر من مائة ألف متحدث كلغة أم لكل واحد منهن [٢] ، ومن هذه اللغات اللغة العفرية والهررية والجوراجية والبيجا وغيرها .

وبالإضافة للغات المحلية الإثيوبية نجد عدة لغات أجنبية ذات أهمية ووضعية خاصة في إثيوبيا وتأتي اللغة الإنجليزية على رأس هذه اللغات من حيث الأهمية ، فعلى الرغم من العدد القليل الذي يتحدثها كلغة أم في إثيوبيا إلا أنها تتمتع بمكانة كبيرة ، حيث تعتبر اللغة الرسمية الثانية لإثيوبيا ، فهي لغة التعليم في المدارس الثانوية الحكومية وفي التعليم الجامعي ، كما أن لها أهمية كبيرة في مجال التجارة والاتصالات الدولية [٣] ، ويمكننا أن ننظر إليها من هذه الناحية كإحدى اللغات الهامة في إثيوبيا .

كذلك تتمتع اللغة الإيطالية بأهمية ما في إثيوبيا ، فقد دخلت إثيوبيا منذ ما يقرب من قرن من الزمان واستخدمت في عدة مجالات هامة ، فاستخدمت

---

(1) Bender, ML , Language in Ethiopia, P.12 .

(2) Ibid , P.12.

(3) Ibid , P.300 وكذلك،Arabic in Ethiopia , P.115 Ferguson , C.A , The Role of .

كلغة وطنية لعدد من الإيطاليين الذين استقروا في إثيوبيا واستوطنوا بها ، كما استخدمت كلغة ثانية لعدد من الإثيوبيين ، كذلك تم استخدامها كلغة تعامل في مجال العمل والصناعة [١] .

أما اللغة العربية فإنها تتمتع بوضع ومكانة متميزة على الخريطة اللغوية لإثيوبيا ، فقد استقرت اللغة العربية في إثيوبيا منذ وقت طويل يسبق دخول أية لغة من اللغات الأوروبية إلى إثيوبيا ، وتحدث بها عدد كبير من الإثيوبيين وانتشرت بينهم انتشارًا كبيرًا .

وفي السطور التالية ستتناول هذه الورقة البحثية وضع اللغة العربية في إثيوبيا ، حيث ستبدأ بإلقاء الضوء على الخلفية التاريخية لانتشار اللغة العربية في إثيوبيا «مراحل الانتشار ـ عوامل الانتشار ـ مظاهر الانتشار» ، ثم تنتقل بعد ذلك لتناول الوضع الحالي للغة العربية في إثيوبيا «لغة دين ـ لغة تعامل ـ اللغة العربية في وسائل الإعلام الإثيوبية ، اللغة العربية والتعليم في إثيوبيا» ، ويلي ذلك الحديث عن أسباب انحسار اللغة العربية في إثيوبيا ومعوقات انتشارها «تأثير اللغات الأوروبية والاستعمار ـ السياسات اللغوية ـ الوضع الحضاري والثقافي للعرب» وتختتم الورقة بالخاتمة والخلاصة .

الخلفية التاريخية لانتشار اللغة العربية في إثيوبيا :

مرت اللغة العربية بمرحلتين أساسيتين من الانتشار في إثيوبيا ، المرحلة الأولى هي مرحلة التهيؤ وتشمل الفترة السابقة لظهور الإسلام حتى بداية انتشاره الحقيقي في إثيوبيا ، والمرحلة الثانية هي مرحلة الازدهار وهي الفترة التي بلغ الإسلام فيها أوج ازدهاره وانتشاره وشهدت الحبشة «إثيوبيا» قيام

(١) Ibid nn170 – 171.

ممالك إسلامية بها وهذه المرحلة شهدت ازدهارًا حقيقيًا للغة العربية في إثيوبيا .

أولا : مرحلة التهيؤ :

عرفت اللغة العربية طريقها إلى الحبشة منذ فترة بعيدة ، فالجوار الجغرافي بين شبه الجزيرة العربية والحبشة أدى إلى قيام علاقات متعددة بين الجانبين ، وقد ساعد على ذلك أن الفاصل بينهما هو البحر الأحمر الهادئ الذي تضيق شواطئه وتتقارب وتكاد تلامس بعضها البعض عند مضيق باب المندب ، وقد تبادل الجانبان العلاقات ، فقامت علاقات تجارية وسياسية وهجرات متبادلة مما أحدث نوعًا من التأثير والتأثر ، فقد هاجرت بعض القبائل العربية إلى الحبشة وأثرت فيها أيما تأثير ، حيث كان هؤلاء المهاجرون أكثر تقدمًا ورقيًا من أهل البلاد الأصليين فأثروا في المناطق التي نزلوا بها حتى أن اسم الحبشة ذاته مأخوذ من اسم إحدى القبائل العربية المهاجرة إلى الحبشة والتي تسمى «حبشة» أو «حبشات» (1) ، كما أن لغة الحبشة القديمة «اللغة الجعزية» اكتسبت اسمها من اسم إحدى القبائل العربية المهاجرة وهي قبيلة «الأجاعز» أي الأحرار (2) .

كذلك قامت علاقات تجارية بين الجانبين ، فقد كانت الحبشة منذ أقدم الأزمنة سوقًا تجارية هامة ، إذ كانت موردًا لا ينضب لعدد من الرقيق الذي كان مطلبًا من أهم مطالب الدول القوية القديمة ، كما كانت غنية بالأخشاب والتوابل وسن الفيل والجلود ، وقد قام التجار العرب وخاصة اليمنيون بدور كبير في تصريف هذه التجارة ، فقد اتخذوا من ساحل إفريقيا الشرقي موطنًا

---

(1) طرخان ، إبراهيم علي ، الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى ، (ص5) .

(2) المصدر السابق ، (ص7) .

لهم ، وعملوا على نقل هذه المواد إلى الدولة الرومانية الشرقية عبر مكة ويثرب وإلى الدولة الفارسية عبر اليمن وحضر موت [(١)] .

وقد تحولت هذه العلاقات إلى علاقات سياسية وحربية في كثير من الفترات ، حيث عملت الحبشة على حماية طرق تجارتها فغزت اليمن أكثر من مرة واحتلتها في الفترة ما بين سنة ٣٠٠ ـ ٣٧٨م حين استطاع اليمنيون طرد الأحباش ، وكرر الأحباش الأمر مرة أخرى واستمرت العلاقات بين الجانبين في توتر وشد وجذب لفترة طويلة حتى قبيل ظهور الإسلام .

ويلاحظ أن اللغة العربية في هذه الفترة لم يتعد استخدامها في الحبشة نطاق المعاملات التجارية مع العرب ولم تتجاوز الساحل الشرقي للحبشة ولم تتوغل داخلها ؛ ولذا يمكننا أن نعتبر الفترة التي سبقت ظهور الإسلام عبارة عن بواكير وإرهاصات لدخول وانتشار اللغة العربية إلى الحبشة .

ثانيا : مرحلة الازدهار :

مع ظهور الإسلام شهدت اللغة العربية مرحلة جديدة من مراحل الانتشار في إثيوبيا ، حيث حمل الإسلام اللغة العربية معه حيثما حلَّ وأينما ارتحل وسارت اللغة العربية بجانب الإسلام تنتشر حيث ينتشر ، وتستقر حيث يستقر ، فمع ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، بدأت قريش تضطهد المسلمين فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، واستقر المهاجرون المسلمون هناك فترة من الزمن ، وإذا كانت هذه الهجرة لم تترك أثرًا يذكر في نشر الإسلام أو نشر اللغة العربية في الحبشة إلا أنها كانت بمثابة تعريف للأحباش بهذا الدين الجديد الوافد من جزيرة العرب .

---

(١) الحيمي ، حسن أحمد ، سيرة الحبشة ، (ص١٨) .

وبعد أن انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية ودانت بلاد العرب للمسلمين ، وأصبحوا يتحكمون في طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ، كما أسهموا بنشاط كبير في التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر ، وعبرت مجموعة قليلة من تجار العرب الساحل الغربي للبحر الأحمر ، كما اخترق عدد من هؤلاء الحدود الحبشية وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج على الساحل الحبشي [١] .

وبدأ العرب في الظهور كقوة فتية على الساحة العالمية ، كما أخذ الإسلام يسير بخطى واسعة واستقر في الساحل الشرقي للحبشة وتكونت للمسلمين مراكز استقرار على طول الساحل الشرقي لإفريقيا ، وامتزج المسلمون العرب بالوطنيين وصاهروهم فأخذ الإسلام واللغة العربية ينتشران تدريجيًا ، واعتنق كثير من سكان الحبشة الإسلام مثل قبائل الساهو والعفر في شرق الحبشة والسيدامو وشوا في جنوب الحبشة ، كما تأثرت به أيضًا القبائل الصومالية ودخل كثير من البيجا في الإسلام [٢] ، وكان كلما انتشر الإسلام في مكان أسرع إليه الفقهاء والعلماء وأقاموا الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم ولتعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي ، وقد كان لهذه الحركة التعليمية أثرًا كبيرًا في انتشار اللغة العربية بين هذه القبائل التي اعتنقت الإسلام ، حيث استخدموها كلغة دينية ووسيلة لإقامة شعائر دينهم ، فكان كل داخل في الإسلام يتعلم حفظ ما يستطيع أن يقيم به صلاته ثم يمضي إلى تعلم اللغة العربية ليزداد تفقهًا في الدين ، كما استخدم الأحباش اللغة العربية كلغة تعامل

---

(١) طرخان ، إبراهيم علي ، الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى ، (ص٢٨) .
(٢) المصدر السابق ، (ص٢٩، ٣٠) .

مع التجار العرب المسلمين ، وكلغة تعامل مشتركة فيما بينهم ؛ لأن كل قبيلة من هذه القبائل لها لغتها الخاصة بها والتي لا تفهمها القبائل الأخرى ؛ ولذلك فقد استخدمت اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ كلغة تعامل بين هذه القبائل ، فقد جعل الإسلام من اللغة العربية لغة عالمية للتفاهم كما أضفى على هذه القبائل نوعًا من الوحدة الثقافية .

ولم يتوقف انتشار اللغة العربية على الساحل الشرقي للحبشة فقط بل امتد إلى داخل الحبشة نفسها ، حيث حملها إلى الداخل التجار العرب والدعاة والمعلمون وحملتها القبائل العربية المهاجرة والطرق الصوفية إلى أعماق الهضبة الحبشية .

وقد شهدت اللغة العربية مرحلة من الانتشار والازدهار الكبير وقد ارتبط ذلك بالتوسع الإسلامي الكبير في الحبشة ، ومن أبرز فترات التوسع الإسلامي في الحبشة نجد الفترة ما بين القرنين ١٠ ـ ١٢م حيث تعتبر هذه الفترة فترة التوسع المنظم للإسلام دينًا ودولة حيث ظهرت الممالك الإسلامية داخل الوطن الإثيوبي .

وهذه الممالك اشتهرت وذاع صيتها وعُرفت باسم ممالك الطراز الإسلامي واشتهرت في هذا الطراز إمارات سبع هي : أوفات ، دارداو ، أرابيني ، هدية ، شرخا ، بالي ، دارة ، وقد اتسم تكوين هذه الممالك بصفة عامة بالطابع السلمي التجاري ، إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية وقد ارتبطت هذه الممالك بالعالم الإسلامي الخارجي عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة في المدينة المنورة ودمشق والقاهرة [١] .

---

(١) المصدر السابق ، (ص٣٣) .

وقد اهتمت هذه الممالك بالتعليم الإسلامي فأنشئت المدارس المختلفة لتحفيظ القرآن الكريم ولتعليم اللغة العربية بالإضافة إلى تدريس العلوم الإسلامية كالفقه والحديث والتفسير وغيرها من العلوم الإسلامية، وقد انتشرت اللغة العربية في هذه الممالك بشكل كبير حيث إن أهالي البلاد كانوا يتكلمون اللغة العربية إلى جانب لغاتهم المحلية، فقد كان أهل أوفات يتحدثون العربية إلى جانب لغاتهم الحبشية [١]، كما ذكر أحد الكتاب أنه في أثناء زيارته لمدينة دارداو وجد أن اللغة العربية في هذه البلدة هي اللغة السائدة وهي اللغة الأولى التي يتكلم بها أهلها حتى النساء والأطفال الصغار وهم يتكلمون بها بفصاحة حتى يخيل إليك إذا سمعتها أنك في بلد عربي [٢].

وشهدت اللغة العربية مرحلة أخرى من الازدهار في القرن السادس عشر وهذه المرحلة ارتبطت بالموجة الجديدة لانتشار الإسلام، ففي هذه الفترة شهدت حركة انتشار الإسلام أكبر قوة لها مع ظهور الإمام أحمد بن إبراهيم الذي استطاع توحيد مسلمي إثيوبيا وأخذ يستولي على المدن الإثيوبية الواحدة تلو الأخرى حتى دانت له البلاد بالولاء والطاعة ودخلت أغلب أقاليم إثيوبيا في طاعته وتحت سيطرته عدا أجزاء محدودة منها، واستمر جهاد الإمام أحمد ابن إبراهيم حوالي خمسة عشر عامًا قبل أن يتدخل البرتغاليون في ساحة الصراع والأحداث التي انتهت باستشهاده، وبدأت سلطة المسلمين بعد ذلك في الضعف والتقلص بعد أن كانت وصلت إلى أوج ازدهارها وأقصى توسعها، وكان لهذه الفترة من التوسع أثر كبير في توطيد قواعد الإسلام ونشر اللغة العربية في أنحاء إثيوبيا، حيث امتد الإسلام ووصل إلى مناطق وأراضي

---

(١) المصدر السابق (ص٣٩).

(٢) العبودي، محمد بن ناصر، في إفريقية الخضراء، (ص١٥٨).

لم يكن قد وطئها من قبل .

وقد شهدت اللغة العربية نهضة أخرى في القرن التاسع عشر أثناء عصر الفوضى الذي ساد الحبشة ، فقد كان الإسلام في بداية القرن التاسع عشر يمر بفترة ركود فقد أثناءها حماسه ونشاطه في التقدم والانتشار ، ولكنه استعاد نشاطه من جديد في تلك الفترة وتمكنت مدينة هرر في تلك الأثناء من استعادة نشاطها كمركز للإشعاع الإسلامي ، وانتشر الإسلام في منطقة عروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أما مملكة الحبشة نفسها «فوق الهضبة الحبشية» فقد بلغ انتشار الإسلام فيها مبلغًا كبيرًا عن طريق إسلام قبائل الجالا «الأورومو» الذين استقروا فوق الهضبة (١) .

وإذا كان التعليم الإسلامي قد انحصر منذ عهد بعيد في المدن الساحلية ومدينة هرر فقط فإنه في خلال القرن التاسع عشر كان للنهضة الإسلامية أثر كبير في انتشار الإسلام واللغة العربية في كل الأنحاء ، حيث قام المشايخ بتأسيس جميع أنواع المدارس في المدن والمراكز الإسلامية (٢) ، وذلك من أجل تعليم الدين الإسلامي واللغة العربية .

عوامل انتشار اللغة العربية في إثيوبيا :

هناك عدة عوامل تضافرت سويًا وأدت إلى انتشار اللغة العربية في إثيوبيا ، ومن أهم هذه العوامل نجد :

١ـ العامل الديني :

يأتي العامل الديني في مقدمة عوامل انتشار اللغة العربية في إثيوبيا ، فقد

(١) غيث ، فتحي ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، (ص١٨٢، ١٨٣) .

(٢) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى ، (ص١٦٢) .

أخذ الإسلام ينتشر شرقًا وغربًا ، فدخلت بلاد العرب في الإسلام ولحقت بها الشام والعراق وفارس وغيرها من البقاع ، وسارت اللغة العربية مع الإسلام جنبًا إلى جنب ، فحيث انتشر الإسلام واستقرت قواعده انتشرت اللغة العربية .

فمع اعتناق أي فرد من الأفراد للدين الإسلامي لابد له من الإلمام على الأقل ، ببعض الآيات القرآنية حتى يؤدي بها صلاته وواجباته الدينية ؛ ولذلك فإنه لابد أن يكون على علم ولو ضئيل باللغة العربية ، أما من يريد أن يفهم دينه ويبحر فيه فلابد له من الإلمام الجيد باللغة العربية حتى يستطيع قراءة القرآن الكريم وفهمه وقراءة شروحه وتفاسيره ، وبهذه الطريقة حمل الإسلام اللغة العربية معه حيثما حلَّ وأينما ارتحل على نحو يجعل للعربية درجة من الانتشار في كل المناطق التي تضم جماعات مسلمة ، ولم تكن الحبشة بمعزل عن هذا الأمر فانتشار الإسلام بها أدى إلى انتشار اللغة العربية .

٢ـ دور التجار :

لعب التجار دورًا قويًا في انتشار اللغة العربية في إثيوبيا ، فإذا كان بعض التجار العرب قد استقروا قبل الإسلام على الساحل الشرقي للحبشة وعملوا في التجارة فإنه بعد الإسلام كثر عدد التجار العرب بشكل كبير وأقاموا مراكز استقرار لهم على طول الساحل ، كما نشأت الكثير من المدن الساحلية التي تحولت إلى مراكز تجارية هامة ، ولم يكن من المعقول أن يظل النفوذ العربي الإسلامي حبيسًا في هذه المدن الساحلية بل كان لابد أن ينفذ إلى المناطق الداخلية ، فكان هؤلاء التجار هم الوسيلة والعدة في نشر الدعوة الإسلامية واللغة العربية ، فقد كانوا يرحلون إلى المناطق الداخلية التماسًا للتجارة ، وكانوا يقيمون بها بعض الوقت ثم ينحدرون للساحل من جديد ، وفي أثناء

إقامتهم كانوا يخالطون الناس ويتعاملون معهم وينشرون الإسلام مما يستتبع نشر اللغة العربية .

كما كانت هذه المدن الساحلية أسواقًا ضخمة يقصدها أبناء البلاد الأصليون لبيع حاصلاتهم ، وشراء ما يحتاجونه أو بقصد الإقامة والتماس فرص العمل فكان اختلافهم إلى هذه المدن يتيح لهم الاحتكاك بالحياة الإسلامية والثقافة العربية عن كثب ، مما يدفعهم إلى اعتناق الإسلام ومن ثم ينشروه بين ذويهم إذا عادوا لبلادهم ، كما أن المعاملات التجارية في مثل هذه الأسواق كانت تتم في الغالب باللغة العربية أو بالعربية المختلطة بلغات البلاد المحلية مما أتاح لهؤلاء الأفراد أن يعرفوا قدرًا من اللغة العربية من خلال هذه المعاملات مما كان له أثر ما في نشر اللغة العربية بين السكان الأصليين حتى إذا ما اعتنقوا الإسلام صار واجبًا عليهم الإلمام ولو بشكل قليل باللغة العربية .

كما قام العديد من التجار الأثرياء بفتح الكتاتيب والمدارس لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية ، كما كانوا يرسلون الطلاب المتفوقين إلى الحرمين أو دمشق أو القاهرة لإتمام تعليمهم [١] ، وكان لهذا الأمر أثر كبير في نشر اللغة العربية في إثيوبيا .

٢ـ دور الهجرات العربية :

لعبت الهجرات العربية وتحركات القبائل دورًا هامًا في نشر اللغة العربية في إثيوبيا ، فقد خرجت هجرات متعددة من القبائل العربية بعد هجرة المسلمين الأولى قصدت الحبشة واستقرت بها ، ومن هذه الهجرات هجرة أقوام من

---

(١) محمود حسن أحمد ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، (ص٤٣١ ، ٤٣٢) .

ربيعة وقحطان واستقرت في مناطق البيجا [(١)] ، كذلك هاجرت أقوام من قبيلة بني مخزوم القرشية التي أقامت إحدى الممالك الإسلامية بزعامتها في منطقة شوا الشرقية في نهاية القرن التاسع الميلادي تقريبًا ، وقد هاجر أسلاف هذه الأسرة عبر البحر الأحمر في عهد خلافة عمر بن الخطاب ﷺ [(٢)] .

كذلك هاجر العديد من المسلمين لأسباب اقتصادية أو سياسية من شبه الجزيرة العربية أو من مصر ووصلوا إلى الحبشة ، فبعد قيام الخلافة الأموية وأثناء تثبيتها لحكمها في الحجاز هاجر العديد من العرب فرارًا من الأمويين ، وتكررت نفس الهجرة وعلى نفس النمط عندما قامت الخلافة العباسية ففر كثير من معارضيها وانتشروا في شمال إفريقيا والأندلس ومنهم عدد لا بأس به وصل إلى الشاطئ الإفريقي [(٣)] ، ومنهم من توغل في الحبشة ، ولم تتوقف الهجرات العربية عند ذلك التاريخ فقط بل توالت واستمرت على مدار السنين نتيجة للجوار الجغرافي أو نتيجة للظروف السياسية أو للعوامل الطبيعية ، وإن أخذت شكلًا أقل حدة وأقل تدفقًا حيث يذكر فيرجسون أن هذه الهجرات استمرت حتى أنه يذكر أن هناك عددًا من المجموعات المسلمة المتحدثة بالعربية نزحت من السودان إلى إثيوبيا في القرن التاسع عشر [(٤)] .

وقد لعبت هذه الهجرات دورًا هامًا في نشر اللغة العربية بين السكان الأصليين ؛ نظرًا لأن هذه القبائل العربية اختلطت بالسكان الأصليين

---

(١) طرخان ، إبراهيم علي ، الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى ، (ص٣١) .

(٢) المصدر السابق ، (ص٣٢) .

(٣) غيث ، فتحي ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، (ص٧٦) .

(4) Ibid ,P.118 وكذلك ، Arabic in Ethiopia , P.115 Ferguson , C.A , The Role of .

واندمجت معهم وصاهرتهم ، كما أن هذه القبائل كانت على قدر من التقدم والرقي مما يجعلها من عناصر التأثير فيمن حولها من السكان الأصليين .

٤ـ العامل الحضاري :

ومن العوامل التي ساهمت في نشر اللغة العربية في إثيوبيا أيضًا نجد العامل الحضاري ، وهذا العامل يعني أنه إذا التقت لغة ذات تراث حضاري متفوق مع لغة أخرى حظها من ذلك التراث قليل ، فإن الأمر ينتهي بتغلب وسيطرة اللغة الأولى [(١)] ، وقد حدث هذا مع اللغة العربية في إثيوبيا ، فإثيوبيا بها عدد كبير من اللغات المحلية ذات التراث الحضاري المتواضع وقد اصطدمت هذه اللغات باللغة العربية التي كانت في تلك الفترة لغة الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في العصر الأموي والعباسي وبلغت شأنًا كبيرًا وأدى ذلك إلى سيطرة اللغة العربية ، فأصبحت هي لغة التعامل .

٥ـ عامل المصلحة الشخصية :

كما أن هناك عاملًا آخر جعل العربية لها هذا الشأن في إثيوبيا وهو عامل مصلحة الأفراد الشخصية ، فالعربية هي اللغة التي يستطيع أن يصل الأفراد عن طريقها إلى الوظائف الرفيعة ، وذلك عن طريق التعامل مع العرب المسلمين الذين يتمتعون بمكانة اجتماعية رفيعة ، فقد كانوا سادة التجار والماسكين بزمام الحياة الاقتصادية في البلاد ؛ لذا كان من صالح الأفراد الأحباش أن يتعلموها إن لم تكن لأنها لغة دينهم فلأنها وسيلة للتكسب والارتزاق ، بعد أن صارت الوظائف التي تتطلب خبرة خاصة ومستوى ثقافيًا معينًا لا يشغلها سوى المسلمون المتعلمون لذا فقد التزم كل مسلم

---

(١) محمود حسن أحمد ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، (ص٥٢) .

بتعليم أبنائه القراءة والكتابة بالعربية [١] .

وبالإضافة إلى هذه العوامل فإن الطرق الصوفية والدعاة والمعلمون قاموا بجهود صادقة في نشر الإسلام واللغة العربية عن طريق التعليم والدعوة الصادقة ، كما قاموا بإنشاء المساجد وفتح المدارس كما صاهروا أهل البلاد واندمجوا فيهم .

مظاهر انتشار اللغة العربية في إثيوبيا :

اتخذ انتشار اللغة العربية في إثيوبيا عدة مظاهر منها :

١ ـ اللغة العربية لغة تعامل :

تحدث كثير من الإثيوبيين اللغة العربية واحتفظوا بها إلى جانب لغاتهم الأصلية ، فغالبية المدن الإسلامية اتخذت اللغة العربية لغة للدين والثقافة واستخدموها كلغة تعامل فيما بينهم ، فأهل أوفات على سبيل المثال كانوا يتحدثون اللغة العربية إلى جانب لغاتهم الحبشية [٢] ، كما أن اللغة العربية صارت اللغة السائدة أو اللغة الأولى في مدينة درداوا التي يتكلم بها أهلها حتى النساء والأطفال الصغار ، وهم يتكلمون بها بفصاحة يخيل للمرء إذا سمعها أنه في بلد عربي [٣] ، وقد ذكر أحد الزائرين الأوائل للحبشة في القرن التاسع عشر أنه لاحظ أن عددًا كبيرًا من الصوماليين والدناكل الذين لم يستقروا في قرى أبدًا لديهم القدرة على قراءة وكتابة اللغة العربية ، وقد ذكر مراقب آخر أنه في الغرب في جيما يوجد الكثير من المسلمين الذين يستطيعون

---

(١) المصدر السابق ، (ص٤٨٨) .

(٢) طرخان ، إبراهيم علي ، الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى ، (ص٣٩) .

(٣) العبودي ، محمد بن ناصر ، في إفريقية الخضراء ، (ص١٥٨) .

قراءة القرآن الكريم باللغة العربية [(١)] .

٢ـ اقتراض اللغات المحلية الإثيوبية كثيرًا من الألفاظ العربية .

فقد كانت اللغة العربية لغة ذات تراث كبير ولغة حضارة راقية بينما كانت اللغات الإثيوبية أقل منها في هذا الجانب ، فاقترضت منها الكثير من ألفاظ الحضارة وغيرها من المفردات التي دخلت هذه اللغات ، وقد أورد كثير من العلماء قوائم بهذه المفردات المقترضة من اللغة العربية [(٢)] .

ولم يقتصر تأثير اللغة العربية على مسلمي إثيوبيا فقط بل تعداهم إلى المسيحيين أيضًا ؛ وذلك عن طريق تأثير الكنيسة المصرية التي ارتبطت بها الكنيسة الحبشية ، وقد تحقق ذلك التأثير عن طريق الكتب الدينية التي تمت ترجمتها ونقلها من العربية إلى الجعزية أو الأمهرية ، وخاصة بعد أن حلت اللغة العربية محل اللغة القبطية في مصر ، فقد اتخذ الأقباط في مصر من اللغة العربية لغة للكنيسة ونقلوا إليها الكتب الدينية كما ألفوا باللغة العربية ، وبعد ذلك أخذ الأحباش ينقلون هذه الكتب من العربية إلى الجعزية ثم إلى الأمهرية ونقلوا نصوصًا تروي أعمال الرسل ، وقصة آدم وحواء وكتبًا عن معجزات

---

(1) Bender, ML , Language in Ethiopia, P.310.

(٢) أورد العلماء كثير من قوائم المفردات التي اقترضتها اللغات الإثيوبية من اللغة العربية ومن المقالات التي تناولت هذا الجانب نجد :

Leslau, W . (1957) Arabic Loanwords in Amharic , BSOAS, vol . 19,PP.211 -44 .

Leslau, W . (1957) Arabic Loanwords in Argobba , JAOS , vol . 77, PP,36-9 .

Witold Kazimierz Brzuski : Arabic Loanwords in Amharic connected with extiles , Leather products and Jewelry in African Bulletin No 35 – 1974 .

Witold Kazimierz Brzuski : Arabic Loanwords in the old and modern Amharic Language in African Bulletin No 35-1988 .

السيد المسيح وعجائب مريم العذراء ، وحياة القديسين والشهداء وعجائبهم ، كما تُرجمت كتب خاصة بخدمة القداس وطقوس العماد والدفن والصلوات والعظات وغير ذلك ، كما نقل الأحباش كتبًا في اللاهوت كانت قد دونت بالعربية ، كما تُرجم عن العربية إلى الجعزية أيضًا العديد من الكتب في القرن السابع عشر للدفاع عن المذهب اليعقوبي [١] ، واستمرت حركة الترجمة والنقل هذه فترة طويلة .

ونظرًا لأن الأحباش المسيحيين ظلوا قرونًا عديدة ينقلون آدابهم عن اللغة العربية كان طبيعيًا أن تؤثر اللغة العربية في لغة المترجمين إلى حد بعيد ، فقد ظهر في الكتب المترجمة إلى الحبشة أثر عربي واضح في كثير من العبارات والصيغ والألفاظ ، كما تظهر في هذه النصوص الحبشية عبارات أخذها المترجمون الأحباش بنصها كما هي في اللغة العربية ، ومن هذه الألفاظ : الحبس ، الحكيم ، المنار ، القارورة ، الوباء ، الخف ، الورد ، الجنين ، ضابط الكل ، الدر ، وغيرها من الألفاظ العربية [٢] .

وبدون شك فإن هذا يوضح مدى تأثر الأحباش المسيحيين بالثقافة القبطية العربية .

٣- كتابة اللغات الإثيوبية بالحرف العربي :

تمت كتابة كثير من اللغات المحلية الإثيوبية بالحرف العربي ، فقد تم كتابة اللغة الهررية ، وهي لغة يُتحدث بها في مدينة هرر في شرق إثيوبيا واسمها

(١) عابدين ، عبد المجيد ، بين الحبشة والعرب ، (ص٢٣١، ٢٣٣) .
(٢) المصدر السابق ، (ص٣٣٧) .

المحلي أدار Adare ، بالحرف العربي ، ومن ناحية أخرى فإن هذه اللغة على الرغم من أنها محاطة من جميع الجهات بلغة الجالا «الأورومو» والصومالي وهذه اللغات تركت أثرها في اللغة الهررية ، ولكن التأثير الكبير في مجال المفردات أحدثته اللغة العربية ، ويرجع ذلك إلى التأثير الإسلامي الطويل بها حيث تعتبر مدينة هرر أول مدينة إسلامية في إثيوبيا [١] .

كذلك كتب الصوماليون في الحبشة لغتهم بالحرف العربي ، كما أن متحدثي لغات العفر والبيجا من الجماعات البدوية المسلمة يفضلون استخدام العربية كلغة مكتوبة لهم [٢] ، كما استخدم الحرف العربي في كتابة اللغة الأورومية «لغة الجالا» حيث استعمل الحرف العربي منذ زمن بعيد في كتابة النصوص الدينية والأذكار والمدائح [٣] .

٤ـ كتابة مؤلفات العلماء الأحباش باللغة العربية :

ظهر العديد من العلماء والفقهاء من بين المسلمين الأحباش الذي نبغوا في العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وبلغوا فيها شأنًا كبيرًا ، حتى أنهم وضعوا العديد من المؤلفات بلغاتهم المحلية وباللغة العربية أيضًا ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ سيد فقيه زبير من ياجو (ت ١٤٤٢هـ) ، الذي وضع أربعين مقالة تعليقية عن الأجرومية ، وجمال الدين محمد من أنا Anna (ت ١٨٨٢هـ) والذي وضع كتابًا كاملًا في الفقه بعنوان «كفاية الطالبين في معرفة مهمات

(1) Ullendorff , E . The Ethiopians , P.130.

(2) Hess , Robert , Ethiopians , The modernization of Autocracy , PP. 18-19 .

(٣) محمد حسن مكي ، الأورومو «الجالا» دراسة تحليلية ، (ص٩٠) .

الدين» ، والشيخ إبراهيم عبد الرازق الذي ألف تعليقات على ألفية بن مالك ، والشيخ جوهر بن حيدر من شونقي والذي وضع كتابًا في الفقه بعنوان «عناية الطالبين» ، كما كتب الشيخ محمد أمان من داري تعليقًا على الأجرومية بعنوان «المقاصد الوافية في شرح الأجرومية»[1] .

ومن العلماء المشهورين أيضًا الشيخ حسن بن حبيب الحنفي الجبرتي من والو وله مؤلفات ومصنفات كثيرة منها تفسير القرآن الكريم «شرح وقاية الرواية» ، «شرح كنز الدقائق» ، «شرح مختصر القدوري» ، «شرح تحفة الملوك الذي سماه بمنهج السلوك» ، وله تصنيفات وشروح أخرى كثيرة[2] .

الوضع الحالي للغة العربية في إثيوبيا :

تعرفنا في الصفحات السابقة على مراحل انتشار اللغة العربية في إثيوبيا ، وعوامل هذا الانتشار ومظاهره ورأينا إلى أي مدى وصلت اللغة العربية من مكانة وانتشار في إثيوبيا ، إلا أن اللغة العربية في إثيوبيا تعرضت إلى هزات متعددة ومعوقات كبيرة أدت إلى تراجع هذه المكانة وانحسار ذلك الانتشار ، ورغم ذلك فما تزال اللغة العربية تحتفظ بمكانة ووضع متميز في إثيوبيا ، ولا زال لها نوعًا من التواجد على الساحة الإثيوبية وذلك على النحو التالي :

١ـ اللغة العربية لغة دين :

لا تزال اللغة العربية هي اللغة الدينية لمسلمي إثيوبيا ، فعدد المسلمين الكبير لا يزال من أهم عوالم استقرار وثبات اللغة العربية هناك ، وتعد اللغة العربية لغة مقدسة بالنسبة لمسلمي إثيوبيا فهي لغة القرآن الكريم وهي اللغة

---

(1) Ahmed Hussein , Traditional Muslim Education in Wallo , P.101.

(٢) إبراهيم ، عبد العزيز عبد الغني ، أهل بلال ، (ص٨٥) .

المستخدمة في إقامة الشعائر الدينية ؛ لذا فإن معرفة اللغة العربية لا تزال ملازمة لحفظ القرآن الكريم وفهمه وضرورة لفهم واستيعاب تعاليم الإسلام من مصادره الأساسية ، ويشير فيرجسون إلى هذا الدور الذي تلعبه اللغة العربية في إثيوبيا ، فيذكر أن أي مسلم ـ بصرف النظر عن لغته الأم ـ لابد له من الإلمام ببعض العبارات العربية مثل الشهادتين : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » ، أو عبارة التحية : «السلام عليكم» ، أو البسملة أو غيرها ، كما يجب عليه حفظ الفاتحة وبعض الآيات القرآنية باللغة العربية حتى يستطيع أن يؤدي صلاته ، ومن أراد أن يزداد تفقهًا في شؤون دينه فعليه أن يزداد علمًا باللغة العربية ليطلع على المؤلفات الدينية المختلفة من كتب الفقه والشروح والتفاسير وكتب الحديث ... إلخ ؛ ولذا نجد أن الأفراد يختلفون في مدى إلمامهم وإتقانهم للغة العربية فمنهم من يفهما ويتحدثها بشكل تام ويستطيع استخدامها في الحياة اليومية ، ومنهم من يستطيع تلاوة القرآن الكريم والحديث في الأمور الدينية ويمكنه فهم الخطب باللغة العربية لكنه لا يستطيع استخدامها في حياته اليومية ، ومنهم من تقتصر معرفته بها على إقامة الشعائر الدينية فقط ، ويتوقف كل ذلك على مقدار ما تعلمه من اللغة العربية ؛ في المساجد أو في المدارس الإسلامية التي يتم فيها تعليم اللغة العربية [١] .

٢ـ اللغة العربية لغة تعامل :

تعد اللغة العربية إحدى أهم لغات التعامل في إثيوبيا ، حيث تعتبر اللغة العربية واللغة الأمهرية من لغات التعامل والاتصال واسعة الانتشار في إثيوبيا [٢] ، وتظهر هذه الأهمية بشكل خاص بين مسلمي إثيوبيا الذين

---

(1) Arabic in Ethiopia , P. 119- 120 Ferguson , C.A , The Role of .
(2) Bender , M.L. , Language in Ethiopia , P.12.

يتحدثون لغات مختلفة ، حيث تعد العربية وسيلة التفاهم المشتركة بينهم جميعًا .

وللعربية وجود واضح في المدن الإسلامية مثل هرر وجيما وعروسي وغيرها من المدن الإسلامية بإثيوبيا ، ويجب هنا أن نشير أنه من النادر أن تجد من الإثيوبيين غير المسلمين من يتحدث اللغة العربية كلغة تعامل ، فهي مرتبطة إلى حد كبير بالأقاليم والجماعات المسلمة في إثيوبيا ، واللغة العربية المستخدمة في الحديث في إثيوبيا تميل إلى اللهجة اليمنية أو السودانية ولكنها تتأثر أحيانًا باللهجات المحلية ، كما أن هناك عددًا من المسلمين الذين تأثروا باللغة العربية الفصحى نتيجة لدراستهم لها في المدارس أو المساجد أو عن طريق الإذاعة أو القراءة فاستخدموها في معاملاتهم [1] .

ولا تزال اللغة العربية مفهومة في الأسواق الإثيوبية بشكل كبير ، حيث أدت سيطرة العرب القديمة على التجارة الإثيوبية إلى انتقال كثير من المفردات العربية في هذا المجال والتي لا تزال موجودة حتى الآن ، إلا أن وضع اللغة العربية كلغة تعامل أخذ في التراجع أمام سيادة اللغة الأمهرية من ناحية ، وأمام التقدم والانتشار الكبير للغة الإنجليزية من ناحية أخرى .

٣ـ اللغة العربية في وسائل الإعلام الإثيوبية :

تتمتع اللغة العربية بوجود ملحوظ على الساحة الإعلامية الإثيوبية ، فالإذاعة الإثيوبية تُخصص يوميًا ساعة من إرسالها تقدم باللغة العربية ، وتتناول هذه الفترة الأخبار المحلية والعالمية ، كما تتضمن بعض البرامج والأغاني العربية .

---

(1) Arabic in Ethiopia , P.120-121 Ferguson , C.A , The Role of .

كما تصدر عدة صحف إثيوبية باللغة العربية ومن هذه الصحف صحيفة «العلم»، ويزيد عمر هذه الصحيفة عن نصف قرن، وتصدر في أديس أبابا ولم تتوقف عن الصدور منذ نشأتها في عام ١٩٤٢م وحتى الآن، و«العلم» صحيفة حكومية تصدر عن وزارة الإعلام الإثيوبية والهدف من إصدارها إعلام الشعوب العربية والمجتمع الدولي بالنشاطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لإثيوبيا، بالإضافة إلى تعزيز العلاقات الثنائية بين إثيوبيا وبلدان العالم العربي المجاورة [١] .

وهناك أيضًا بعض الصحف والمجلات العربية والإسلامية التي تصدر في إثيوبيا مثل مجلة «بلال» وهي مجلة إسلامية شهرية تعكس وجهة النظر الإسلامية والمجتمع في إثيوبيا، وكذلك تصدر مجلة «الرسالة» وهي مجلة إسلامية تصدرها جمعية إسلامية باللغة العربية واللغة الأمهرية، وكان المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية قد أصدر صحيفة نصف شهرية باللغة العربية والأمهرية، إلا أنها توقفت عن الصدور لأسباب مالية [٢] .

وبدون شك فإن صدور مثل هذه الصحف يدل دلالة واضحة على أن اللغة العربية في إثيوبيا لها أرضية وخلفية ثابتة بحكم ذلك العدد الهائل من المسلمين وبحكم الجوار العربي .

٤ـ اللغة العربية في التعليم الإثيوبي :

نظرًا لأهمية الحديث عن وضع اللغة العربية في نظام التعليم الإثيوبي فإننا

---

(١) يلي، صادق، أديس أبابا زهرة إثيوبيا الجديدة، (ص٥٠، ٥١) .

(٢) المصدر السابق، (ص٥٢) .

سوف نتناوله بشيء من التفصيل .

لو أردنا أن نرصد تعليم اللغة العربية في إثيوبيا ، فإننا يجب أن نشير في البداية إلى أن إثيوبيا بها نوعين من التعليم :

١ـ تعليم حكومي .

٢ـ تعليم غير حكومي «محلي ـ خاص» .

وتجدر الإشارة إلى أنه لا يتم تدريس اللغة العربية في أية مرحلة من مراحل التعليم الحكومي ، أما في التعليم غير الحكومي فنجد أن اللغة العربية يتم تعليمها وتدريسها بشكل كبير ، حيث يتم تدريس اللغة العربية في المدارس القرآنية التقليدية وكذلك في بعض المدارس الإسلامية الخاصة محدودة الانتشار ، ويلاحظ أن الهدف من تعليم اللغة العربية في إثيوبيا يختلف من منطقة إلى أخرى ، ففي المناطق الريفية أو المناطق البدوية نجد أن الهدف ديني وثقافي في المقام الأول ، حيث يتم التعليم من أجل تمكين الأطفال من قراءة وتلاوة القرآن الكريم والنصوص الدينية الأخرى المكتوبة بالعربية ، أما في المناطق الأكثر تمدنًا فإن اللغة العربية تستخدم كلغة تعامل وكوسيلة اتصال على الأقل في المعاملات التجارية وفي تدوين الحسابات أو كتابة العقود وما شابه ذلك [1] ؛ لذلك نجد أن مستوى إلمام الإثيوبيين المسلمين باللغة العربية يختلف من منطقة إلى أخرى .

ويتم تدريس اللغة العربية في مدارس تسمى «المدارس القرآنية» وهي مدارس أهلية لا تخضع لإشراف الحكومة ولا تحظى باعترافها ، وهي مدارس

(1) Bender , M.L. , Language in Ethiopia , P. 350.

بدائية إلى حد كبير ، وتنقسم الدراسة في هذه المدارس إلى مرحلتين هما :

أولا : مرحلة التهجي Tehaji :

تشبه هذه المرحلة إلى حد بعيد نظام التعليم الديني الذي كان قائمًا في كثير من البلاد العربية والإسلامية والذي يعرف في مصر ، على سبيل المثال باسم «الكُتَّاب» والذي لا تزال آثاره باقية حتى الآن في بعض القرى المصرية ، وكلمة «تهجي» كما هو واضح كلمة ذات أصل عربي [1] ، وهذه المرحلة لها هدفان أساسيان هما :

١ـ تعليم الحروف العربية .

٢ـ قراءة القرآن الكريم .

ولتحقيق هذين الهدفين لابد أن يمر الطالب بعدة خطوات ، ففي البداية يجب عليه أن يتعلم الحروف العربية ، ويبدأ الطلاب في حفظ هذه الحروف فتكتب على ألواح خشبية ويقوم المعلم أو أحد التلاميذ القدامى بقراءتها ويظل الطفل يرددها حتى يحفظها عن ظهر قلب ، والخطوة التالية يتعلم فيها الأطفال النقاط التي توضع فوق الحروف أو أسفلها أو داخلها ثم يتعلم الطفل النطق الصحيح للحروف ، حيث يتعلم علامات الشكل الأربعة «الفتحة ، الكسرة ، الضمة ، السكون» ، ثم يتعرف الطالب على أصوات المد (أ ، و ، ي) ، وتعد هذه الخطوة خطوة هامة جدًا بالنسبة للأطفال ، حيث إن اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية بالنسبة لهم ، وهم لن يستطيعوا أن يقرؤوا أو

---

(١) تختلف تسمية مرحلة «التهجي» من منطقة إلى أخرى داخل إثيوبيا ، فبينما تعرف باسم «التهجي» في والو وإيفات ، نجد أنها تسمى «مجلس قرآن» Mejilis Qortan في مدينة هرر وجيجا وإقليم عروسي ، في حين تعرف باسم مدارس «الشيخ» Sheikhy في معظم المراكز المتمدنة .

يكتبوا دون معرفة هذه الحركات كما يفعل أبناء العربية ، بالإضافة إلى أن الهدف الرئيس من تعلم اللغة العربية في هذه المرحلة هو قراءة القرآن الكريم المكتوب مصحوبًا بالحركات ، وبعد ذلك يتعلم الطلاب كيفية الربط بين الحروف وكيفية قراءتها وكتابتها مجمعة [١] .

وبعد ذلك يبدأ الطلاب في التدرب على قراءة الآيات القرآنية ويتم ذلك بطريقة التهجي ، وربما اكتسبت هذه المرحلة تسميتها من هذه العملية ، فنجد أن الطالب يبدأ بنطق الحروف والحركات واحدة تلو الأخرى ثم يقرأها بعد ذلك سويًا ، فيبدأ بتحديد الحرف الأول من الكلمة ثم يحدد الحركة وبعد ذلك يتم نطق الصوت الناتج عن اتحادهما معًا ، ويتكرر هذا بالنسبة للحرف الثاني والثالث حتى تنتهي حروف الكلمة وعندئذٍ ينطق الكلمة ذاتها كلها دفعة واحدة .

وبعد فترة من التدريب يبدأ الطفل في حفظ سور وأجزاء القرآن الكريم حتى يتم حفظه ، وبعض الطلاب يتمكنون من حفظ القرآن الكريم كاملًا بينما تكتفي غالبية الطلاب بحفظ عدة أجزاء منه فقط ومن ثمَّ يتوقفون عن الذهاب إلى المدرسة وبذلك يصل تعليما لطفل إلى نهايته في هذه المرحلة [٢] .

ثانيا : المدارس العالية «علم» Ilm :

بعد أن يُنهى الطلاب مرحلة التهجي فإن الكثيرين منهم ـ وخاصة الذين يسكنون المناطق الريفية والبدوية ـ يتوقفون عن مواصلة الدراسة ويكتفون بما حصَّلوه من معرفة ، أما الطلاب الذين يريدون مواصلة دراستهم فإنهم

---

(1) Ahmed Hussein , Traditional Muslim Education in Wallo , P. 99.

(2) Bender , M.L. , Language in Ethiopia , P. 352.

يلتحقون بالمدارس الإسلامية العالية التي تسمى «علم» ، وفي هذه المرحلة يتم دراسة مكثفة للفقه الإسلامي كما يتم أيضًا تدريس علم التوحيد والتفسير والحديث ، وكذلك تتم دراسة علم المنطق .

وحتى يتمكن الطلاب من دراسة وتحصيل هذه العلوم فلابد لهم من دراسة النحو العربي وقواعد العربية ، ويعد النحو من أهم العلوم اللغوية التي يتم تدريسها في هذه المرحلة ، ومن الكتب التي تدرس في هذا الفرع «الأجرومية» و«مطالعة العرب» و«ألفية بن مالك» و«المجيب» و« المغني اللبيب » ، كذلك هناك علوم لغوية أخرى يتم تدريسها مثل الصرف والعروض والبيان والبديع والبلاغة (١) .

وإذا كان معظم الطلاب في المناطق الريفية والبدوية يكتفون بالمرحلة الأولى ، فإنه في المناطق المتمدنة ـ حيث يعمل أغلب المسلمين بالتجارة ـ فإن القليل منهم يكرسون أوقاتهم لدراسة رسمية كهذه فمعظمهم يتعلمون شيئًا من التفسير أو الفقه وغيره من العلوم الدينية الإسلامية أثناء أوقات فراغهم في المساء حيث يذهبون إلى المسجد ويستمعون إلى الدروس التي تلقى هناك (٢) .

ونظرًا لأن المدارس القرآنية التي أشرنا إليها سابقًا والتي تقوم بتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم لا تفي بمتطلبات العصر الحديث ، حيث إنها لا تدرس المواد الحديثة المختلفة «تاريخ ـ جغرافيا ـ كيمياء ـ لغة إنجليزية .... إلخ» ، كما أنها لا تعلم الأطفال قراءة وكتابة اللغة الأمهرية لغة الدولة

---

(1) Ahmed Hussein , Traditional Muslim Education in Wallo , P. 100 - 1001.

(2) Bender , M.L. , Language in Ethiopia , P. 353.

الرسمية ؛ لذلك أخذت هذه المدارس في فقد الكثير من أهميتها ولم يعد لها مكان في نظام التعليم الحديث .

لذا أصبح من الواجب إيجاد موائمة بين المدارس القرآنية والمدارس الحديثة في المناطق ذات الكثافة المسلمة ، ومن أجل هذا ظهرت المدارس الخاصة التي تعرف باسم «مدرسة» Madrasa وهذه المدارس عادة ما تقوم بتعليم اللغة العربية وقراءة القرآن الكريم بالإضافة إلى أنها تتبع منهج ومقررات وزارة التعليم ، وهذا النوع من المدارس ينتشر إلى حد ما سواء في القرى الصغيرة أو في المدن الكبرى حيث توجد ست مدارس منها في مدينة هرر ، وعشرين مدرسة في ديرداو ، وعشرة مدارس في أديس أبابا ، وأعداد صغيرة أخرى في غيرها من المدن [1] ، لكن يؤخذ على هذه المدارس ازدحام المناهج ؛ لأن الطلاب في هذه المدارس يجب أن يتعلموا اللغة العربية والقرآن الكريم بالإضافة إلى تعلم اللغة الأمهرية واللغة الإنجليزية إلى جانب المواد الأخرى التي تدرس في المدارس الابتدائية العادية ، كذلك يؤخذ على هذه المدارس أنها عادة لا تقدم برنامجًا تعليميًا كاملًا ، ونتيجة لذلك فإن العادة السائدة هي أن يترك التلاميذ هذه المدارس في الصف الثالث أو الرابع ويلتحقون بمدارس أخرى من أجل تعليم أفضل وفرص أكبر لاجتياز هذه المرحلة للوصول إلى المرحلة الثانوية .

وبالإضافة إلى هذين النوعين من المدارس التي تقوم بتعليم اللغة العربية «المدارس القرآنية ، المدارس الإسلامية الخاصة» نجد نوعًا ثالثًا من المدارس

---

(1) Ibid , P.360.

وهي المدارس الخاصة بالجاليات العربية والإسلامية في إثيوبيا ، وهذه المدارس تابعة لبعض الدول أو الأفراد من العرب والمسلمين وتقوم بتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي بالإضافة إلى المواد الأخرى .

وهذه المدارس ذات مستوى تعليمي أفضل وتتمتع بإمكانيات تعليمية أكثر تقدمًا ؛ لذلك تجد هذه المدارس قبولًا كثيرًا من مسلمي إثيوبيا .

أسباب انحسار وتراجع اللغة العربية في إثيوبيا :

عندما نطالع الوضع الذي وصلت إليه اللغة العربية في إثيوبيا ونرى مدى التراجع والانحسار الذي ألم بها يتبادر إلى أذهاننا تساؤل عن الأسباب التي أدت إلى ذلك الوضع ، وللإجابة على هذا التساؤل نجد عدة أسباب تضافرت سويًا وأدت إلى ذلك التراجع ، ويأتي على رأس هذه الأسباب تأثير اللغات الأوروبية والاستعمار ، فبداية من القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين حاول الاستعمار الأوروبي الذي بسط سيطرته ونفوذه على غالبية دول القارة ، الحيلولة دون تغلغل وانتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، وبدأ الصراع بين الثقافتين العربية والأوروبية ، وكان محل التنازع اللغة وسيلة نقل الثقافة [١] .

وقد عمل الاستعمار الأوروبي على الامتداد اللغوي والثقافي والفكري في دول القارة ، فانتشرت اللغات الأوروبية في دول القارة بشكل كبير ، وحظيت اللغة الفرنسية بانتشار كبير في إفريقيا حيث توجد أربعة وعشرين دولة إفريقيا تنتشر بها الفرنسية ، حيث تعد اللغة الفرنسية اللغة الرسمية بجانب لغة أو

---

(١) سليم ، رجاء إبراهيم ، التبادل الطلابي بين مصر والدول الإفريقية في الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٨٥ ، (ص٢٤) .

لغتين في الدول التي كانت مستعمرات فرنسية ، كما انتشرت اللغة الإنجليزية أيضًا حيث توجد إحدى وعشرون دولة إفريقية تعتبر اللغة الإنجليزية فيها أكثر اللغات انتشارًا وبعض الدول اتخذتها كلغة رسمية لها ، كذلك انتشرت اللغة الأسبانية واللغة البرتغالية في المستعمرات التي كانت تابعة لها (١) .

وإذا كان الاحتلال الإيطالي لإثيوبيا لم يؤد إلى نشر اللغة الإيطالية بها على نطاق واسع ، نظرًا لقصر الفترة التي قضاها فيها ، ولم تتح له الفرصة لهذا التأثير الكبير ، إلا أن الإيطاليين قد تركوا أثرًا بالغًا غير هين ، حيث انتشرت اللغة الإيطالية بين عدد من سكان إثيوبيا واستعملت الإيطالية كلغة تعامل وخاصة في مجال العمل والصناعة (٢) ، ولم تكن إيطاليا وحدها هي التي لعبت دورًا في نشر اللغات الأوروبية في إثيوبيا فقد سبقها في هذا المجال البرتغاليون ، كما أن ظروف إثيوبيا السياسية أدت إلى تدخل قوى أجنبية أخرى وخاصة الإنجليز والفرنسيين ، وكل قوة من هذه القوى عملت على نشر اللغات الأوروبية ، كل حسب توجهه ، وكان كل ذلك على حساب اللغة العربية .

وقد لجأت القوى الاستعمارية إلى وسائل مختلفة لتحقيق أهدافها ومن أهم هذه الوسائل :

١ـ إطلاق يد البعثات التنصيرية وتخصيص الإمكانيات الكبيرة لها ، وترجمة الإنجيل إلى كل اللغات الإفريقية المحلية ، فتمت ترجمة الإنجيل إلى لغات إثيوبيا المحلية المختلفة ، فتُرجم إلى الأمهرية والأورومية والتيجرينية وغيرها من اللغات المحلية الأخرى .

---

(١) المصدر السابق ، (ص٢٩، ٣٠) .

(2) Bender , M.L. , Language in Ethiopia , P. 171.

٢ـ محاولة تشويه صورة العلاقات العربية الإثيوبية من ناحية والعلاقات المسيحية الإسلامية في إثيوبيا من ناحية أخرى ، وذلك عن طريق إظهار العرب على أنهم تجار رقيق ومستعمرون ، والعمل على إحياء نزعة التعصب الديني بين مسلمي ومسيحي إثيوبيا بالإضافة إلى إهمال المسلمين وحرمانهم من فرص التعليم وفرص العمل المناسبة مما أدى إلى تأخرهم وتخلفهم .

٣ـ تعطيل كتابة اللغات الإثيوبية التي كانت تكتب بالحرف العربي ، واستبدال ذلك بالحرف اللاتيني ، فتم التوسع في كتابة اللغات الإثيوبية التي كانت تكتب بالحرف العربي واستبدالها بالحرف اللاتيني كما حدث مع اللغة الصومالية في إثيوبيا ولغة الأورمو ، وكتابة هذه اللغات بالحرف اللاتيني يعني ربط هؤلاء الأقوام بالثقافة الغربية من ناحية وفصل الإثيوبيين عن تراثهم المسجل بالحرف العربي وعزلهم عن ماضيهم من ناحية أخرى .

٤ـ فرض اللغات الأوروبية كلغات تعليم في المدارس الحكومية ، وكان الهدف من ذلك القضاء على اللغة العربية نهائيًا وإبدالها باللغات الأوروبية ، وبالفعل تم ذلك في إثيوبيا حينما تم إقرار اللغة الإنجليزية كلغة للتعليم الحكومي في المرحلة الثانوية والتعليم العالي [١] .

كذلك ساعدت السياسة اللغوية في إثيوبيا على سحب البساط من تحت أقدام اللغة العربية مما أدى إلى انحسارها ، ذلك أنه تم منع استخدام اللغة العربية في المدارس الحكومية ، كما صدرت مراسيم يحرم فيها استعمال اللغة

---

(١) سليم ، رجاء إبراهيم ، التبادل الطلابي بين مصر والدول الإفريقية في الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٨٥ ، (ص٣٠، ٣١) .

العربية في المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين [١] ، وكذلك تم فرض اللغة الأمهرية كلغة للتعليم في المرحلة الأولى وفرض اللغة الإنجليزية كلغة للتعليم الحكومي في المرحلة الثانوية والتعليم الجامعي ، مما أدى إلى تقليص المساحة التي كانت تحتلها اللغة العربية في كل أنحاء إثيوبيا وذلك بعد أن كانت لغة العلم والثقافة .

والحقيقة أننا لا يجب أن نلقي بالمسؤولية الكاملة لانحسار اللغة العربية في إثيوبيا على كاهل الاستعمار الأوروبي والسياسة اللغوية التي أُتبعت في إثيوبيا ، وإن كانا قد لعبا دورًا كبيرًا في هذا الجانب ، ولكن هناك عامل آخر له أهمية كبيرة وهو الوضع الحضاري والثقافي للعرب ، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتقدم وتُرسخ أقدامها في إفريقيا كلها كان العرب في حالة من التأخر والتخلف الحضاري ، وقد أثر ذلك بشكل كبير على الدور الثقافي للعرب في هذه المنطقة ، كما أدى إلى فقدان الكثير من الأرض التي كانت اللغة العربية قد كسبتها في الماضي ، وخلاصة الأمر أن انتشار اللغات وتقدمها أمر مرهون بتقدم أصحابها وتفوقهم .

*****

(١) العبودي ، محمد بن ناصر ، في إفريقية الخضراء ، (ص١٥٩) .

الخاتمة

بداية يجب أن نلاحظ أن إثيوبيا بها أرضية خصبة لنشر اللغة العربية ، وذلك لكثرة عدد المسلمين بها وغالبية هؤلاء المسلمين شغوفون وفي حاجة لمعرفة شؤون دينهم ، الأمر الذي لن يتحقق إلا بمعرفة ولو جزئية باللغة العربية ؛ لذلك فإن عامل الإقبال على تعلم اللغة العربية موجود بالفعل ولا يحتاج سوى تفعيل واستثارة فقط ، ولكننا نلاحظ أيضًا أن هناك أمرًا قد يعوق ذلك الإقبال وهو ارتباط مصلحة الأفراد بتعلم اللغات الأوروبية ، حيث إنها تتيح فرص أكبر للوصول إلى الوظائف الرفيعة في المجتمع ، في حين ارتبطت اللغة العربية بالماضي ويُنظر إليها كلغة دينية يقتصر دورها على إقامة الطقوس والشعائر الدينية فقط ؛ لذلك لابد من وجود الحافز الذي يشجع الإثيوبيين على تعلم اللغة العربية وذلك بأن تُخصص لهم المنح الدراسية في الجامعات العربية والإسلامية على أن تكون هذه المنح في مختلف التخصصات وليست مقصورة على العلوم اللغوية والدينية فقط .

كما يجب أن يزداد نشاط نشر الثقافة العربية في إثيوبيا عن طريق إيجاد مدارس عربية إسلامية ذات مستوى مرتفع ؛ لأن المستوى المتواضع للمدارس الإسلامية في إثيوبيا لا يؤهل طلابها لمستوى علمي متقدم ؛ لذلك يجب إيجاد نوع من التنسيق بين الجهود العربية والإسلامية وبين مسلمي إثيوبيا لإيجاد نوع من التعليم يضمن الحفاظ على الهوية الإسلامية لمسلمي إثيوبيا ويساعد على نشر اللغة والثقافة العربية من جهة ثانية ، ويخرج طلابًا على مستوى علمي لائق من جهة ثالثة .

كما يجب تزويد الإثيوبيين بالكتب العربية المتطورة ، وإمدادهم بالمدرسين ذوي المستوى العلمي الجيد ، كذلك يمكن افتتاح مراكز ثقافية عربية في إثيوبيا على غرار المراكز الثقافية الأوروبية والأمريكية ، وقد تبدو هذه الاقتراحات مكلفة ماديًا إلا أن ذلك يُعد أفضل استثمار للمال العربي والإسلامي ؛ لأن هذا الاستثمار هو استثمار للعقول وهذا الجهد والمال لن يذهب سدى لو استطعنا استثماره جيدًا .

وفي النهاية يمكننا أن نقول باختصار : إن هناك صراعًا حضاريًا ثقافيًا بين الحضارة العربية الإسلامية من جهة وبين الحضارة الأوروبية الأمريكية من جهة أخرى وهو صراع مشروع والمنتصر فيه هو من تستطيع حضارته وثقافته وقيمه أن تستوعب الحضارات والثقافات الإفريقية وتضيف إليها بما يخدم الأفارقة أنفسهم .

*****

قائمة المراجع

أولا : المراجع العربية :

١ـ إبراهيم ، عبد العزيز عبد الغني(١٩٩٤) ، أهل بلال ، الطبعة الأولى ، الدار السودانية للكتب ، السودان .

٢ـ حجازي محمود فهمي «بدون تاريخ ، علم اللغة العربية ، مكتبة غريب ، القاهرة .

٣ـ حسن إبراهيم حسن (١٩٥٧) ، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة .

٤ـ الحيمي ، حسن أحمد (١٩٥٨) ، سيرة الحبشة ، القاهرة .

٥ـ سليم ، رجاء إبراهيم ، التبادل الطلابي بين مصر والدول الإفريقية في الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٨٥ ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، جامعة القاهرة .

٦ـ طرخان ، إبراهيم علي (١٩٥٩) ، الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن ، (ص٣ ـ ٦٨) ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة .

٧ـ عابدين ، عبد المجيد (١٩٤٩) ، بين الحبشة والعرب ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

٨ـ العبودي ، محمد بن ناصر «بدون تاريخ» ، في إفريقية الخضراء ، دار الثقافة ، القاهرة .

٩ـ غيث ، فتحي «بدون تاريخ» ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

١٠ـ محمد حسن مكي (١٩٨٧) ، الأورومو «الجالا» دراسة تحليلية ، في دراسات إفريقية ، (ص٨٧ ـ ١٠٨) ، المركز الإسلامي الإفريقي ، الخرطوم .

١١ـ محمود حسن أحمد (١٩٦٣) ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، القاهرة .

١٢ـ المهدي ، فايز محمد (١٩٩٠) ، الإذاعات المصرية الموجهة إلى شرقي أفريقيا ، المكتبة الثقافية (٤٦٣) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٣ـ يلي ، صادق (١٩٩٤) ، أديس أبابا زهرة إثيوبيا الجديدة ، في مجلة العربي ، عدد ٤٢٩ ، (ص٤٢ ـ ٥٧) ، وزارة الإعلام ، الكويت .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1- Ahmed Hussein(1988) , Traditional Muslim Education in Wallo I in proceeding of the Ninth international congress of Ethipoian studies . PP. 94- 106 . NAUKA publishers , MOSCOW .

2- Appleyard , David (1995) : colloquial Amharic , first published , Rutledge – New York .

3- Bender , M.L.(1976) , Language in Ethiopia , Oxford Press London .

4- Ferguson , C.A ,(1972): The Role of Arabic in Ethiopia .

5- Hess , Robert(1970) , Ethiopians , The modernization of Autocracy . first published , cornel University .

6- Ullendorf , E (1960) . The Ethiopians , an introduction to country and people , Oxford University London .

دور التعليم العربي الإسلامي في توفير الشروط اللازمة لتحقيق التنمية والتطور في أفريقيا

إعداد

د. عماد عواد (*)

مما لاشك فيه أن تحقيق التنمية والتطور يمثل الهدف الرئيس الذي تصبو القارة الأفريقية إلى تحقيقه ، في وقت تعددت فيه التساؤلات حول مستقبلها وموقعها في العالم ، في إطار نظام دولي جديد تتبلور معالمه تدريجيًا ، وإذا كانت موضوعات التنمية والتطور لم تكن تطرح نفسها بقوة في ظل نظام القطبية الثنائية ، الذي تحددت فيه مواقع الدول الأفريقية فرادى بناء على ارتباطاتها وتفاعلاتها مع مواقف القوتين العالميتين المتصارعتين آنذاك ، فإن تلك القضية عادت لتطرح نفسها بإلحاح مع تغير المعطيات على الساحة الدولية ، وضرورة تصحيح الدول الأفريقية لمساراتها للتعامل مع تحديات تم غض النظر عنها طوال عقود النظام الدولي المنهار الذي استند إلى نظرية «المباراة الصفرية» في كافة أرجاء المعمورة بما في ذلك القارة الأفريقية .

أولا : الإدراك القاري بحتمية مواجهة التحديات :

عكست مواثيق الاتحاد الإفريقي ، الذي حل محل منظمة الوحدة الأفريقية في مطلع القرن الحالي ، بشكل واضح اهتمامًا بالغًا بحتمية أخذ القارة بزمام المبادرة في مواجهة تحدياتها وصياغة مستقبلها ، فقد تضمن القانون التأسيسي للاتحاد النص على العديد من الأهداف من بينها : التعجيل بتكامل القارة

(*) السفير السابق بوزارة الخارجية .

السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، تهيئة الظروف اللازمة التي تمكن القارة من لعب دورها المناسب في الاقتصاد العالمي والمفاوضات الدولية ، تعزيز التنمية المستدامة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وكذلك تكامل الاقتصاديات الأفريقية ، تعزيز التعاون في جميع ميادين النشاط البشري لرفع مستوى معيشة الشعوب الأفريقية ، تنسيق ومواءمة السياسات بين المجموعات الاقتصادية الإقليمية القائمة والمستقبلية ، من أجل التحقيق التدريجي لأهداف الاتحاد والتعجيل بتنمية القارة عن طريق تعزيز البحث في كافة المجالات ، وخاصة مجالي العلم والتكنولوجيا [١] .

ومن جانبها ، أعدت المفوضية الأفريقية العديد من الأوراق المتعلقة برؤيتها للاتحاد ومهمة مفوضيته ، فضلًا عن إستراتيجية العمل المقترحة في الفترة من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٧ ، وقد تضمنت وثائق المفوضية الإشارة إلى أن النتائج التي يمكن استخلاصها تحليل الواقع الأفريقي وهي أن الاعتبارات الاجتماعية السياسية تمارس تأثيرًا كبيرًا على العملية الاقتصادية ، وتأسيسًا على ذلك ، فإن الفكرة التي تلقى تأييدًا واسعًا تتمثل في أن السلام هو الوجه الآخر للتنمية ، فمن المسلم به أن عملية التنمية والتطور تتطلب وجود حالة من الاستقرار والأمن يسمح بتكريس الموارد لمواجهة ذلك التحدي [٢] ، وقد كان ذلك الموضوع حاضرًا في أذهان رؤساء القارة وانعكس على ما تم إقراره من مستندات سواء تعلق الأمر بالبيان التأسيسي للاتحاد الأفريقي أو البروتوكول المنشئ لمجلس السلم والأمن التابع له ، حيث تم الإعراب عن القلق إزاء الانتشار المستمر للنزاعات المسلحة في إفريقيا وإزاء عدم إسهام أي عامل

---

(١) انظر المادة الثالثة من القانون التأسيسي للاتحاد الأفريقي WWW. Africa-union.org.

(2) Vision de I"union Africaine et mission de la commission de I"union Africaine project final ,23 fevrier 2004 pp WWW. Africa-union.org.

داخلي منفرد في التراجع الاجتماعي والاقتصادي للقارة وفي معاناة السكان المدنيين ، أكثر من إسهام كارثة النزاعات داخل الدول وفيما بينها ، كذلك عبر القادة الأفارقة عن إدراكهم أن تطوير المؤسسات والثقافة الديمقراطية القوية ، ومراعاة حقوق الإنسان وسيادة القانون وكذلك تنفيذ برامج الإنعاش وسياسات التنمية المستدامة في فترة ما بعد النزاعات ، أمر ضروري لتعزيز الأمن الجماعي والسلام والاستقرار الدائمين ، وكذلك منع النزاعات .

جددت المفوضية الأفريقية لنفسها إطارًا استراتيجيًا للعمل تضمن مجموعة من الأهداف خلال الفترة الممتدة من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٧ من بينها : تشجيع إقامة مجتمعات القانون ومواطنة أفريقية ، وتمثلت الاستراتيجيات المقترحة لتحقيق ذلك الهدف في توسيع وتفعيل آليات منع المنازعات والإنذار المبكر ، تشجيع الحكم الرشيد والديمقراطية ومحاربة ظاهرة الإفلات من العقوبة ؛ مكافحة الفساد والاتجار بالمخدرات وغسيل الأموال ، تشجيع السلام culture de la paix، غرس واجب حماية الإنسانية ، مكافحة ظاهرة انتشار الأسلحة الخفيفة ، التصدي لاستخدام الأطفال كجنود ، مكافحة ظاهرتي المرتزقة والإرهاب ، العمل على تنفيذ الاتفاقيات الداعية إلى جعل أفريقيا منطقة خالية من الألغام المضادة للأشخاص وأسلحة الدمار الشامل [1] .

ثانيا : دور التعليم العربي الإسلامي في توفير المناخ الملائم لتحقيق التنمية والتطور :

تتمثل المقولة الرئيسية للدراسة في أن تحقيق التنمية والتطور في أفريقيا

---

(1) cadre straategique de la commission de I"union WWW. Africa-union.org Africaine : 2004 – 2007 .

أو بعبارة أخرى إعادة تحديد وتعريف موقع القارة الأفريقية في العالم ، يتطلب في المقام الأول قيام الجسد الأفريقي بالتخلص من العلل والأمراض التي تفشت فيه ، وفي هذا الصدد لا تقتصر المسؤولية على الأوساط الحاكمة فقط ، وإنما تمتد إلى الشعوب ومؤسسات المجتمع المدني والنخبة المثقفة ، ويعتبر التعليم أحد الميادين التي تتجاوز الحدود السياسية والتي يمكنها أن تكون عاملًا رئيسيًا في إرساء أسس قومية أفريقية قادرة على إعادة رسم موقع القارة في نظام دولي جديد ، ومما لا شك فيه أن التعليم العربي الإسلامي يدعو إلى لعب دورًا رائدًا في هذا المجال نظرًا لتعاظم حجم القطاعات الشعبية المسلمة في القارة من جانب ، وفي ضوء ما يشمله على مبادئ تدعو إلى العدالة والسلام والشورى والتكافل من جانب آخر ، وجاءت التغيرات التي شهدها العالم مع انهيار النظام الدولي الثنائي القطبية وبروز ملامح نظام دولي جديد لتضخم من حجم التحديات التي يلزم على المثقفين العرب المسلمين مواجهتها على الساحة الأفريقية ، وانطلاقًا من ذلك ، فإن الدراسة الحالية تسعى إلى تركيز الضوء على دور التعليم بصفة عامة ، والتعليم العربي الإسلامي بصفة خاصة ، في المساهمة في تحقيق الاستقرار والأمن بالقارة ، باعتبار ذلك الوجه الآخر للعملة، والشرط الضروري للوصول إلى تحقيق هدف التنمية والتطور ، وفي هذا المسعى ستركز الدراسة حول المجالات التي يمكن أن يلعب فيها التعليم دورًا مؤثرًا في تحقيق ذلك ، في إطار عملية تكاملية تتضافر فيها التوجيهات المعلن عنها من قبل القادة ، الأفارقة والتنظيم القاري الجديد [1] ، والجهود

---

(1) AWWAD (Emad) nouvelle doctrine et nouveau et conseil pour la paix et la securite en Afrique , Defense Nationale , paris , decembere 2003 , pp 19- 30 .

التي يمكن بذلها على مستوى الجامعات ومراكز البحوث العلمية ، عامة ، والعربية الإسلامية خاصة ، الناشطة في ربوعها .

المجال الأول : المساهمة في الوصول إلى تحقيق هدف الإنذار المبكر :

يعتبر المقترب الذاهب إلى تكثيف الجهود وإعطاء الأولوية للجانب الوقائي في التعامل مع ظاهرة النزاعات والصراعات من أكثر المقتربات جاذبية ، نظرًا لكونه أقل تكلفة من الناحية الإنسانية «تجنب المعاناة وانتهاكات حقوق الإنسان» والاقتصادية «تحاشي وقوع المواجهات العسكرية بما يرافقها من مظاهر التدمير والخراب وما يستتبعها من ضرورة إعادة الإعمار» ، والسياسية «عدم تشتيت النخبة السياسية بين معسكرات متصارعة» والتنموية «توجيه الموارد إلى تحقيق التنمية الاقتصادية بما يعنيه ذلك من انتفاء الصراع على الاستحواذ بالثروات وانقسام المجتمعات إلى فئة متميزة تستحوذ على الثروة وتمسك بزمام السلطة ، وأخرى معدومة تتطلع إلى نصيب أوفر من ثروات البلاد في إطار مفاهيم العدالة الاجتماعية والحكم الرشيد » .

من الناحية النظرية ، تثير مسألة تجنب وقوع المنازعات مجموعة من المفاهيم المتداخلة والمتشابكة من قبيل الإنذار المبكر Alerte precoce ، والدبلوماسية الوقائية Diplmatie preventive ، والدبلوماسية العلاجية Diplmatie curative ، وإذا كان كل من الدبلوماسية الوقائية وتلك العلاجية يتطلبان اتخاذ إجراءات محددة من قبل القيادات وصانعي القرار ، فإن الجامعات يمكنها أن تلعب دورًا مؤثرًا في الشق المتعلق بالإنذار المبكر .

بصفة عامة، يمكن القول: إن «الإنذار المبكر» يفترض وجود شبكة قادرة وفعالة على تركيز الأضواء على أوضاع الأزمات المرشحة للتطور إلى صراعات، استنادًا إلى مؤشرات يتم رصدها بطريقة عملية وترتكز على معلومات دقيقة ومحددة، وانطلاقًا من ذلك التعريف، تبرز مجموعة من التحديات على السطح لتكشف عن مدى الصعوبة العملية لتلك المهمة، وتتعلق أولى تلك التحديات بمدى إمكانية تحديد ـ بدرجة عالية من الدقة والتأكد ـ الأزمات في طور التكوين، من أجل الاستثمار المبكر للموارد اللازمة لمنع تفاقمها، كذلك يثار موضوع الحيادية في التعامل مع المعطيات، فضلًا عن الابتعاد عن تأثير وسائل الإعلام، وإمكانية خلق وعي جماعي بأهمية التعامل مع الأزمة الكامنة بشكل يحول دون تفاقمها وتطورها إلى صراع معلن يصعب السيطرة عليه.

ولعل كل تلك الإشكاليات مجتمعة كانت من بين الأسباب الرئيسية في إخفاق آلية منع المنازعات التي تم إقامتها في إطار منظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٩٣ في تحقيق هدفها الأول والرئيسي الذي قامت من أجله، ففي واقع الأمر، أقدم الأمين العام للمنظمة آنذاك على إنشاء وحدة خاصة بالإنذار المبكر، وتم البدء الفعلي في تأسيس «حجرة الموقف» وقدمت العديد من المنظمات الدولية المساعدات اللازمة، سواء في شكل معدات فنية أو دورات تدريبية في هذا الميدان، ومع ذلك تحولت تلك الوحدة ـ في واقع الأمر ـ إلى مجرد أداة لمتابعة ورصد تطورات الصراعات القائمة بالفعل، في حين لم يتم تسجيل تقرير واحد تم طرحه على الجهاز المركزي يسترعي الانتباه إلى صراعات محتملة أو في طور التكوين، ويتضمن توصيات حول طرق التعامل

معها ، انطلاقًا من نوعية المؤشرات المرصودة ودرجة حدتها .

اعتمدت الدورة العادية الأولى لمؤتمر الاتحاد الأفريقي (دوربان ٩ يوليو ٢٠٠٢) ، البروتوكول الخاص بإنشاء مجلس السلم والأمن التابع للاتحاد الأفريقي ، وقد أقر البروتوكول في مادته الثانية عشرة إنشاء نظام قاري للإنذار المبكر يتكون من مركز مراقبة ورصد ـ يعرف بغرفة الأوضاع ـ ويكون موقعه في الإدارة المعنية بإدارة النزاعات في الاتحاد ، ووحدات للمراقبة والرصد تابعة للآليات الإقليمية يتم ربطها بصورة مباشرة من خلال وسائل الاتصالات المناسبة بغرفة الأوضاع وتعمل على جمع البيانات ومعالجتها على مستواها ونقل تلك البيانات إلى غرفة الأوضاع .

رغبة في تسهيل الأداء الفعال لنظام الإنذار المبكر تضمن البروتوكول النص على أن تتعاون المفوضية الأفريقية كذلك مع الأمم المتحدة والوكالات التابعة لها والمنظمات الدولية الأخرى ذات الصلة ، ومع مراكز الأبحاث والمؤسسات الأكاديمية والمنظمات غير الحكومية [١] .

وفي هذا الخصوص تجدر الإشارة إلى النقاط التالية :

١ـ تتميز الجامعات ومراكز البحث العلمي بالصفة الحيادية والدقة العلمية في تعاملها مع المعلومات بشكل يبعدها عن التأثر بالاعتبارات السياسية أو الشخصية ، ويجعلها قادرة على عرض الموضوعات بشكل موضوعي استنادًا إلى طريق وأساليب بحثية محددة ، واستنادًا إلى ذلك فإنها تصبح في موضع متميز من حيث القدرة على تناول الصراعات المحتملة في مراحلها الأولى ،

(١) البند الثالث من المادة ١٢ من البروتوكول .

حيث يتعلق الأمر بـ«توترات» يتم تجاهلها في أغلب الأحيان ، في حين أنها مرشحة للتطور لتصبح صراعات دامية .

٢ـ إن الجامعات ومراكز البحث العلمي لا تقع تحت تأثير ضغوط وسائل الإعلام التي تقوم بالتركيز على الصراعات القائمة بالفعل على حساب الصراعات الكامنة والتي قد تتطور إلى صراعات أكثر حدة من تلك التي تستحوذ على اهتمام المنظمات الإقليمية والدولية في لحظة معينة ، في ضوء ضخامة عدد الضحايا من قتلى ولاجئين ومشردين .

٣ـ تعد الجامعات ومراكز البحث العلمي الأفريقية أكثر الجهات تأهيلًا للعب ذلك الدور نظرًا لقربها من موقع الأحداث وقدرتها على تفهم خلفياته التاريخية وتفاعلاته على أرض الواقع ، وفقًا للعادات والتقاليد السائدة في المنطقة موضع الاهتمام ، فضلًا عن قدرتها على فهم اللغات واللهجات المحلية التي قد يكون من السهل على أطراف الأزمة التعبير عن مواقفهم بها أكثر منه باستخدام اللغات الأجنبية ، بما يحمله في ذلك في طياته من مخاطر الترجمة غير الدقيقة وتحريف مضمون المطالب والمواقف .

٤ـ يمكن للجامعات ومراكز البحوث الأفريقية أن تفرض نفسها في هذا الميدان من خلال تناولها بشكل فوري وعلمي لبؤر التوتر في القارة ودق ناقوس الخطر في الوقت المناسب بشكل يجعل منها لاعبًا رئيسيًا في عملية الإنذار المبكر في القارة .

٥ـ إن الجامعات العربية والإسلامية ، في الدول التي تشيع فيها اللغة العربية والديانة الإسلامية ، تتمتع بميزة كبيرة من حيث قدرتها على تلمس الأزمات الكامنة في البلاد والتي يتم التعبير عنها من قبل فئات من بعض أو

كل شرائح الشعب ، بشكل يلفت الأنظار إليها بما يستتبعه ذلك من اتخاذ الإجراءات المناسبة للتعامل معها في مراحلها الأولى ، وتكمن أهمية ذلك في أن المنظمة القارية ممثلة في المفوضية الأفريقية لا يمكنها التعرف على كافة التطورات والتفاعلات التي تتم في أرجاء القارة المترامية ، فضلًا عن أنه في ضوء التركيز الواضح على اللغتين الإنجليزية والفرنسية في تعاملاتها ، فإنه من عملية رصد المؤشرات الدالة على الأزمات الكامنة في بعض المناطق التي تشيع فيها اللغة العربية قد تكون صعبة أو غير ممكنة .

وعلى صعيد آخر ، يلزم التركيز على دور مراكز البحوث داخل الجامعات الأفريقية في مجال الإنذار المبكر ، وفي هذا الإطار ، قد يكون من المفيد أن تنظر تلك الجامعات والمراكز في إقامة وحدات خاصة للتعامل مع تلك الموضوعات .

٦- أنه قد يكون من المجدي أن تأخذ الجامعة العربية والإسلامية في القارة الأفريقية بزمام المبادرة في هذا الصدد ، وألا تنتظر أن يُقدم الاتحاد الأفريقي على اتخاذ الخطوة الأولى من خلال عقد اجتماعات رسمية يخضع الجانب الأكبر منها إلى برامج معدة سلفًا ، كذلك تبرز أهمية تلك المبادرة في انشغال مفوضية المنظمة ومجلس السلم والأمن الأفريقي في تناول الصراعات والنزاعات القائمة بالفعل ، الأمر الذي لا يترك الكثير من الوقت والجهد للتعامل مع بؤر النزاعات الكامنة .

٧- يمكن للجامعات العربية والإسلامية تخصيص جانب من الدراسات العلمية التي تتم في إطارها إلى معالجة قضايا الصراعات والنزاعات في القارة بطريقة علمية تتضمن سيناريوهات للتسوية انطلاقًا من المعطيات الخاصة

بكل صراع ، وتتعاظم أهمية ذلك الدور في الدول الناطقة بالعربية أو تلك التي تنتشر فيها الديانة الإسلامية ، كذلك يمكن لتلك الجامعات خلق آلية دائمة للتنسيق بينها في ذلك المجال تستند إلى رابطة الجامعات الإسلامية ، التي قد تشكل حلقة وصل بين تلك المؤسسات ومؤسسات الاتحاد الأفريقي المعنية .

٨- يلزم على المثقفين العرب والمسلمين لعب دور فعال في الجهود المبذولة على المستوى القاري من أجل تحقيق التنمية وتوفير شروطها اللازمة ، وقد شكل المؤتمر الأول للمثقفين الأفارقة وفي الشتات الذي عقد في داكار ، السنغال في أكتوبر الماضي مدخلًا جديدًا يضع المثقفين والمفكرين في موقع متميز في الجهود الحثيثة للتوصل إلى تحقيق ذلك الهدف ، بل وقد ذهب رئيس المفوضية الإفريقية إلى المطالبة بإقامة تحالف بين القادة الأفارقة والمثقفين للعمل على تحقيق عملية النهضة في القارة .

المجال الثاني : السعي إلى إشاعة ثقافة السلام وتكريس مبادئ الحكم الرشيد :

مما لاشك فيه أن عدم احترام قواعد اللعبة الديمقراطية ، والافتقار إلى أسس الحكم الرشيد ، وانتهاك حقوق الإنسان ، من بين الأسباب الجوهرية الكامنة لاندلاع الصراعات ، ومن ثم من أبرز العقبات التي تقف حائلًا دون تحقيق الأمن والاستقرار ، وهما شرطان رئيسيان لتمكين القارة الأفريقية من تحقيق التنمية المستديمة والرفاهية لشعوبها ، ولم يغب عن الأمين العام للأمم المتحدة في تقريره المؤرخ في نيسان «أبريل» ١٩٩٨ حول أسباب النزاعات في أفريقيا التعرض لهذا البعد الهام ، حيث أشار إلى : « إن صعوبة العلاقات بين الدولة والمجتمع في أفريقيا ترجع في جانب كبير منها إلى الميراث السلطوي

للحكم الاستعماري ، فالدول الاستعمارية لم تكن تشجع التمثيل أو المشاركة ، حيث إنها لم تكن تحتاج كثيرًا إلى السعي وراء الشرعية السياسية ، وكثيرًا ما كانت النتيجة تتمثل في التشرذم الاجتماعي والسياسي ، وأحيانًا ضعف المجتمع المدني وتبعيته ، واستمر عدد من الدول الأفريقية يعتمد على أشكال حكم مركزية ذات طابع شخصي مفرط ، كما خضع بعضها لنسق من الفساد والقرارات التي تستند إلى أساس عرقي وانتهاكات حقوق الإنسان ، وبغض النظر عن إجراء انتخابات متعددة الأحزاب في غالبية البلدان الأفريقية ، فإنه لا يزال يتعين إنجاز ما هو أكثر من ذلك بكثير لتوفير بيئة يشعر فيها الفرد بالحماية ، ويتاح فيها للمجتمع المدني أن يزدهر ، وتضطلع فيها الحكومات بمسؤولياتها بفعالية وشفافية ، مع توفير الآليات المؤسسية الكافية لضمان المسائلة » .

وفي هذا السياق ، تقع على المؤسسات التعليمية العربية الإسلامية في أفريقيا مسؤوليات ضخمة تتعلق بقدرتها على نشر المبادئ والأسس المستمدة من القرآن الكريم فيما يتعلق بنظم الحكم ، والتي عكست في جوهرها مفاهيم العدالة والتسامح وعدم التمييز والنهي عن المنكر ، وهو ما يتم ترجمته بلغة العصر بالحكم الرشيد ، وفي هذا الخصوص ، تجدر الإشارة إلى ما أبرزه الدكتور محمد عبد العليم العدوي ، أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر ، من أن «المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يوفر العدالة المطلقة لجميع المواطنين ، بصرف النظر عن عقائدهم وأجناسهم وألوانهم ومواطنهم ، ويبلغ في هذه السمة ما لم يبلغه مجتمع آخر قديمًا أو حديثًا ، وعلى هذا المبدأ تتضافر النصوص التشريعية ، ويؤيدها الواقع

التاريخي ، فيتحدث الإسلام عن العدل فيقرر أنه العدل بين الناس : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨] ، ثم يتحدث عن الملابسات التي لا سبيل إلى تجاهلها في المجتمع ، ملابسات القرابة والصداقة ، وملابسات العداوة والشنآن ، فيدعو إلى نفيها من ساحة العدالة كي لا تفسدها : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢] ، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [المائدة:٨] ، وفي جوهر الأمر فإننا بصدد العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه الحب والبغض ، ولا تغير قواعده المودة والشنآن ، العدل الذي لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ، ولا بالتباغض بين الأقوام ، فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعًا ، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب ، ولا مال ولا جاه ، كما تتمتع به الأقوام الأخرى ، ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن ، وتلك قمة في العدل لا يبلغها أي قانون دولي إلى هذه اللحظة ، ولا أي قانون داخلي [(١)] .

المجال الثالث : بناء الإنسان الأفريقي ووضع أسس التعايش السلمي :

يمكن للمؤسسات التعليمية العربية الإسلامية لعب دور محوري في تشكيل سلوك الفرد في المجتمعات الأفريقية من خلال التنشئة على مبادئ أخلاقية تضمنها الدين الحنيف ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، كما أنها توضح أسلوب التعايش مع الآخرين بشكل يحمي حقوق الإنسان ومصالحه ويضمن سلامته الجسدية والعقلية ، على سبيل المثال ، يمكن الإشارة إلى أثر العلاقات الجنسية التي تجري خارج نطاق العلاقة الزوجية على انتشار مرض الإيدز في

---

(١) د. محمد عبد العليم العدوي ، الوحدة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة ، رابطة الجامعات الإسلامية ، سلسلة فكر المواجهة رقم (٩) ، دار البيان للطبع والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م ، (ص١٧٨ ، ١٧٩) .

ربوع القارة وبصفة خاصة في إفريقيا جنوب الصحراء ، حيث تضم القارة ٧٠٪ من إجمالي البالغين المصابين بمرض الإيدز و٨٠٪ من الأطفال المصابين به في العالم ، كذلك قدمت أفريقيا نسبة ٧٥٪ من إجمالي ٢٠ مليون شخص فارقوا الحياة بسبب ذلك المرض في العالم منذ بدء انتشار ذلك الوباء [(١)] .

كذلك يقدم الإسلام لأتباعه ، بل للبشرية كلها ، منهجًا إنسانيًا عادلًا رحيمًا ، وهو أقرب ما يكون للفطرة الإنسانية وأصدق ما يكون تقبلًا من العقل ، فضلًا عن جمعه للجانب المادي والمعنوي معًا ، وهو لا يحقر الأمور الدنيوية في سبيل الاعتماد على الروحانيات ولم يفعل العكس ، وفي نفس الوقت لم يضح بالفرد من أجل المجتمع ، ولا بالمجتمع من أجل الفرد ، وليس في الإسلام تناقض بين المثل العليا ، والواقع العملي للناس ، وفيه يلتقي الدين والعلم ، وميزة الإسلام أنه لم يفرض الحلول مقدمًا ، ولم يطبقها بالقسر والإكراه ، بل كانت تعاليمه متفاعلة دومًا مع طبيعة الفرد ومع بشريته ، وكانت وقاية من الأزمات والمشاكل قبل أن تكون حلولًا للأزمات والمشاكل ، ولقد اعترف الإسلام بحقوق الإنسان وميوله وعواطفه ، وجعل ضوابطه وحدوده في الأساس مستهدفة عدم استهلاك الإنسان لطاقته الجسدية ، وكانت الدعوة إلى الاعتدال والقصد دون الإسراف الذي يفضي إلى الانهيار ، ودون الجحود الذي يؤدي إلى الانحطاط .

ويقرر الإسلام مكانة الإنسان في الأرض ، ويؤكد حق استخلافه وأمانته ومسؤوليته الفردية ، والتزامه الأخلاقي الذي يستتبع البعث والجزاء ، ويؤكد الإسلام أهمية الإنسان كفرد وأهميته كفرد في مجتمع ، ويؤكد حاجته إلى التقدم

---

(1) Vision de I Union africaine op cit p 3 .

المستمر ؛ ولذلك فهو يحرر طاقاته كلها «فكرية ، وخلقية ، وعملية» ، لينطلق في سبيل خدمة تقدمه كإنسان ، وفي خدمة المجتمع ككل وفق ضوابط خاصة ، والحرية في مفهوم الإسلام هي تحرير العقل البشري من قيد الوثنية والجهل والخرافة والتقليد وتحرير الإنسان من قيد العبودية وسلطان الاستبداد والطغيان ، ومفهوم الأخلاق في الإسلام يقوم على أساس تلك القيم الثابتة الراسخة التي أثبت أجيال البشر جيلًا بعد جيل أنها مرتبطة بالإنسان ، وليست مرتبطة بالمجتمعات والعصور ، وقاعدة الأخلاق الأساسية أن الحق واحد ، وأنه لا يتعدد ، وأن أساس الأخلاق هو التمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، وأن مفهوم الأخلاق يحرر الإنسان والمجتمع من عبادة الجسد وتقديس الشهوة وتأليه الباطل [١] .

وعلى صعيد آخر ، يمكن للجامعات والمؤسسات التعليمية العربية الإسلامية أن تلعب دورًا كبيرًا في صهر المجتمعات الأفريقية المنقسمة إلى أعراق وقبائل وعشائر في بوتقة واحدة من خلال تلقين مبادئ المساواة والإخاء والعدالة في الإسلام ، ومن شأن ذلك العامل أن يساعد في تجنيب القارة للعديد من الصراعات التي تقوم على أسس عرقية أو قبائلية أو عشائرية ، وفضلًا عن ذلك ، فإنه من خلال الدور الذي تقوم به تلك الجامعات فإنها تغرس في نفوس الأجيال الجديدة تلك المفاهيم بشكل ينعكس على طريقة الأداء وأساليب التعامل في المجتمع من جانب وفي مواقع المسؤولية من جانب آخر ، وهكذا تلعب الجامعات العربية والإسلامية دورًا كبيرًا في تحقيق هدف إرساء ثقافة السلام والتفاهم في القارة الأفريقية .

---

(١) محمد عبد العليم العدوي (ص١٨٥ ـ ١٨٧) .

وأخيرًا يقع على الجامعات العربية والإسلامية في القارة ـ شأنها في ذلك شأن غيرها في بقاع العالم الإسلامي ـ مهمة المساهمة في تنفيذ مقررات مجمع الفقه الإسلامي بشأن حقوق الإنسان والعنف ، والتي أوصت بتشكيل لجنة من أهل الذكر لوضع ميثاق إسلامي يبين في جلاء التصور الإسلامي للعلاقة مع غير المسلمين وترجمة هذا الميثاق إلى اللغات الأجنبية مع نشره بمختلف وسائل الإعلام المعاصرة ، بشكل يدحض كثير من المفتريات ويوضح الحقائق الإسلامية لغير المسلمين [١] .

ولا يقتصر دور تلك الجامعات على المساهمة في إعداد ذلك الميثاق ، وإنما في توضيح ونشر معالمه الرئيسية في المجتمعات المتواجدة بها ، ومن شأن ذلك إشاعة روح التعايش السلمي بين المجتمعات الإسلامية وغيرها ، وتجنب الاحتكاكات والصراعات التي يمكن أن تنشأ على أسس دينية والتي قد تحمل في طياتها بذور صراعات وانشقاقات جديدة تبدد الطاقات وتصرف الانتباه عن هدف التطور والتنمية .

المجال الرابع : إزالة أي لبس أو خلط بين الإسلام والإرهاب :

مما لا شك فيه أن أحداث الحادي عشر من أيلول «سبتمبر» ٢٠٠٢ قد أفرزت واقعًا جديدًا على الساحة الدولية اتسم بالكثير من الغموض واللبس والمغالطات التي مست الإسلام والتنظيمات الإسلامية في ربوع العالم ، وبدت الحملة ضد الإرهاب ، من حيث الواقع ، وكأنها تستهدف الإسلام ، في حين عمد البعض إلى تشويه صورته ومبادئه ، فيما يتعلق بتلك الظاهرة ، التي عجز العالم الغربي عن تعريفها أو تجنب ذلك لأغراض سياسية غير معلنة ، واستنادًا

(١) انظر قرار مجمع الفقه الإسلامي بشأن حقوق الإنسان والعنف الدولي ، الدوحة ، قطر ، ٨ـ ١٣ ذو القعدة ١٤٢٣هـ ، ١١ـ ١٦ يناير ٢٠٠٣م .

إلى ذلك الواقع الملموس ، أضحى على الجامعات العربية والإسلامية دورًا كبيرًا في تبديد المفاهيم الخاطئة والترويج للمفاهيم المستمدة من القرآن الكريم والسنة فيما يتعلق بنبذ العنف بكافة أشكاله وإدانة الإرهاب ، وتكمن أهمية هذا الدور في تجنيبه للمجتمعات الإسلامية مخاطر الشك والريبة التي قد تتصف بها تعاملات المجتمعات الأخرى في تعاملها معها ، الأمر الذي قد يكون في حد ذاته سببًا جديدًا يضاف إلى أسباب التوترات التي تجيش بها القارة الأفريقية .

خلال سعيها لتحقيق ذلك الهدف فإن على الجامعات والمؤسسات التعليمية العربية الإسلامية أن تركز في مناهجها وندواتها على المبادئ الرئيسية التي سبق وأن حددها إعلان كوالالمبور بشأن الإرهاب الدولي [1] والتي تضمنت من بين أشياء أخرى :

١ـ التأكيد على الالتزام بمبادئ وتعاليم الإسلام الحقة التي تحرم العدوان وتحض على السلام والتسامح والاحترام ، وتنهي عن إزهاق أرواح الأبرياء .

٢ـ الإعلان عن رفض أية محاولة لربط الإسلام والمسلمين بالإرهاب ، باعتبار أنه لا صلة ألبتة بين الإرهاب وأي دين أو حضارة أو جنسية .

٣ـ التأكيد على أن أي عمل وقائي يتخذ لمكافحة الإرهاب يجب ألّا يستهدف طائفة بعينها أو يترتب عليه أي تصنيف ديني أو عرقي .

٤ـ الإدانة ـ دون أي لبس أو غموض ـ لأعمال الإرهاب الدولي بجميع

---

(١) إعلان كوالالمبور بشأن الإرهاب الدولي ، الصادر عن الدورة الطارئة للمؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية التي عقدت في ماليزيا في الفترة من ١٨ إلى ٢٠ من محرم ١٤٢٣هـ ، الموافق ١ـ ٣ من أبريل ٢٠٠٢م .

صوره وأشكاله ، بما في ذلك إرهاب الدولة ، بصرف النظر عن دوافعه أو مرتكبيه أو ضحاياه ، باعتبار أن الإرهاب يشكل تهديدًا جديًا للسلم والأمن الدوليين وانتهاكًا خطيرًا لحقوق الإنسان .

٥ـ التشديد على وجوب احترام قواعد القانون الدولي الإنساني التي تكفل الحماية للسكان المدنيين .

٦ـ التأكيد على أهمية معالجة الأسباب الأصلية للإرهاب ، اقتناعًا بأن الحرب ضد الإرهاب لن يكتب لها النجاح ، طالما أن البيئة التي ينمو فيها كالاحتلال الأجنبي والظلم والفساد والاستعباد ، ما تزال قائمة .

كذلك فإنه يقع على المؤسسات التعليمية العربية الإسلامية في القارة دورًا في المشاركة في تنفيذ توصيات مجمع الفقه الإسلامي بهذا الشأن والتي تضمنت «وجوب تدوين مدونة إسلامية في القانون الدولي الإنساني على غرار المدونات القانونية المعهودة ، ثم تترجم هذه المدونة إلى مختلف اللغات العالمية ، وتوضع هذه المدونة في مكتبات الجامعات الإسلامية ومؤسسات هيئة الأمم » باعتبار أن ذلك أجدى من ترديد القول : بأن الإسلام لا يعرف الإرهاب ؛ ولكي يقف غير المسلمين على موقف الإسلام في وضوح لا غموض فيه » .

وتكمن أهمية معالجة ذلك الموضوع ، في ضرورة التصدي لظاهرة الخلط بين الإسلام والإرهاب التي تروج لها بعض الدوائر الدولية ، بغية تجنب حدوث تصدعات وانقسامات بين مكونات الجسد الأفريقي ، ينظر فيه عضو إلى الآخر على أنه عدو مستتر يلزم التعامل معه من ذلك المنطق ، وليس من منطق التعاون والشراكة من أجل تحقيق التنمية والتطور للقارة بأسرها .

المجال الخامس : التعامل مع ظاهرة العولمة بشكل يساعد على تحقيق التنمية والتطور :

تعد القارة الأفريقية بأوضاعها الاقتصادية المتردية من جانب ، وارتباطاتها القوية مع الدول الغربية الاستعمارية السابقة من جانب آخر من أكثر بقاع العالم تعرضًا لتأثيرات ظاهرة العولمة بما تتضمنه من جوانب سلبية وإيجابية ، وتأتي حقيقة استخدام جانب كبير من الشعوب الأفريقية للغات الغربية «الإنجليزية أو الفرنسية» كلغات رسمية لتضخم من ذلك البعد في ضوء التأثير المباشر الذي يمكن للثقافات الغربية «استنادًا إلى مفهوم العولمة» على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإعلامية في القارة .

ويجدر التذكير بأن موضوع العولمة كان في صميم اهتمام رابطة الجامعات الإسلامية خلال الفترة من عام ١٩٥٥م حتى عام ١٩٩٩م ، في إطار دراستها للتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن الجديد ، حيث لجأت إلى عدد من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الأعضاء بالبحث والدراسة في هذا المجال ، وتم تتويج هذا الجهد بإصدار «إعلان عمان» الذي عرض لوجهة نظر الجامعات الإسلامية في مواجهة تلك التحديات ، التي تصدرتها العولمة ، وفي حقيقة الأمر لم تقتصر الدراسات على إبراز سلبيات الظاهرة ، وإنما حرصت كذلك على استخلاص الدروس التي يلزم على العالم الإسلامي الاستفادة منها ، وألقت على مؤسسات التعليم ومن بينها الجامعات الإسلامية ـ عبء الإسهام في تمكين العالم الإسلامي من استثمار إيجابيات العولمة وتوقي سلبياتها [1] .

---

(١) د. جعفر عبد السلام ، رؤية رابطة الجامعات الإسلامية للعولمة ، الإسلام والعولمة ، رابطة الجامعات الإسلامية ، سلسلة فكر لمواجهة رقم (١٠) ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٤م ، (ص٤٣ ـ ٤٦) .

تضمن إعلان عمان مجموعة من التدابير لمواجهة الآثار السلبية لظاهرة العولمة ، يقع على الجامعات الإسلامية دورًا كبيرًا في تحقيقها ، وتجدر الإشارة إلى أن تلك التدابير لا تنطلق من مفهوم «الرفض» للظاهرة ، وإنما من منطلق التعامل معها بغية الاستفادة من مميزاتها وتجنب سلبياتها ، بشكل يساهم في تحقيق التقدم والتنمية في ظل نظام دولي جديد يحمل في طياته العديد من التحديات ، وقد يكون من المفيد في هذا الخصوص الإشارة إلى عدد من تلك التدابير التي تتماشى مع موضوع الدراسة :

١ـ العناية باللغة العربية وعمل دراسات وحلقات نقاش تستهدف تيسير الدراسات المتصلة ، مع تطوير مناهج تدريسها وإبراز أهمية الشعر العربي الملتزم بالدين والقيم في تربية الوجدان وتهذيب السلوك وإشباع العواطف .

٢ـ إبراز أهمية نظام الشورى الإسلامي وبحث الأساليب المناسبة لتطبيقه في ضوء المتغيرات الدولية والداخلية التي تحيط بالأمة الإسلامية وعدم استعارة ما لا يناسب مجتمعاتها من أساليب الحياة السياسية .

٣ـ إبراز حقوق الإنسان من المنظور الإسلامي وبذل كافة الجهود لتطبيقها عمليًا في حياة المسلمين وتضمينها في المقررات الدراسية في مختلف المراحل .

٤ـ الاهتمام بدراسة الحضارة الغربية والحضارات غير الإسلامية دراسة نقدية للاستفادة من إيجابياتها وتجنب سلبياتها ، على أن تأخذ تلك الدراسة مكانها في دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية .

٥ـ إجادة اكتساب مهارات من تلك الحضارات بالاحتكاك المتواصل بها دون التفريط في المكونات الرئيسية للذات ، وعدم الاتجاه إلى تقليد غير المسلمين في العادات والطابع أو الاقتراب من المحرمات .

٦ـ إجراء دراسات حول المهمة الأساسية للمرأة في الإسلام وإظهار الحقوق التي كفلها الإسلام، والواجبات التي قررها عليها، وإعطاء هذه المسائل أهمية في الدراسات الاجتماعية والإنسانية، وفي مراحل التعليم الأساسية كذلك.

٧ـ إعداد أجيال قادرة على فهم مقومات الحضارات المختلفة وتعويد الأجيال على التعامل معها بمنطق القوة، ولن يتسنى ذلك إلا إذا فهمت ووعت طبيعة الحضارة الإسلامية والخصائص التي تقوم عليها.

ثالثا: العقبات التي تواجه دور التعليم العربي الإسلامي في المجالات السابقة:

مما لا شك فيه أن التعليم العربي الإسلامي يتعرض في أدائه للدور المشار إليه عاليه إلى عدد من العقبات، يمكن إجمال أهمها في مجموعتين رئيستين، تتعلق الأولى بعقبات خارجية، وتتصل الثانية باعتبارات داخلية نابعة من المجتمع الأفريقي ذاته.

المجموعة الأولى: وتشمل الانطباعات الخاطئة التي قد ترسب بعضها في النظرة إلى العرب والمسلمين، وتظهر حدة هذه المجموعة من العقبات في الدول التي تتواجد فيها أقلية مسلمة أو تتعايش فيها قطاعات السكان المسلمة والمسيحية، وتأتي الاعتبارات الاقتصادية الخاصة بالتوزيع العادل لمصادر الثروة لتفاقم من حدة تأثير تلك الانطباعات التي تغذيها وسائل إعلام خارجية بلغات مستخدمة في الدولة من جانب، وتوجيهات سياسية لقوى عظمى اختلطت فيها فكرة مكافحة الإرهاب بحملة صليبية ضد الإسلام، وإزاء تلك المجموعة من العقبات، تقع على مؤسسات التعليم العربي

الإسلامي مهمة صعبة تتمثل في تصحيح المفاهيم ، ليس فقط على المستوى النظري ، ولكن أيضًا في السلوكيات ، إن النجاح في تخطي ذلك العائق يعتبر شرطًا ضروريًا لتمكين المؤسسات التعليمية الإسلامية من لعب دورها في المساهمة في توفير الشروط الضرورية لتحقيق التنمية والتطور في القارة بكافة مكوناتها العرقية والقبلية والدينية ، وعلى صعيد آخر ، فإنه يمكن من خلال إقامة الصلات مع الجماعات القومية المدافعة عن حقوق الإنسان واستنادًا إلى المدونة المزمع تحريرها في هذا الخصوص ، السعي إلى رفع الظلم الذي قد يكون واقعًا على القطاعات الإسلامية دون الإساءة إليها من خلال وسمها بالعنف .

المجموعة الثانية : وتضم عددًا من العوامل الخاصة بالمجتمعات العربية الإسلامية في القارة الأفريقية ومن بين ذلك يمكن الإشارة إلى ما يلي :

١ـ الافتقار إلى التمويل اللازم لتطوير سياسة تعليمية طموحة يمكنها أن تأخذ في الاعتبار الأعباء الملقاة على المؤسسات التعليمية العربية الإسلامية في مجال التنمية والتطور ، وفي هذا الصدد يلزم النظر في كيفية معالجة ذلك من خلال التعاون مع مراكز الدعوة الإسلامية خارج القارة والتي قد تتوافر لديها القدرات المادية للمساعدة في التخلص من تلك العقبة .

٢ـ موقف النخبة الحاكمة من الدور المقترح للمؤسسات التعليمية العربية الإسلامية ، والذي قد يشوبه الحذر والخشية وفقًا لطبيعة النظم القائمة ، وفي هذا الخصوص يمكن القول : إن المؤسسات التعليمية والدينية يمكنها الاستناد إلى توجيهات المفوضية الأفريقية التي أفردت لها دورًا في عملية البناء

القاري، فضلًا عن التوجه الجديد الذي تبلور مؤخرًا والهادف إلى إشراك المثقفين في الجهود الرامية لمواجهة التحديات التي تواجهها القارة ورسم معالم موقعها في العالم.

٣- شيوع ظاهرة الانتماء للإسلام بالميلاد، الأمر الذي يعني وجود أجيال من المسلمين الذين لا يرتبطون بالإسلام إلا في ضوء مولدهم من أب مسلم دون أن يتم تلقينهم مبادئ الدين الأصيلة، ويكفي أن تقوم عناصر تنتمي إلى تلك الفئة بأخطاء أو أعمال شائنة حتى يتم استثمار ذلك للإشارة بإصبع الاتهام إلى الإسلام والمسلمين عامة في ظل الحملة السابق الإشارة إليها، وبناء على ذلك تبرز أهمية بذل جهدٍ مضاعفٍ في عملية بناء الإنسان المسلم ذاته كبداية للانطلاق في عملية بناء الإنسان الأفريقي.

*****

الخاتمة

وفي نهاية الدراسة قد يكون من الضروري الإشارة إلى عدد من الملاحظات الرئيسية :

أولًا : يمكن للتعليم الإسلامي أن يلعب دورًا مؤثرًا في تحقيق التنمية والتطور في أفريقيا خاصة وأنه يمس فئة الشباب وهي الأغلبية في القارة وبصفة عامة يمكن القول : إن هذا الدور يتمثل في توفير تربة خصبة وبيئة مناسبة لتحقيق التنمية والتطور في ربوع القارة ، وذلك من خلال نشر ثقافة السلام ، إعداد الإنسان ، نشر تعاليم احترام الحقوق ومبادئ الشورى ، إعداد أجيال مؤهلة لتولي زمام المسؤولية وقادرة على مواجهة التحديات التي تواجهها القارة وعلى رأسها تحدي التنمية والتطور وتحديد موقع للقارة في إطار النظام الدولي يتناسب مع إمكانياتها ومواردها .

ثانيًا : إن هناك قاسم مشترك بين كل من موضوع الندوة الحالية ، التعليم العربي الإسلامي وأثره في التنمية والتطور في أفريقيا ، والمؤتمر الأول للمثقفين الأفارقة وفي المهجر ، الذي عقد في العاصمة السنغالية داكار في الفترة من السادس إلى التاسع من تشرين الأول «أكتوبر» الماضي ، ويتمثل ذلك في الهدف المنشود ألا وهو البحث عن طرق ووسائل تحقيق التنمية والتطور في القارة الأفريقية ، والرجوع إلى النخبة المثقفة للتعرف على آرائها ومقترحاتها للوصول إلى تحقيق الهدف المنشود ، وفي واقع الأمر ، تتعلق الندوة الحالية ، من هذا المنطلق بالتعامل مع جزء رئيس لا يتجزأ من القضية الشاملة الخاصة بمستقبل القارة الأفريقية ودور المثقفين في تحديده من خلال التصدي للتحديات التي

يكشف عنها واقع القارة ، فالتعليم العربي الإسلامي هو في جوهره جزء لا يتجزأ من دولاب التعليم في القارة ، حيث يتصل الأمر بمؤسسات تعليمية وتربوية تقوم بتنشئة أجيال تقع عليها مسؤولية توجيه العمل القاري في المستقبل سواء تعلق الأمر بأفراد يتحدثون اللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية أو البرتغالية ، ومن جانب آخر ، يثار موضوع التعليم العربي الإسلامي وبناء الإنسان في أفريقيا ، وقضية التعايش بين المسلمين وغير المسلمين ، فضلًا عن أثر المثقفين باللغة العربية في التنمية والتطور بالقارة .

ثالثًا : تقدم الندوة الحالية فرصة جديدة للتأكيد على الدور الرائد الذي يمكن للنخبة العربية الإسلامية المثقفة في القارة الأفريقية لعبه في تقديم تصورات لحل مشاكل القارة من جانب ، وإزالة رواسب الخلافات العقائدية المنبثقة من الديانة والتي تدعمت منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠٠م وما تبعها من صورة ، حرصت بعض وسائل الإعلام على تكريسها ، ربطت بين الإسلام والعرب من جانب والتطرف والإرهاب من جانب آخر .

رابعًا : في ضوء إعلان الرئيس السنغالي عن قيام بلاده باستضافة مؤتمر عام ٢٠٠٦ تحت عنوان الحوار الإسلامي المسيحي لمعالجة قضية عدم الفهم بين المسيحيين والمسلمين في أعقاب تحريف المسار واستغلال الأديان ، لأغراض مختلفة [1] ، تقع على الجامعات العربية والإسلامية مسؤولية كبيرة في الإعداد الجيد لذلك المؤتمر ، والاستفادة من ذلك المنبر لتصحيح المفاهيم الخاطئة التي علقت بالإسلام وفي هذا الصدد ، قد يكون من المفيد أن تلعب الأمانة العامة

---

(١) خطاب الرئيس السنغالي في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الأول للمثقفين الأفارقة وفي المهجر ، داكار / السنغال ، ٧ أكتوبر ٢٠٠٤ ، انظر النص الكامل www.serica-union.org.

للجامعات دورًا في تحديد الموضوعات للمشاركين التي يمكن تناولها ، وأسلوب المعالجة لها من قبل نخبة من المتخصصين في ذلك المجال يتم التنسيق بينهم ؛ لضمان وضوح الرؤية وبساطة العرض وقوة الحجة لتحقيق الغاية المنشودة .

*****

تطبيق الجودة الشاملة في التعليم العربي الإسلامي وبناء الإنسان في إفريقيا [١]

إعداد
د. عثمان أبو زيد عثمان (*)

مقدمة

لكي يتحقق بناء الإنسان من خلال التعليم، لابد أن تتوافر شروط الجودة في مستويات التعليم ومراحله كافة، ذلك ما يدفع معظم الدول إلى الأخذ بنظام الجودة العالمي وتبني معاييره وآلياته، وسوف تشهد السنوات القادمة انضمام مزيد من الدول إلى تطبيق النظام، بما فيها الدول قليلة النمو في إفريقيا، حيث أكثر البلاد انخفاضًا في مستوى التنمية البشرية وفقًا لترتيب برنامج الأمم المتحدة الإنمائي «تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٤».

ويوجد في إفريقيا الحد الأدنى في اقتصاديات التعليم، مما يدعو إلى الاعتقاد أن نظام الجودة لن يكون ملائمًا تمامًا مع الأوضاع السائدة، إن لم يكن نوعًا من الترف الإداري، وقد يرى آخرون أن أوضاع البيئة التعليمية نفسها هي الدافع للأخذ بهذا النظام، إذ كيف يمكن تعويض النقص إن لم يكن بمواكبة التحولات العالمية التي تفرض نفسها على الجميع؟ إن مؤسسات التعليم العالي ما لم توفق أوضاعها مع النظم والعلاقات المستجدة، فإنها ستعيش

---

(١) ورقة علمية قُدمت إلى ندوة: التعليم العربي الإسلامي وأثره في التنمية والتطور في إفريقيا التي تعقدها رابطة الجامعات الإسلامية في جامعة الملك فيصل بإنجمينا ـ تشاد ٢٦ ـ ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٤.

(*) رئيس تحرير مجلة الرابطة ـ رابطة العالم الإسلامي.

غريبة عن محيطها بل متخلفة عنه .

إذن فهذا موضوع جدير بالاهتمام عند أية مناقشة لقضايا التعليم وأثره في التنمية والتطور في إفريقيا ، ولابد من استشعار أهميته لجامعاتنا ومعاهدنا العليا ، مادام التعليم ركيزة مهمة في بناء الإنسان .

وعلى الرغم من أن الموضوع حديث نسبيًا ، فقد صار مكان الاهتمام من الدوائر الأكاديمية الإفريقية ، وموضوع العناية من بعض الدارسين منذ منتصف التسعينات في جامعاتنا العربية والإسلامية ، من ذلك مثلًا ما قامت به إحدى الجامعات الخليجية مؤخرًا من استطلاع رأي المسئولين والأكاديميين الذين أجمعوا على أن التعليم العالي يتعرض لإفرازات العولمة مما يفرض على الجميع توجيه الاهتمام إلى النوعية والجودة ، وأن تَعْمَدَ الجامعات إلى تحديث البرامج الدراسية لتواكب روح العصر ، في إشارة من هؤلاء المسئولين إلى نشأة الجامعات الخاصة ومؤسسات التعليم العالي الأجنبية [1] .

وهناك دراسات مباشرة تناولت الموضوع من قبل ، منها دراسة بعنوان : إدارة الجودة الشاملة في مؤسسات التعليم العالي [2] ، وورقة عمل بعنوان : تصور مقترح لتحسين جودة التعليم الجامعي الفلسطيني [3] .

---

(١) نشرت شبكة ميدل إيست أون لاين ملخصًا عن هذا الاستطلاع نقلًا عن جامعة عجمان ، ١٨ يناير ٢٠٠٤ .

(٢) أعدها عبد العزيز أبو نبعة وفوزة مسعد ، قدمت إلى مؤتمر التعليم العالي في الوطن العربي المنعقد في جامعة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٩٨ .

(٣) من إعداد الدكتور عليان عبد الله الحولي الأستاذ المشارك في الجامعة الإسلامية في غزة ، لتقديمها إلى مؤتمر النوعية في التعليم الجامعي الفلسطيني ، برنامج التربية ودائرة ضبط النوعية في جامعة القدس المفتوحة ، يوليو ٢٠٠٤م .

إن الدعوة إلى تطبيق نظم إدارة الجودة في مؤسساتنا التعليمية لا تعني أبدًا أن ممارسة الجودة مهملة فيها ، فكثير من المؤسسات تقوم بذلك متخذة أنماطًا متعددة من برامج التقويم المستمر وتطوير المناهج .

أما الغرض من بحثنا هذا فهو بيان أن يكون لكل مؤسسة تعليمية نظام لإدارة وتوكيد الجودة .

ومن أهداف البحث التوعية بثقافة الجودة وأخلاقياتها ، وما يتصل بها من تراث أصيل للجامعات الإسلامية ، فمن المفيد تناول مفهوم الجودة في الإسلام ، مع تقديم نماذج حية من التراث .

يقدم البحث نماذج إقليمية وعالمية لتطبيقات الجودة ، ثم إشارات عامة في الإفادة من نظام الجودة في تأسيس هيكل فاعل للإدارة الجامعية ، وتعزيز تميز التعليم العربي الإسلامي .

ولم يهتم البحث بالتفصيلات الإجرائية والنواحي الفنية لإدارة الجودة في التعليم وضبطها ومراقبتها ، كما لم يعن بتفصيلات النظم المتداخلة مع الجودة مثل الاعتماد إلا بالقدر الذي يفيد تكوين إحساس ومنح إلهام بضرورة الجودة الشاملة .

ولا يفوت الباحث بين يدي هذه الدراسة ، أن يتقدم بواجب الشكر إلى مدير جامعة الملك فيصل الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الماحي على إتاحة الفرصة لعرض هذا الموضوع المهم .

والشكر كذلك إلى الأستاذ جبريل عبد اللطيف أحمد نائب المدير العام للهيئة السودانية للمواصفات والمقاييس ، مدقق الجودة المعتمد الذي راجع البحث مشكورًا .

كما تجدر الإشادة بمكتبة الملك فهد في الرياض بالمملكة العربية السعودية ، التي وفرت مادة هذا البحث دون أن يتكبد الباحث عناء الانتقال إلى مدينة الرياض ، ولعمري فإن المكتبة تظهر بذلك نموذجًا عمليًا في جودة الخدمات المكتبية ، وتقدم دليلًا واقعيًا على الجودة .

رؤية تأصيلية لمفهوم الجودة :

الجودة هي درجة استيفاء المتطلبات التي يتوقعها المستفيد من الخدمة ، أو تلك المتفق عليها معه ، والجودة الشاملة عبارة عن مفهوم في الإدارة الحديثة ، نشأت عنها نظم لإدارة وضبط المؤسسة فيما يخص الجودة من خلال برنامج شامل من الأدوات والتقنيات والتدريب .

يذهب الدكتور عبد الرحمن الجويبر إلى أن المفهوم العام للجودة في المنظور الإسلامي لا يختلف عما هو موجود في أدبيات الفكر الإداري في العالم ، ويستعير تعريف منظمة الجودة العالمية أيزو ، وهو أن الجودة «مجموعة مواصفات المنتج أو الخدمة التي ترضي احتياجات معلومة ومحددة للعميل أو المستفيد» (١) .

إن الجودة في سلوك المسلم جزء لا يتجزأ من التزامه الديني وعبادته ، فهي أعلى درجة من مجرد أداء العمل ، والأدلة كثيرة من الكتاب والسنة في الحض على الإحسان وتجويد الأعمال ، يقول الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] ، ويقول: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف:٣٠] . ويقول: عز من قائل ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ .

[يونس:٢٦]

---

(١) انظر عبد الرحمن إبراهيم الجويبر ، إدارة الجودة الشاملة = الإتقان = في الفكر الإسلامي والمعاصر ، ص٤٣ ، مطابع الرشيد ، ١٤٢٥ .

وفي الحديث، قول الرسول ﷺ: «خير الناس من طال عمره، وحسن عمله، وشر الناس من طال عمره، وساء عمله» صحيح الجامع، والرسول ﷺ حض على الإحسان في كل أمر يأتيه المسلم، حتى الذبيحة، يقول ﷺ: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ..» صحيح مسلم.

ويقول الرسول ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»، والحديث من رواية السيدة عائشة رضي الله عنها، جاء في فيض القدير للمناوي في شرح أحاديث الجامع الصغير تعليقًا على الحديث: «إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم أيها المؤمنون عملًا أن يتقنه» أي يحكمه كما جاء مصرحًا به في رواية العسكري، فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور والآلات والعدد مثلًا أن يعمل بما علمه الله عمل إتقان وإحسان بقصد نفع خلق الله الذي استعمله في ذلك، ولا يعمل على نية أنه إن يعمل ضاع [1] ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب ما تقتضيه الصنعة، كما ذكر أن صانعًا عمل عملًا تجاوز فيه ودفعه لصاحبه، فلم ينم ليلته كراهة أن يظهر من عمله متقن - أي يطلع عليه خبير بإتقان العمل - فشرع الصانع في عمل بدله حتى أتقن ما تعطيه الصنعة، ثم غدا به لصاحبه فأخذ الأول وأعطاه الثاني فشكره.

ولا شك أن الإدارة الإسلامية التي تتأسس على هذه المبادئ، تقدم أجود الثمار والنتائج، فقد عرف المسلمون الاحتساب، ومن صميم عمل المحتسب تجويد الواجبات وعدم الرضا بالتقصير، وأدرك المحتسبون كيفية تمام الأعمال

---

(١) هكذا في النص، ولعل الصحيح هو «إن لم يعمل ضاع».

مع تجويدها عن طريق تقسيم العاملين في مجموعات صغيرة تتشارك في مناقشة الخطط وأساليب التنفيذ وتقويم المشكلات على غرار ما يعرف اليوم بدوائر الجودة في الإدارة الحديثة [١] .

نماذج من جودة التعليم في الحضارة الإسلامية :

من المعروف أن نواة التعليم الجامعي في العالم نشأت في أحضان المساجد الكبرى منذ أكثر من ألف عام ، في الحرمين الشريفين وفي الأندلس وبيت المقدس .

جامعات القرويين والأزهر والزيتونة استمرت منذ تأسيسها محاضن للعلم الشريف ، تجتذب وفود الطلبة من شتى أنحاء العالم .

وفي مسيرة الحضارة الإسلامية شواهد عظيمة الشأن على ما وصل إليه المسلمون من رقي علمي ، لعلنا نستحضر منها شاهدًا واحدًا ، هو تلك الرسالة التي بعث بها ملك انجلترا جورج الثاني إلى خليفة المسلمين في الأندلس ، هذا نصها : «من جورج الثاني ملك إنجلترا وغالة والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام ، بعد التعظيم والاحترام ، فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداءة حسنة في اقتفاء أثركم ونشر أنوار العلم في بلادنا ، وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز لتكون موضع عناية عظمتكم

---

(١) الجويبر ، المرجع السابق ، ص٥١ .

ورعاية الحاشية الكريمة وحدب من لدن اللاتي سيتولين تعليمهن ، وقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها ، مع التعظيم والحب الخالص .. جورج» .

عرفت هذه الجامعات الإسلامية العربية الإفريقية جودة التعليم وفاضلت بين العلماء بمقدار ما جادت به قرائحهم وتسابقت به حِلق العلم من معرفة وحكمة ، يصف العلامة ابن خلدون في المقدمة بعض التعليم بأوصاف مثل : «علم كبير ، وتعليم حسن» ، أو نحو قوله : «ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين» [١] .

ويناقش في فصل من مقدمته مستوى المتخرجين الذين لم يحصلوا على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ، بسبب عنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية .

ويشرح ابن خلدون كذلك في المقدمة ما شهده ببعض المجالس العلمية في المغرب من طول الأمد في تحصيل العلم وعدم حصول المبتغى من الملكة العلمية «لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة ، لا مما سوى ذلك» [٢] .

ملمح آخر لجودة التعليم يشير إليه نصير الدين الطوسي في كتابه آداب المتعلمين الذي يحتوي على كثير من القيم التربوية ومعايير الجودة ، أورد في

---

(١) انظر المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون ، ص٥٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ، فصل في أن تعليم العلم من جملة الصنائع .

الباب الثالث تحت عنوان «الثبات في اختيار العلم والأستاذ والشريك» ، فيقول : «وينبغي لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه ، وما يحتاج إليه في أمور دينه في الحال ، ثم ما يحتاج إليه في المآل» [١] ، ثم يوصي طالب العلم أن يختار المتون لا الحواشي ، ويختار من المعلمين الأعلم والأورع والأسن ، وينبغي أن يثبت ويصبر على أستاذ وكتاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى فن حتى لا يشغل بفن آخر قبل أن يصير ماهرًا فيه .

ومثله أيضًا ما أورده ابن جماعة صاحب الكتاب المشهور «تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم» ، فهو لا يترك شاردة ولا واردة مما يلزم طلبة العلم ومعلميهم ، بما في ذلك «اتخاذ نقيب فطن كيس درب ، يرتب الحاضرين ويوقظ النائم ، ويأمر بسماع الدروس والإنصات لها» [٢] .

ومن طريف ما يتكلم فيه ابن جماعة مما يدخل في الباب ، انتقاده بعض المدرسين وتدريس من لا يصلح ، مستشهدًا في ذلك بالشعر :

تصدر للتدريس كل مهوس ... جهول يسمى بالفقيه المدرس

فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ... ببيت قديم شاع في كل مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل مفلس

إن مفاهيم الجودة أصيلة في الفكر التربوي الإسلامي وليست بطارئة ، أثمر التزامها رقيًا علميًا شهد به الأبعدون قبل الأقربين .

---

(١) انظر آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الإسلامية ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ويحتوي على رسائل إخوان الصفا والغزالي والطوسي ومقتطفات من ابن خلدون وابن حجر الهيثمي .

(٢) المرجع نفسه ، ص١٩٠ وما بعدها .

٣ـ أهم البواعث إلى تطبيق نظام الجودة في التعليم :

إن الالتزام بالجودة في المجتمع الإسلامي ، لم يقف عند حدود الدعوة إلى آداب وأخلاق فردية ، ينفعل بها أفذاذ يحققون الجودة في أنفسهم ، بل ظل تعبيرًا عن حركة جوهرية للمجتمع ، ووجود الإرادة الجماعية هو ما يضمن الاستمرار وإعادة الإنتاج لثقافة الجودة ، ذلك هو الشكل المؤسسي الذي يضمن بقاء النظام بصرف النظر عن تبدل الأشخاص واختلاف القيادات .

لقد كان ظهور الإدارة الشاملة للجودة في العصر الحديث نتيجة التنافس التجاري والصناعي ، انطلاقًا من الأسواق ، التي تميزت بالطلب على الجودة والثقة مجتمعين مع انخفاض الأسعار ، وصار لتوكيد الجودة في صناعة السيارات والإلكترونيات اهتمام خاص ، حتى أصبحت فيها المنتجات أكثر موثوقية مما كان الحال عليه قبل عشرين سنة [(١)] .

ومع المتغيرات المتسارعة في العالم بدأت الأوضاع التنافسية تفرض نفسها في مجالات غير الصناعة والتجارة ، مثل : التربية والتعليم والصحة والمصارف وقطاع الخدمات الأخرى ، وهكذا يشهد قطاع التعليم تنافسًا كبيرًا بسبب التنوع وإطلاق الحرية لإنشاء الكليات الخاصة مع تزايد الطلب الاجتماعي على التعليم ، ويوجد في إفريقيا اليوم نحو ألف كلية وجامعة ومعهد عال ، على قدر كبير من التباين من حيث الرسالة والمجال ، أو من حيث انتمائها للريف أو للحاضرة ، أو من حيث الموارد المتاحة ، ولاشك أن هذه الجامعات

---

(١) ريتشارد فرمان ، توكيد الجودة في التدريب والتعليم طريقة تطبيق معايير ISO ٩٠٠١ BS ٥٧٥٠ ص١٧٧ ، دار آفاق الإبداع العالمية ، ١٤١٦هـ .

محتاجة إلى أن ترتفع بمستوى التربية والتعليم فيها بالقدر الذي يؤهلها للتصدي لمعضلات عويصة تواجه القارة ، مثل الفقر والجهل والمرض والحروب والتفرقة ، وإلا فإنها تعجز عن تلبية المطالب المتجددة وحاجات النمو المتصاعدة [١] .

صدر منذ أشهر قليلة تصنيف عام ٢٠٠٤ لأفضل خمسمائة جامعة في العالم ، ولم يتضمن سوى أربع جامعات من إفريقيا ، كلها من جنوب إفريقيا ، ولم ترد فيه جامعة عربية واحدة ، في حين أورد التصنيف سبع جامعات من إسرائيل [٢] ، وفي قائمة أفضل خمسين جامعة في العالم التي تصدر عن ملحق التايمز للتعليم العالي ، لم تحقق الجامعات من الدول النامية أية مراكز .

جاء في مقال بعنوان توكيد جودة التعليم في الدول النامية [٣] ، أن هناك بواعث عديدة تدفع الدول الأقل نموًا إلى الأخذ بنظام الجودة ، فهو قد أثبت جدواه في المجالات الآتية :

أولًا : الارتفاع بمستوى الدرجات العلمية وبرامج البحث العلمي ، مما دفع إلى الاقتناع بما تقدمه الجامعات من إسهام في خدمة المجتمع وتنمية الاقتصاد .

---

(١) جوزيف نقا ، التعليم العالي ليس ترفًا في الدول النامية الإفريقية ، ملف إنترنت :
www.gwu.edu/~iar/

(٢) اعتمد هذا التصنيف أربعة مجالات تم فيها القياس هي جودة النظام التعليمي وجودة الكليات ومخرجات البحث العلمي وحجم الجامعة ، وتقوم جامعة شانجهاي جيو تونج الصينية بإصدار هذا التصنيف سنويًا . انظر العدد ٢٨٦ من مجلة المجلة ، ١٩ ـ ٢٥ شعبان ١٤٢٥هـ .

(3)Quality Assurance in higher Education in Developing Countries, Lim, David. Source: Assessment& Evaluation in Higher Ejucation, Des 99, vol. 24, issue 4, p379 .

ثانيًا : تحقيق حيوية في عمل الإدارات الجامعية وقدر في تقسيم العمل .

ثالثًا : إتاحة معلومات ومدخلات جديدة تمنح مزيدًا من الفعالية والإنتاجية .

رابعًا : تحريك جمود المؤسسات العلمية وإدماجها في العملية التنموية .

وأخيرًا : تشجيع الالتزام من خلال روح المسئولية ورفع القدرات المؤسسية والتصدي للمشكلات واتخاذ التخطيط طويل الأمد .

٤ـ الإحساس بجدوى تطبيق الجودة في التعليم العربي الإسلامي :

هناك إحساس بضرورة ترقية التدريس والتدريب والمناهج في مؤسسات التعليم العالي الإفريقية التي تقدم دراسات في العلوم العربية والإسلامية ، نستشعر ذلك فيما تقوم به رابطة الجامعات الإسلامية من النظر في المناهج العلمية وإعادة توزيع المواد وتطوير المحتوى في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية وفي مناهج العلوم الشرعية ، وقد صدر عنها مؤخرًا إعلان بيروت بشأن نهضة الأمة من خلال التعليم الإسلامي ، الذي أجازه المؤتمر السابع لرابطة الجامعات الإسلامية في شهر إبريل ٢٠٠٤ ، وقد أكد الإعلان على أن التعليم الإسلامي هو الأساس لتطوير المجتمعات الإسلامية ورقيها وتحقيق أهدافها وهو السبيل إلى تربية جيل مؤمن بربه مخلص لوطنه وأمته .

ومن ذلك أيضًا ما نوه إليه معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي رئيس رابطة الجامعات الإسلامية عند افتتاح الاجتماع السنوي للهيئة الإسلامية العالمية للتعليم التابع لرابطة العالم الإسلامي في رمضان ١٤٢٥هـ ، فقد أشار إلى شريحة كبيرة من المتعلمين تضيع

طاقاتهم سدى لوجود أوضاع تقليدية في خطط التعليم ، لا تراعي متطلبات مجتمعاتنا الإسلامية خاصة في قارتي آسيا وإفريقيا .

لقد خطت جامعات عربية وإسلامية خطوات عملية ، بإنشاء اللجان الدائمة لبرنامج الجودة الشاملة ، ولدى جامعة الملك عبد العزيز في جدة مقترح بإيجاد وكالة في جميع كلياتها تختص بشئون الجودة والتطوير ، حتى تظل في المستوى المحقق للتطلعات والآمال .

إن الخطوات المؤسسية لتوكيد الجودة في الجامعات العربية الإفريقية ما تزال في طور البداية ، وتعد جامعات جنوب إفريقيا من أوائل الجامعات اهتمامًا بهذا التوجه ، ومع ذلك فإن عمر التجربة فيها لا يتعدى خمس سنوات [1] .

٥- نماذج إقليمية وعالمية :

الولايات المتحدة الأمريكية من أوائل الدول التي طبقت نظمًا للجودة والاعتماد عندما أنشأت وسائل نظامية لقياس ومقارنة أداء المؤسسات التعليمية استنادًا إلى منظومة من المعايير المتفق عليها ، ومما ساعد على ذلك أن الجامعات تدار بالتنظيم الذاتي دون ارتباط بموازنات أو موارد من الدولة ، وتقع على الجامعة نفسها مسئولية الحفاظ على درجة الإقبال الطلابي بناء على سمعتها الأكاديمية .

ويتخذ الاعتماد في الولايات المتحدة الأمريكية شكلين ، أولهما : الاعتماد المؤسسي Institutional Accreditaion تقوم به مجالس إقليمية تابعة

---

(1) Quality in High Education, vol.8 No. 2, 2002. Michel Smout & Sandra Stephenson, Quality Assurance in South Africa Higher Education, a new beginning .

لمؤسسات التعليم العالي ، وثانيها اعتماد تخصصي للبرامج الدراسية Program Accreditation تقوم بها لجان متخصصة مثل مجلس اعتماد الهندسة والتكنولوجيا ABET وهيئة اعتماد التعليم الطبي .

وأنشئ في الولايات المتحدة الأمريكية مجلس قومي يشرف على مؤسسات الإشراف غير الحكومية والاعتراف بها بناء على معايير محددة .

واهتمت دول أوروبية هي هولندا وبريطانيا وفرنسا بنظام توكيد الجودة والاعتماد الأكاديمي ، حيث أنشأت بريطانيا هيئة توكيد الجود QAA مهمتها متابعة عمليات المراجعة الداخلية في الجامعات وتقويم البحوث والتطوير بالمشاركة مع مؤسسات التعليم العالي المختلفة .

وفي فرنسا أنشئ بقرار برلماني اللجنة الوطنية لجودة التعليم ، وتتبع اللجنة لرئاسة الجمهورية وترفع لها تقريرًا سنويًا .

في اليابان يوجد نظام الاعتماد وإعادة الاعتماد ، ولا يجوز لأية جامعة أن تحظى بحق عضوية هيئة الاعتماد إلا بعد مرور أربع سنوات على إنشائها وبعد تقويم مستوف لبرامجها بموجب النظام .

أما في الدول العربية ، فقد بادرت دول قليلة حتى الآن إلى إنشاء اللجان الوطنية ، مثل مصر وفلسطين ، وشرعت بعض الجامعات في إنشاء وحدات لتقويم الأداء وضمان الجودة [1] .

وكان المؤتمر الثامن لوزراء التعليم العالي والبحث العلمي العرب المنعقد في

---

(١) ربما تكون هناك دول أخرى في المجموعة العربية الأفريقية قد بادرت إلى هذا النظام ، ولكن لم يتهيأ للباحث الاطلاع بشكل كاف على أوضاعها .

القاهرة «ديسمبر ٢٠٠١م» قد حث الدول الأعضاء على إنشاء هيئات وطنية لضمان الجودة وتحسين الأداء النوعي لمؤسسات التعليم العالي ، وصدر قرار وزاري برقم ١٥١٥ لسنة ٢٠٠١م في جمهورية مصر العربية قضى بإنشاء اللجنة القومية لضمان الجودة والاعتماد للتعليم العالي .

تشير ورقة علمية عن توكيد الجودة في جنوب إفريقيا : أن ثقافة الجودة كانت تتبع قبل تطبيق نظم إدارة الجودة ، فهناك جامعات حققت أوضاعًا مقبولة وجيدة بالرغم من ظروف العزلة السياسية التي مرت بها البلاد طيلة سنوات الفصل العنصري ، ومن صور الالتزام الصارم بالمعايير الأكاديمية استقدام أستاذ ممتحن من الخارج للرسائل الجامعية على مستوى الدكتوراة ، وتبادل الأساتذة نهجًا مطردًا لاسيما الأساتذة الزائرين من الجامعات الغربية والعالمية ، وكذلك ابتعاث طلبة الدراسات العليا للتدريب في الجامعات الأوروبية والأمريكية ، وحافظت الجامعات على المعايير التقليدية للجودة في نظم التدريس ورفع النسبة المؤهلة للقبول وتطوير المناهج والامتحانات وخدمات المكتبات والمعامل ، لكن بعض الجامعات بقيت تعاني شح الموارد ، لاسيما تلك المرتبطة تاريخيًا بالسكان الوطنيين ، إذ ما يزال هناك فرق ملموس من حيث الجودة بينها وبين الجامعات التي تنتسب إلى المستوطنين البيض .

ولعل من الأمثلة على نجاح تطبيق نظم إدارة الجودة في ميدان التعليم والتدريب ، معهد الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية ، الذي طبق الجودة الشاملة على موظفيه وبرامجه استعدادًا للإشراف على تطبيقه في المؤسسات الأخرى ، ومثال آخر هو جامعة نوتنجهام في المملكة المتحدة التي عمدت إلى توكيد الجودة وتقييس تقدمها بناء على مواصفات محددة ، دعت إلى

زيادة الإقبال على برامجها .

إن المفهوم التقليدي للجودة في التعليم الجامعي هو ما يرتبط بمثل الأعمال التي ذكرت في الفترة السابقة ، وقد يعاب فيه التركيز على عنصر واحد من عناصر العملية التعليمية وهو الخريج ، وهذا يشبه البدايات الأولى لبرامج الجودة «ضبط الجودة» عندما كان التركيز على المنتج النهائي بإبعاد ما لا تنطبق عليه المواصفات ، أما المفهوم الحديث للجودة فهو يستند بالدرجة الأولى على مجمل العملية التعليمية وتطبيق معايير نمطية تحقق «انتظامية» الأداء وضمان الجودة في المنشأ عند قبول الطلاب وأدائهم الدراسي في القاعات ، ويحتاج ذلك إلى بناء منظومة شاملة وتوجيه الموارد والجهود والسياسات والنظم والمناهج بما يخلق ظروفًا مواتية للابتكار والإبداع ، وقياس ذلك عن طريق مؤسسات مستقلة مثل مجالس الاعتماد باعتبار أن الاعتماد :

- حافز على الارتقاء بالعملية التعليمية كلها ، ومبعث على اطمئنان المجتمع لخريجي هذه المؤسسة ، وليس الاعتماد وصاية على المؤسسة أو تهديدًا «Threat» لها .

- لا يهدف إلى تصنيف أو ترتيب «Ranking» المؤسسات التعليمية .

- ليس حجرًا على الحرية الأكاديمية أو تعرضًا لقيمها .

- تأكيد وتشجيع المؤسسة التعليمية على اكتساب شخصية وهوية مميزة بناء على منظومة معايير أساسية «Basic Standards» تضمن قدرًا متفقًا عليه من الجودة ، وليس طمسًا للهوية الخاصة بها .

- لا يهتم فقط بالمنتج النهائي للعملية التعليمية ، ولكن يهتم بنفس القدر

بكل جوانب ومقومات المؤسسة التعليمية [١] .

ولابد للخدمة التعليمة أن تتميز بجملة من المواصفات تجعلها قادرة على الوفاء بالاحتياجات ، على أساس تعظيم قدرتها التنافسية .

إن نظام الجودة وفقًا لهذا المفهوم ليس مسئولية شخصية ، بل هو عمل كل أحد في المؤسسة .

ويعني إدخال نظام الجودة : استيعاب أسلوب الدافع الذي يكمن وراء المنتج ، مما يتطلب وجود قدرة على تحديد احتياجات المجتمع ، والمتابعة بشكل منتظم لهده الاحتياجات ، والعمل على تحليل المعلومات الخاصة بالمستفيدين [٢] :

ـ ما مقدار رضاهم عن الخدمة التي تقدم إليهم ؟

ـ ما هي نقاط القوة في الخدمة الحالية ؟ «معدلات النجاح ، المرونة ، ومواد التعليم» .

ـ ما نقاط الضعف ؟

ـ هل يفكر العملاء الحاليون في العدول عن مؤسستك إلى مكان آخر ؟

ـ وإذا كانوا سيتحولون ، فما الذي يبحثون عنه لدى المؤسسة الأخرى ؟

هناك قائمة مهام ، يجب أن تضطلع بها الإدارة الجامعية وفق سياسة للجودة ، هي :

---

(١) وزارة التعليم العالي بجمهورية مصر ، هيئة ضمان الجودة والتعليم في التعليم ، موقع الوزارة على شبكة المعلومات الدولية ، إبريل ٢٠٠٤م .

(٢) ريتشارد فرمان ، توكيد الجودة في التدريب والتعليم ، مرجع سابق ص٣٨ .

- كيفية تحويل احتياجات المجتمع إلى مواصفات للمنهج والمقرر الدراسي .
- طرق اختيار الدارسين وتيسير سبل الاستشارة الأكاديمية .
- كيفية مراقبة تقدم الدارس والتقويم المستمر لإنجازه .
- كيفية اختيار هيئة التدريس وتدريبهم .
- كيفية تطوير المناهج الدراسية .

حددت وزارة التعليم العالي البريطانية معايير يجب اتباعها لتقييم جودة الخدمة التعليمية ، متفقة في ذلك مع لجنة أخرى من المجلس الأعلى لتقييم جودة الدراسة الجامعية في الجامعات الأمريكية ، وتوصلتا معًا إلى المعايير الآتية :

١ـ المنهج العملي :

- درجة تغطية الموضوعات الأساسية .
- التناسب مع قدرة استيعاب الطالب في المرحلة المعينة .
- الارتباط بالواقع العملي .
- الإلمام بالمعارف الأساسية .
- إعداد الطالب لعصر العولمة من خلال تعلم لغة أجنبية .

٢ـ المرجع العلمي :

- درجة المستوى العلمي والموثوقية .
- من حيث الشكل والأسلوب والإخراج .
- وقت توافر المرجع العلمي .
- سعر المرجع العملي .

ـ امتداد الاستفادة من المرجع العلمي .

ـ أصال المادة العلمية .

ـ نوع الاتجاهات التي ينميها المرجع العلمي .

٣ـ أعضاء هيئة التدريس :

ـ المستوى العلمي والخلفية المعرفية .

ـ إدراك احتياجات الطلاب .

ـ الانتظام في العملية التعليمية .

ـ الالتزام بالمنهج العلمي .

ـ تقبل التغذية الراجعة .

ـ العمل على تنمية المهارات الفكرية التنافسية .

ـ تنمية الحس الوطني والوازع الأخلاقي .

ـ الهدف من أسلوب التدريس المستخدم .

ـ تنمية الاتجاه التحليلي .

ـ تنمية النظرة المتعمقة .

ـ درجة التفاعل الشخصي .

ـ الوعي بدور القدرة العلمية والخلقية .

٤ـ أسلوب التقييم :

ـ درجة الموضوعية والاتساق .

ـ درجة الموثوقية والشمول .

ـ عدم التركيز على التلقين .

ـ التركيز على القدرة التحليلية .

ـ التركيز على التفكير الانتقادي .

٥ـ النظام الإداري :

ـ توافر المعلومات اللازمة لتشغيل وإدارة النظام .

ـ التوجه نحو سوق العمل .

ـ المناخ الجيد لممارسة الأنشطة الرياضية والفنية .

ـ كفاءة وفعالية النظام الإداري .

ـ تلقي الشكاوى والتعامل معها .

٦ـ التسهيلات المادية :

ـ تناسبها مع طبيعة العملية التعليمية .

ـ تنمية وإشباع الناحية الجمالية .

ولابد من الإشارة إلى أن مواصفات الجودة في التدريب والتعليم ، بدأ وضعها في شكل سلسلة من المقاييس الدولية ، مثل مواصفات المنظمة العالمية للمقاييس المعروفة اختصارًا ب آيزو ، ومركزها في جنيف سويسرا وتتألف من شركات للمقاييس في أكثر من ٩٠ دولة .

٧ـ خطوات ضرورية لتوكيد جودة التعليم العربي الإسلامي :

هنالك ملاحظة أبدتها ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر لتوكيد الجودة في التعليم العالي انعقد في بنسلفانيا ، هي أن الدول الإفريقية المستعمرة من قبل بريطانيا

نشأت فيها جامعات بمستوى الجامعات البريطانية ، مما دل على إماكنية تقبل التربة الإفريقية لجامعات جيدة المستوى ، بمواصفات الجامعات العالمية [١] .

وفي كثير من دول العالم الإسلامي ، توجد جامعات بمواصفات عالمية وأخرى تفتقد أدنى المواصفات ، ولا تتوافر فيها حتى ممارسات التقويم العادية الموجودة في المدارس من قوافل التوجيه أو التفتيش الإداري .

إن الخطوة الأولى لتطبيق نظم إدارة الجودة هي إيجاد الوعي والفرص ، ثم وضع التنظيم الذي يحقق أهداف الجودة ويرسم سياستها ويستمر في التحسين ، لاشك أن أية خطوات للتغيير سوف تواجه بالمقاومة ، بسبب وجود أناس لهم ولاء للتقاليد الجامعية العتيقة ، إن لم نقل «سدنة» للقديم ، هؤلاء سوف يقفون بالمرصاد للجديد ، فهم اعتادوا أن يؤدوا أعمالهم بطريقة معينة ، يصعب عليهم التخلي عنها .

ويكتنف تطبيق نظم إدارة الجودة مشكلات من أبرزها عجز التمويل ، إلى جانب ما هنالك من قيم تتعرض للنقد ، كأن ينظر إلى التعليم على أنه شكل من أشكال السوق ، وإلى متلقي التعليم على أنه مجرد مستهلك .

يناقش لويس مورلي ضمن دارسة حديثة صادرة في بريطانيا عن الجودة والقوة في التعليم العالي اختلاف النظرة إلى الطلاب في الوقت الحاضر ، فقد كانوا يعاملون سابقًا معاملة الضيوف ، ولكنهم يعاملون اليوم معاملة السياح ، وما يزال هناك طلاب في جامعاتنا الإسلامية يطلق عليهم اسم «الوفود» يمنحون المنح المالية ويحاطون بالرعاية الكاملة .

---

(1) Further Steps Toward Globalizing Assessment, Trudy Banta, Assessment Update, November-December 1997, Volume9, No, 6.

إن دخول عنصر المصروفات الدراسية ، جعلت الطلبة وأولياء أمورهم كأنهم حملة أسهم في شركة اسمها الجامعة ، ومن حقهم أن يروا علامة الجودة قبل أن يختاروا الخدمة التعليمية التي يريدون .

وقد ينظر إلى نظم إدارة الجودة على أنها «صرعة» تدخل علينا مع رياح العولمة ، فيقع من بعض الناس عدم توافق معها .

ومن المتوقع بطبيعة الحال وجود تحديات في أوضاع التعليم في العالم الإسلامي ربما تعوق التطبيق ، ناهيك عن أن النظام لن يعمل في بيئة جامعية عاجزة عن تلبية المتطلبات الأساسية ، فهناك دول يتعرض فيها الاستقرار الأكاديمي إلى مهددات بسبب المشكلات العامة أو لأسباب تعود إلى الوضع المعيشي للطلاب ، وقد لا يتوافر الحد الأدنى المطلوب لنوعية أعضاء هيئة التدريس أو خدمات المكتبات وتوفر المرجع العلمي من حيث وجوده أصلًا أو درجة موثوقيته وأصالة مادته العلمية إن وجدت .

وفيما يتعلق بأعضاء هيئة التدريس ، فهناك أوضاع لا تشجع تفرغهم للتدريس والبحث العلمي ، أو تميزهم ، ناهيك عن هجرتهم للبحث عن ظروف أفضل للعمل والعيش .

من المهم إذن زيادة المخصص في الميزانيات العامة للتنمية البشرية ، وحل المشكلات البنيوية المتعلقة بالخدمات الأساسية ، ليس الطموح هو الوصول إلى المعدلات التي تتحدث عنها مواصفات الجودة العالمية مثل جهاز كمبيوتر مقابل كل عشرة طلاب ، أو ألا تزيد عدد رنات الهاتف في وحدة خدمية للتعليم عن ثلاث رنات قبل رفع سماعة الهاتف ، هذه معدلات مثالية بكل

تأكيد ، ولكن الوصول إليها غاية ممكنة .

هذه النظم لا تفرض فرضًا على الجامعات ، بل الجامعات هي التي ستسعى إليها سعيًا وتسمح بها ، فمثلما قبلت رقابة محاسبية لمراجعة إجراءاتها المالية سنويًا ، فسوف تكون بحاجة إلى استشارات الجودة .

وللوصول إلى تحسين جودة التعليم الجامعي العربي الإسلامي ، يكون ضروريًا إنشاء وحدات الجودة في كل جامعة تنظم مواصفات التقويم الداخلي ، ويُمكن أن تنشأ هيئة اعتماد مركزية في كل دولة للتأكد من وجود المعايير النوعية على مستوى الدولة .

إن المعايير التقليدية من اختبارات ودرجات ورصد غياب وحضور وأعداد مقبولين ومتخرجين ، كلها مع أهميتها لا تعطي المقياس الحقيقي لجودة العلم وتميز البحث العلمي ، ثمة معايير أخرى مثل تأثير الجامعة في محيطها الاجتماعي ، وحاجة المجتمع ، وقدرتها على المنافسة ، وحفز المتخرجين إلى دوافع المعرفة والعلم مدى الحياة .

إن المعول عليه دائمًا ، هو وجود روح الإتقان ، وليس مجرد استبدال نظام بآخر لأن توكيد الجودة هو عمل إنساني في المقام الأول ، فإذا انتفى عامل الإنسان فإن دخول نظام جديد هو مجرد عمل إجرائي ، سرعان ما يتحول إلى بيروقراطية أخرى وعبئ جديد على الإدارة وعلى الميزانيات الشحيحة دونما تحسن في جوهر العمل وأسلوبه .

إن الجودة ممارسة ، ومن يعتاد التجويد ، يكون النظام عنده عاملًا مضاعفًا لمزيد من التجويد والإتقان في كل شيء هو وما يعطي الأشياء قيمتها ، والإتقان قيمة في الإنسان قبل أن يكون مواصفات فنية ومقاييس .

تعليم الرياضيات بالعربية في تشاد (حاضره ومستقبله)

إعداد / أ. داوود بدر مالك[*]

مقدمة

الحمد لله القائل : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ [العلق] ، بدءًا لتنزيل القرآن الكريم ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه النبي الأمي محمد الصادق الأمين ، أفضل معلم وأشرف من تحمل أمانة العلم والتعليم .

فالعلم هو أساس نجاح الإنسان في حياته الدنيوية المتمثلة في التنمية والتطور ، والأخروية المتمثلة في الفوز بدخول الجنة والنجاة من النار .

ولعل ذلك هو سر تعليم الله سبحانه وتعالى عبده آدم الأسماء قبل جعله خليفة في الأرض : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [البقرة: ٣٠] ، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣١] ، ولا أدل على اهتمام الإسلام بالعلم من ذلك .

عرفت تشاد في حدودها الراهنة بقيام ممالك إسلامية هي مملكة كانم ومملكة باقرمي ومملكة وداي ، اهتمت كلها بالعلم بحكم أساس نشأتها الذي كان الإسلام ، وساهمت دون أدنى شك في تنمية القارة الإفريقية وتطوير ثقافة الإنسان الإفريقي .

وللرياضيات التي تعتبر سيدة العلوم وخادمتها في الوقت ذاته ـ وهذا سر عظمتها [1] ـ دورها في التنمية ، بل هي رائدة الطفرة التكنولوجية الراهنة .

(*) معيد بكلية العلوم البحتة والتطبيقية بجامعة أنجمينا .

(١) طرق تدريس الرياضيات بين النظرية والتطبيق : أ.د حسن علي سلامه ص٧٥ .

وسنحاول في ورقتنا هذه أن نمهد بعرض مشكلة البحث وأهدافه وأهميته ، ثم نتحدث عن تعليم الرياضيات حاليًا من حيث المناهج والمعلم والمشكلات .

ونختم بحثنا بمقترحات نحسب أنها قد تفيد في تطوير تعليم هذه المادة .

ونود أن نشير هنا إلى صعوبة البحث في تدريس الرياضيات لعدم وجود المراجع الخاصة به ، وعدم تقديم بحث بهذا العنوان من قبل حسب علمنا .

ونسأل الله أن يعيننا على وضع لبنة للبحث في هذا المجال إنه نعم المولى ونعم المعين .

أ ـ مشكلة البحث :

تتمثل مشكلة البحث في محاولة عرض تدريس مادة الرياضيات ، والدور الذي تلعبه في الثقافة والتنمية في تشاد .

لاشك أنه ليس من السهل البحث في هذه المشكلة والتوصل إلى نتائج ملموسة بسبب عدم وجود مراجع مسبقة ، إلا أننا سنحاول أن نستعين بالله ثم تجربتنا الخاصة في هذا المجال بحكم معايشتنا لها .

ب ـ أهداف البحث :

يهدف هذا البحث إلى :

١ ـ تحديد وضعية مادة الرياضيات في التعليم العربي في تشاد .

٢ ـ تطوير تعليم الرياضيات بالعربية ليصل لمستوى تعليمه بالفرنسية بل يفوقه .

ج ـ أهمية البحث :

تكمن أهمية هذا البحث في أنه أول محاولة للتعرض لتعليم الرياضيات

بالعربية ، ونحسب أن هذه المحاولة ـ أيًا كانت نتائجها ـ ستكون بداية لإبراز دور هذه المادة الحيوية في تكوين الشخصية الإفريقية المسلمة والتذكير بالدور الريادي الذي قام به المسلمون في تطوير هذه المادة (١) ، كما أن محاولة تحقيق الأهداف المذكورة أعلاه تعتبر مساهمة جادة في إبراز دور التعليم العربي الإسلامي في التنمية والتطور في إفريقيا .

تعليم الرياضيات بالعربية في الوقت الراهن :

نعني بالوقت الراهن الفترة من السبعينات حتى الآن ، إذ إنني كنت أدرس في هذه الفترة في تشاد مع فترات غياب بسيطة ، كما أن بداية تعييني في التدريس كان كمعلم ثنائي اللغة ، أي إنني بدأت التدريس كمدرس لغة برغم تخصصي «رياضيات ـ فيزياء» والسبب في ذلك هو عدم وجود مدارس عربية حكومية في ذلك الحين ، وأن التدريس بالمدارس الحكومية ، كان باللغة الفرنسية التي لم أبدأ تعلمها رسميًا إلا بدءًا من يناير ١٩٧٨م .

قبل البدء في تحليلي لوضع تدريس الرياضيات يجدر بنا إعطاء فكرة إحصائية بسيطة عن التعليم العربي في تشاد في الوقت الراهن .

تفيد إحصائية عام (٢٠٠٢/ ٢٠٠٣) بوزارة التربية الوطنية بقسم الإحصاء بالتعليم الابتدائي والتعليم الثانوي «يشمل الإعدادي» أن :

ـ جملة التلاميذ بالمدارس الابتدائية الحكومية والخاصة يبلغ ١١٨٤٠٥٣ تلميذ [١] وتلميذة منها ٤٥٠٣٨٤ تلميذة .

---

(١) قسم الإحصاء بإدارة التعليم الابتدائي ، وقد تسلمت هذه المعلومات مشافهة دون سند من المستندات .

ـ عدد التلاميذ بالمدارس العربية والمزدوجة «عربي ـ فرنسي» هو ٥١٦٠٥ [١] منها ٢٤١٧٤ تلميذة .

مقارنة هذين العددين تفيد أن عدد التلاميذ الدارسين بالعربية بالنسبة للدارسين بالفرنسية هو ٥٪ رغم أن نسبة السكان المسلمين في تشاد هو ٥٤٪ حسب إحصائية عام ١٩٩٤م ، مع مراعاة وجود عدد من أبناء المسلمين بالمدارس الفرنسية وإن كانت نسبتهم ضئيلة بالنسبة للآخرين .

بالنسبة للتعليم الثانوي «إعدادي وثانوي» :

ـ عدد المدارس الفرنسية «حكومية وأهلية ، إعدادية وثانوية» يبلغ ٣٧٩ مدرسة وعدد طلابها ١٨٧٣٧٧ [٢] تلميذ وتلميذة منها ٥٤١٩٢ طالبة .

ـ عدد طلاب المدارس العربية في نفس العام الدراسي (٢٠٠٢/ ٢٠٠٣) هو ٢٠٨٣٧ طالب وطالبة منهم ٧٧٦٨ طالبة [٣] .

وبمقارنة عدد مدارس وطلاب المدارس العربية مع مدارس وطلاب المدارس الفرنسية نجد أن النسبة في كل منها حوالي ١١٪ .

يتضح من الإحصائية أعلاه أن نسبة الدارسين بالعربية بالتعليم الثانوي والإعدادي بالمقارنة مع الدارسين بالفرنسية تبلغ حوالي ١١٪ وهي نسبة أعلى من نفس المقارنة بالتعليم الابتدائي ٥٪ فقط .

---

(١) قسم الإحصاء بإدارة التعليم الابتدائي .

(٢) قسم الإحصاء بإدارة التعليم الثانوي العام ، وقد تسلمت هذه المعلومات مشافهة دون سند من المستندات .

(٣) قسم الإحصاء بإدارة التعليم الثانوي .

مناهج تعليم الرياضيات :

أشرنا إلى أننا نعمل بالمدارس العربية منذ عام ١٩٧٥م مع فترات انقطاع قصيرة وكنا نعمل طوال هذه الفترة بالمدارس الثانوية ، إلا أن مناهج الابتدائية أيضًا لا تخفى علينا .

أ ـ المرحلة الابتدائية :

خلال السبعينات والثمانينات والتسعينات كان منهج الرياضيات في المرحلة الابتدائية التي يدرس فيها عادة : الأعداد ، العمليات الحسابية ، الكسور ، المقاييس والموازين ، النسبة والتناسب ، الربح والخسارة ، فكرة عن النسب المثلثية والأشكال الهندسية والمساحات والحجوم [1] يعتمد على الكتاب الذي يتوفر لدى الأستاذ سواء كان ذلك الكتاب سودانيًا أو ليبيًا أو سعوديًا أو مصريًا أو .. المهم أنه كتاب رياضيات عربي من أية دولة كان ، وهذا يثير بالطبع إشكالية عدم وحدة المرجع الذي يعتمد عليه الأستاذ في التدريس وتؤدي هذه الإشكالية بدورها إلى اختلاف المستويات عند الدخول للمرحلة الإعدادية .

في عام ٢٠٠٢م ، كانت هناك محاولة لترجمة مفردات المناهج الوطنية المعدة باللغة الفرنسية ، ليتم تدريسها باللغة العربية إلا أن إشكالية الكتاب الوطني ظلت قائمة .

ب ـ المرحلة الثانوية :

عايشت تعليم الرياضيات في هذه المرحلة منذ عام ١٩٧٥م ، عندما عدت لبلادي وعملت متطوعًا بالمدارس العربية بالعاصمة ، كان أعلى مستوى في

(١) البرنامج الوطني للرياضيات في المرحلة الابتدائية .

ذلك الحين هو الإعدادي ، إذ لم توجد مدارس ثانوية ، وكنت أتابع تطور التعليم في هذا المجال حتى خلال فترات غيابي عنه ؛ ولذا أحسبني في وضع يمكنني من التحدث عن المنهج .

تم الاعتراف بالتعليم العربي بالمستوى الثانوي والسماح بتنظيم شهادة ثانوية عربية لأول مرة بمرسوم رئاسي صدر عام ١٩٨٦ ، وجلست أول دفعة للشهادة الثانوية العربية عام ١٩٨٧م ، بثانوية الملك فيصل ، صحيح أنه كانت هناك شهادة أهلية بمعاهد أبشة ـ أم سيوقو ـ إلا أنه لم يكن معترفًا بها رسميًا كما أن مستوى الرياضيات فيها لم يكن بالمستوى المعهود دوليًا . في بادئ الأمر لم يكن هنالك منهج تشادي محدد بل كان المنهج السائد هو المصري باعتبار أن معلمي الرياضيات كانوا من الإخوة المصريين المبعوثين من الأزهر الشريف ، كان التركيز في ذلك المنهج على الجبر والتحليل ، حيث كان يتم تدريس المتواليات الحسابية والهندسية ، باستفاضة في جانب الجبر ، وفي التحليل كان الاهتمام بالدوال والنهايات والاتصال والتفاضل والتكامل مع بعض التطبيقات .

وخلال العام الدراسي (١٩٨٨/ ١٩٨٩) تم وضع منهج مشترك مأخوذ من المنهج التشادي والأزهري ، وحتى ذلك الحين لم يتم توحيد امتحان الشهادة العربية والفرنسية الذي لم يبدأ فعليًا إلا منذ العام الدراسي (١٩٩٠/ ١٩٩١) حيث بدأ الدارسون باللغة العربية والفرنسية يجلسون لنفس الامتحان المترجم من الفرنسية ، في كل المواد العلمية : رياضيات ، إحياء ، فيزياء ، وكيمياء .

عند هذه المرحلة لجأ أساتذة الرياضيات بالعربية إلى الكتاب الجزائري

باعتباره أقرب إلى النظام الفرنسي ، تجدر الإشارة هنا إلى أن الشهادة الثانوية الفرنسية المسماة بالبكالوريا تفوق في مادتها العلمية الشهادة الثانوية العربية بسبب واحد هو أن نظام التعليم الفرنسي هو ٦-٤-٣-٣ أي ست سنوات في الابتدائي وأربع في الإعدادي وثلاث في الثانوي ، بمعنى أن التلميذ يدرس ١٣ عام للحصول على البكالوريا ، ويدرس ٣ سنوات فقط للحصول على الشهادة الجامعية ، في حين أن معظم الدول العربية تعمل بنظام ٦-٣-٣-٤ حيث يحصل التلميذ على الشهادة الثانوية خلال ١٢ سنة [١] ، ثم يدرس أربع سنوات للحصول على الشهادية الجامعية .

ومن الكتب المستعملة أيضًا في هذه المرحلة الكتب المصرية والليبية ، هذا من جانب اللغة العربية ، أما بالنسبة للتدريس بالفرنسية فلم تكن هناك مشكلة ، فالمرجع بالفرنسية متوفر - وإن لم يكن هنالك مؤلف تشادي هنا أيضًا - فإن كان معلم الرياضيات بالعربية ملمًا باللغة الفرنسية فبإمكانه الاستفادة من تلك الكتب ، وإلا فما عليه إلا الاجتهاد في البحث في مراجع مختلفة للحصول على مادة التدريس .

بالطبع كانت هناك محاولات محلية لوضع مذكرات للرياضيات خاصة للفصول النهائية ، إلا أن شح الإمكانات وعدم تشجيع الدولة لذلك أدى إلى عدم طباعة تلك المحاولات بصورة جيدة ، وفي عام ١٩٩٧م ، تم إعداد برنامج الرياضيات المشترك من جميع الدول الأفريقية ودول المحيط الهندي الناطقة بالفرنسية ، وقد تم إنزال هذا البرنامج بعد فترات تدريب لمعلمي

---

(١) في النظام السوداني يحصل الطالب على الشهادة الثانوية في ١١سنة (٨-٣) .

الرياضيات تتراوح بين ٤ إلى ٥ أيام ، والحقيقة فإن هذا البرنامج كان برنامج متكاملًا ومفصلًا تفصيلًا واضحًا ، إلا أن حركة ترجمة هذا البرنامج للعربية لم تتم إلا في عام ٢٠٠٢م ، ويهدف برنامج الرياضيات المجدد إلى [١] :

١ـ تنمية القدرات الفكرية والأخلاقية والعلمية والنقدية .

٢ـ تنمية قدرات البحث والاتصال .

٣ـ تنمية قدرات التجريد والبرهان المنطقي .

٤ـ غرس صفة الملاحظة والتحليل النقدي .

٥ـ استمالة تخيل التلميذ .

٦ـ تعويد التلميذ على تعبير بوضوح بمفردات سهلة الأسلوب ودقيقة .

٧ـ تنمية صفتي النظام والاهتمام عند التلميذ بإثارته للاهتمام بما ينفذه من مهام «الرسم الهندسي مثلًا» وعلى العمليات الحسابية التي يجريها .

٨ ــ تكوين مواطن قادر على المشاركة في الجهد المبذول لتنمية البلاد ولاشك أن النجاح في تحقيق هذه الأهداف يعتمد على أمرين هما حرية اختيار الطرق التربوية ومراعاة الفروق الفردية للتلاميذ [٢] .

لا مجال لذكر هذا البرنامج بالتفصيل إلا أنه تجدر الإشارة إلى أنه برنامج متدرج تدرج منطقي من الصف الأول الإعدادي إلى الثالث الثانوي مع بيان المؤهلات المطلوبة من التلميذ عند دخول أية مرحلة وقدراته عند التخرج منها ،

---

(١) برنامج الرياضيات المحدد لعام ١٩٩٧ .

(٢) البرنامج المجدد للرياضيات عام ١٩٧٧م .

بل نجد تفاصيل أدق من ذلك في هذا البرنامج حيث يحدد أمام أي مفردة من مفردات البرنامج الهدف منها وطريقة تدريسها وكيفية التعامل معها .. تم ترجمة هذا العمل في ورشة نظمتها إدارة التعليم الثانوي العام بتمويل من البنك الإسلامي للتنمية وذلك في عام ٢٠٠٢م ، وشارك في الترجمة نخبة من الأستاذة الذين يجيدون اللغتين العربية والفرنسية .

على ضوء هذه الترجمة قام الأستاذ عبد الرءوف محمد إبراهيم الفياض بتأليف كتاب الرياضيات لكل من الصف الأول والثاني والثالث الإعدادي وآخر للصف الثالث الثانوي علمي ، وقام الأستاذ محمد الجارحي أيضًا بتأليف كتاب للصف الثالث الثانوي وكلا الأستاذين من خبراء الصندوق المصري للتعاون مع أفريقيا ، قام كل من الأستاذين بطباعة بعض النسخ ، إلا أنه لم تقم أية جهة بطباعتها بكميات يمكن أن يستفيد منها التلميذ .

معلم الرياضيات باللغة العربية :

هذه ندرة النوادر إذ لم يكن هنالك أساتذة متخصصون بهذه المادة سوى عدد يمكن عدهم على أصابع اليد الواحدة فيما عدا الأخوة المصريين ـ من الأزهر أو الصندوق ـ وكان معظم الذين يقومون بتدريس الرياضيات هم من الذين تخرجوا من الاقتصاد أو من كليات أدبية ، غير أنهم ذوي مستويات جيدة في الرياضيات عند دراستهم في المرحلة الثانوية ، بالإضافة إلى هذه الندرة لم يكن هنالك تدريب متواصل لهؤلاء المعلمين للارتقاء بهم لمواكبة التطورات الحديثة في المادة وفي طرق تدريسها .

مشكلات تعليم الرياضيات :

مما سبق عرضه نجد أن تدريس الرياضيات عانى من مشكلات عديدة هي كما يلي :

١ـ غياب المنهج الدراسي الوطني فيما سبق ، إلا أن هذه المشكلة قد حلت في الوقت الراهن ببرنامج عام ١٩٩٧م ، والذي تمت ترجمته عام ٢٠٠٢م ، إلى العربية .

٢ـ ندرة الأساتذة المتخصصين في مجال الرياضيات حيث لا يتجاوز خريجي الجامعات والمعاهد العليا تخصص رياضيات منذ السبعينات إلى يومنا هذا العشرة أساتذة ، باستثناء دفعتين تخرجتا من المعهد العالي لإعداد المعلمين «معهد ليبي خرج ٩ أساتذة في الدفعة الأولى و٤ في الدفعة الثانية» .

٣ـ غياب الكتاب المدرسي غيابًا تامًا .

٤ـ عدم وجود قسم خاص بالرياضيات لا في معهد المعلمين العالي «معهد الدراسات التربوية» ولا بجامعة أنجمينا [(١)] .

٥ـ عدم اهتمام الدولة نفسها بالتعليم العربي بالرغم من أن دستور البلاد قد نص على الثنائية اللغوية عربي ـ فرنسي منذ عام ١٩٨٩م ، وبرغم مساهمة البنك الإسلامي للتنمية في الآونة الأخيرة في دعم الثنائية اللغوية .

٦ـ عدم مشاركة الناطقين بالعربية في وضع البرامج الوطنية .

مستقبل تدريس الرياضيات ومقترحات تحسينية :

يتضح مما سلف ذكره أنه برغم حدوث تطور في تدريس الرياضيات بالعربية في الوقت الراهن بفضل مساهمة جمهورية مصر العربية بأساتذة ضمن بعثة الأزهر الشريف وصندوق التعاون الأفريقي ، فإن واقعنا لا يبشر

---

(١) قامت الجماهيرية الشعبية العربية الليبية بفتح معهد عالي لتدريب المعلمين للمواد العلمية : فيزياء ، كيمياء ، رياضيات ، إلى يومنا هذا .

بمستقبل زاهر للرياضيات ما لم يتم تبني سياسة واضحة تجاه التعليم العربي عامة [1]، لقد نص كل من دستور عام ١٩٨٩م، وعام ١٩٩٦م بوضوح أن اللغتين العربية والفرنسية هما لغتا البلاد الرسميتان، إلا أنه لم يتم حتى هذه اللحظة إصدار أي مرسوم واضح أو وضع سياسة عملية للوصول إلى الازدواجية اللغوية، بل ظلت اللغة الفرنسية هي المسيطرة على الإدارة، وأن المحاولات التي تمت من قبل بعض الناطقين بالعربية قد أجهضت بل تم إلغاء إدارة التعليم العربي من النظام الإداري للوزارة منذ أوائل التسعينات، ولم يتم الالتفات إلى هذا الجانب إلا مؤخرًا أكتوبر ٢٠٠٤م، حيث تم إنشاء إدارة للثنائية اللغوية تنتظر تأسيسها بدءًا من الصفر، هناك محاولات جادة من البنك الإسلامي للتنمية إلا أن عدم جدية الدولة تجاه الثنائية اللغوية جعل جهوده تتعثر، حيث لم يتم تنفيذ كل البرامج الممولة باسم الثنائية اللغوية على النحو المطلوب.

ولكي نضمن مستقبلًا لدراسة الرياضيات علينا أن نحاول تنفيذ المقترحات التالية:

أولًا: على وزارتي التربية الوطنية والتعليم العالي رسم سياسة واضحة المعالم اتجاه الثنائية اللغوية يتبع ذلك وضع خطة عملية لتحقيق ذلك.

ثانيًا: يجب تأهيل معلمي الرياضيات من خلال:

١ـ فتح قسم للرياضيات بالعربية بالمعهد العالي للعلوم التربوية.

٢ـ فتح قسم للرياضيات بكلية العلوم بجامعة أنجمينا.

---

(١) برنامج الرياضيات المجدد لعام ١٩٩٧م.

٣ـ إعادة فتح المعهد العالي الليبي .

٤ـ التدريب المتواصل للمعلمين .

ثالثًا : إيجاد الكتاب المدرسي الوطني ، وذلك بتشجيع المبادرات المحلية وتدريب المعلمين المتخصصين على التأليف .

رابعًا : مشاركة الناطقين بالعربية في وضع المناهج الوطنية لتضمين جانب الثقافة العربية الإسلامية المغيب تمامًا في كل المناهج العلمية .

خامسًا : متابعة البنك الإسلامي للتنمية لدعم التعليم المزدوج ، وإتاحته لفرص دراسية جامعية وفوق الجامعية في المجالات العلمية .

سادسًا : إسهام الدول العربية و الإسلامية في تطوير تعليم الرياضيات من خلال :

١ ـ إسعاف كلية العلوم اليوم قبل الغد بأساتذة الرياضيات في كلية العلوم التي يدرس طلاب قسم الأحياء فيها الرياضيات في السنين الأولى والثانية وطلاب قسم الفيزياء والكيمياء والرياضيات فيها في الأعوام الثلاثة لا يوجد بها سوى أستاذين دائمين يحملان شهادة البكالوريوس مع الخبرة وقد ذهب أحدهما هذا العام لليبيا للتحضير .

٢ـ تأهيل معلمي الرياضيات للدراسات العليا والجامعية فورًا أيضًا .

٣ـ المشاركة في فتح أقسام الرياضيات في كل من :

أ ـ جامعة أنجمينا .

ب ـ جامعة الملك فيصل .

ج ـ جامعة الشيخ آدم بركة بأبشة .

د ـ المعهد العالي للعلوم التربوية .

٤ـ على سلطات الجارة الشقيقة الجماهيرية الشعبية العربية الليبية استئناف الدراسة بالمعهد العالي لإعداد المعلمين فورًا .

٥ـ على الجارة الشقيقة السودان الإسراع في فتح كلية التربية التي وعدت بها مع تضمين قسم الرياضيات .

٦ـ المشاركة في إعداد وطباعة الكتاب المدرسي باللغة العربية .

تلك هي بعض المقترحات التي نحسب أنها يمكن أن تسهم في تدريس الرياضيات باللغة العربية ، بل بالفرنسية في بلادكم العربية تشاد .

*****

خاتمة

اهتمت الممالك الإسلامية بحكم مبادئها أيما اهتمام بالتعليم فأكرمت المعلمين والعلماء وأوفدت الطلاب إلى الدول الصديقة في ذلك الحين لتلقي العلم ، بل وأنشأت عددًا من الروافد في كل من الأزهر الشريف في مصر والسعودية ، شهد الكاتب الألماني نتشقال بأن التعليم بمملكة وداي كان إجباريا ربما بلغت نسبة الأمية أقل من واحدة بالمائة بدليل أنه في وقت من الأوقات كان الجاهل في تلك المنطقة مهانًا يقوم بخدمة الآخرين عند تلاوتهم القرآن ويكاد لا يجد حرة يتزوجها .

بالرغم من هذا الاهتمام لم يكن للرياضيات منهجًا وبرنامجًا خاصًا ، بل كان يدرس في إطار الدروس الشرعية «الميراث وحساب العقائد» كما كان علماء الفلك يستخدمونه لتحديد المواقيت ، كان الحرف هو المستخدم في الأغلب الأعم بدلًا من الرقم ، فلكل حرف عربي قيمة عددية محددة .

وفي عهد الاستعمار لم يكن حظ التعليم العربي وافر ، فهدف المستعمر الفرنسي الأول هو طمس معالم أية حضارة أو ثقافة يجدها ، ولتحل ثقافته محلها ويصبح بذلك المستعمر تابعًا له وممجدًا لسيده لا يرى خيرًا ولا علمًا ولا ثقافة إلا في مستعمره ، وتقلص بذلك دور التعليم العربي عامة والرياضيات خاصة ولم تظهر بوادر تطوير التعليم العربي إلا في أواخر عهد الاستعمار .

وفي وقتنا الراهن ـ أي بعد الاستقلال ـ سجل للتعليم العربي وخاصة تعليم الرياضيات تطورًا نسبيًا يتطلب دعمًا أخويًا صادقًا للحاق بركب الطفرة التكنولوجية الهائلة لعالم اليوم .

والحقيقة أن الممالك الإسلامية حققت طفرة علمية وثقافية هائلة في عهدها إذ بلغ مستوى التعليم فيها مبلغًا لا تفوقه فيه الدول الأوروبية .

والآن حان الوقت للم الشمل وتوحيد الجهود والتخطيط وتحديد الأولويات وخاصة الالتفاف حول لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله والاعتصام بحبل الله المتين ؛ لتحقيق خلافة الله في الأرض وقيادة الأرض نحو بر مؤمن آمن ، وبالله التوفيق ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

*****

نماذج من الشعر الشعبي العربي التشادي
دراسة مضمونية لغوية

إعداد / الدكتور مصباح السيد محمد سالم (*)

مقدمة

يهدف هذا البحث إلى القيام بدراسة لغوية من الشعر العربي التشادي ، وتكمن أهمية البحث في ندرة الأعمال والدراسات اللغوية للأدب العربي التشادي بصفة عامة وللشعر الشعبي بصفة خاصة ، كما أن الشعر الشعبي يشكل منظمة فكرية للشعب التشادي تكشف مختلف أوجه الحياة الأدبية ، وتعبر عن واقع ملموس لكيانه ، وهو ما تغنى به الشعراء التشاديون وأخرجوه إلى حيز الوجود ، فتحول لكائن حي ينبض بوجدان وتاريخ هذا الشعب ، وانطلاقًا من هذه الرؤية رأيت أن أقوم بهذه الدراسة للتعرف على مدى تأثير وتأثر اللغة العربية باللهجات الإفريقية ، وكذلك للتعرف على أوجه الحياة التشادية المختلفة .

واعتمدت مادة البحث على نماذج للشاعر عيسى قاسي بن أزرق النور والملقب بموسى شوفير ، الذي يردد شعره جل التشاديون ، وكذلك نماذج للشاعر عيسى عبد الله الذي يقود حركة التجديد في الشعر العربي الفصيح في تشاد ، وتشكل هذه النماذج مادة ثرية للبحث في لغة الشعب التشادي لما تحويه من موضوعات تتعلق بصميم الحياة التشادية وعاداتها وتقاليدها وأعرافها وقيمتها ، مما يمنح القارئ ثقافة اجتماعية ولغوية وفكرية حول طبيعة هذا

(*) دكتوراه الدولة في اللغة العربية والأدب الفرنسي جامعة الزقازيق.

الشعب .

اتبعت في هذه الدراسة المنهج التحليلي للوقوف على أهم السمات اللغوية وبعض الصور البلاغية من خلال هذه القصائد الشعرية المختارة ، والدراسة تشمل على مقدمة ومدخل ، يحتوي المدخل على :

أولًا : نبذة عن الشعر في الأدب الإفريقي .

ثانيًا : نبذة عن الشعر الشعبي التشادي .

ثم يأتي بعد ذلك الدراسة التطبيقية على النماذج الشعرية المختارة وتشمل :

أولًا : دراسة مضمونية .

ثانيًا : الألفاظ والتراكيب اللغوية .

ثالثًا : الصور البلاغية .

رابعًا : الخاتمة .

خامسًا : المراجع .

ولقد واجهت بعض الصعوبات في استقراء بعض المفردات والتراكيب اللغوية أثناء هذه الدراسة ، وعليه كانت دلالة الكلمات تفهم من خلال السياق الشعري ، ومما شكل صعوبة أيضًا وجود بعض الحكم والأمثال التي لا يمكن فهمها أو إدراك مغزاها من خلال السياق ، مما كان يجعلني أستعين ببعض الزملاء من الإخوة التشاديين عوضًا عن عدم وجود المراجع التي تشرح ثقافة الشعب التشادي حتى يتبين لي ما غمض عليَّ .

*****

مدخل

أولا : نبذة عن الشعر في الأدب الأفريقي :

لا مراء في أن الشعر ـ شأنه شأن ألوان الأدب الأخرى ـ ما هو إلا واقع وتجربة يعبر عنها الشاعر بأسلوبه مستخدمًا فيها ألفاظًا وتراكيب ومحسنات وموسيقى وما إلى ذلك من ألوان وفنون الشعر ، من أجل إعمال تجربته الشعرية لدى المتلقى كما يراها من واقع منظور يتعلق بالمحتوى الفكري والثقافي الذي يحيطه ، وتتعدد أنماط الشعر وأشكاله ، وتتباين أغراضه ما بين مدح وهجاء ورثاء ووصف إلى غير ذلك من الأغراض الشعرية .

وإذا تحدثنا بشكل أكثر خصوصية عن الشعر الإفريقي لوجدنا أن أغلب موضوعاته مستوحاة من الطبيعة الإفريقية ، والرواسب النفسية للإنسان الإفريقي المثقلة بالسيطرة الاستعمارية والتي ما تزال مؤثراتها تلعب دورًا حيويًا في الإبداع الشعري الإفريقي ، هذا بالإضافة إلى النزعة الدينية التي نلاحظها في أغلب الأعمال الشعرية ، وقد كان للشعر الإفريقي بصورة خاصة دور ملموس في القارة للمطالبة بالاستقلال ، وبث روح الحماسة في صفوف المناضلين والشرفاء من أبناء القارة .

ثانيا : نبذة عن الشعر الشعبي التشادي :

بادئ ذي بدء يمكن القول : إن الشعر الشعبي بصفة عامة يتميز عن الشعر الفصيح بأنه نتاج جماعي ، وقد قطع ـ هذا اللون من الشعر ـ شوطًا طويلًا ليصل إلينا « إلا أنه كان دائمًا خاضعًا لتعديل الأجيال المتعاقبة ، كل منها يحافظ على مضمونه وشكله الأساسيين ، ويغنيهما بعناصر جديدة ؛ ولذلك فإنه يصل

إلينا صافيًا مقطرًا وقوي التعبير » [(١)] .

وتتغنى العامة بالشعر الشعبي وتحبه ؛ لأنه يعبر عن عواطفها ووجدانها بلغة سهلة ، ولقد نجح الأدب الشعبي وكما يقول الدكتور مدحت الجيار : والشعر الشعبي بصفة خاصة نجح في استقطاب الأذن العربية في أقطارها المختلفة [(٢)] .

والشعر الشعبي يكتب باللغة العامية إلا أنه في هذه اللغة العامية «طائفة كبيرة من الألفاظ ليست بعيدة عن العربية الفصحى ، فهي إما صحيحة قد اعتراها بعض التحريف والالتواء ، وإما صحيحة على لغة من لغات العرب » [(٣)] .

أما عن الشعر الشعبي التشادي فهو يشكل لونًا من ألوان الأدب العريق الذي تمتد جذوره إلى أعماق التاريخ ، وهو شعر يعبر عن حياة التشاديين ، تتقارب موضوعاته وأغراضه من الشعر العربي على الرغم من اختلاف المكان والشخوص إلا أنه اقترب من الفكر والوجدان العربي إلى حد كبير ، وهذا أمر طبيعي ، فقد لعبت الثقافة العربية الإسلامية دورًا كبيرًا في الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية في تشاد ، ونتج عن هذا بروز شخصية تشادية ثرية بتراث عربي وفكر تشادي نتج عنه أعمال أدبية ذات قيمة فنية .

---

(١) توفيق زياد ، عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٠ ، (ص٢٣) .

(٢) مدحت الجيار «دكتور» ، الشعر العربي من منظور حضاري ، دار النديم ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، (ص١٨) .

(٣) عبد الحميد حسن ، الألفاظ اللغوية ، خصائصها وأنواعها ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، (ص٥٧) .

والشعراء الشعبيون ـ في تشاد ـ ينقسمون إلى مجموعات مختلفة حسب بيئاتهم وظروفهم الاجتماعية وأدائهم الفني ، ويرجع هذا التقسيم إلى أن تشاد تتميز ـ مثل بقية الدول الإفريقية ـ بتعدد القبائل واللهجات ، ومن ثم تتعدد أنواع الشعر فيها ، فكل مجموعة لها تسميتها الخاصة لنوع الشعر الذي يلقى فيها ، فهناك مسميات كثيرة للشعراء الشعبيين حسب المنطقة التي يعيشون فيها ، ففي المدن يطلق على الشاعر اسم «الدوكو» وهناك «الشدارة» وهناك «البوشان» ، وهناك «الحكامات» ، وهناك ألوان أخرى من الشعر الشعبي المنتشرة في ربوع تشاد ، والمختلفة باختلاف القبائل واللهجات .

الدراسة التطبيقية :

قبل التطرق إلى الدراسة التطبيقية أنوه إلى أنني سأقوم بالدراسة على نماذج مختارة للشاعر موسى شوفير ونماذج مختارة للشاعر عيسى عبد الله ، والدراسة التطبيقية تحتوي على :

دراسة مضمونية.

الألفاظ والتراكيب اللغوية .

الصور البلاغية .

وسوف أبدأ الدراسة التطبيقية بالنماذج الشعرية المختارة من قصائد الشاعر موسى شوفير .

أولا : العناوين :

فقد حملت القصائد عناوين يمكن النظر إليها من وجهتين ، هما الوجهة السطحية ، والوجهة العميقة ، فالوجهة السطحية هي ما يحمله الرمز من دلالة ، والوجهة العميقة هي دلالة ما تحت الرمز ، فكثير ما تحمل القصائد

مدلولًا اجتماعيًا يخفي الشاعر خلفه نقده اللاذع لبعض العادات الاجتماعية .

وقد تعرضت في هذا البحث لخمس قصائد للشاعر التشادي موسى شوفير تحمل كل منها عنوانًا مستقلًا له دلالته المتعلقة بمضمون القصيدة على النحو التالي :

القصيدة الأولى : « المال بي ماله » ، وتتكون من خمسة وخمسين بيتًا .

القصيدة الثانية : « الزغراطة » ، وتتكون من أربعة وأربعين بيتًا .

القصيدة الثالثة : « كي تعالى » ، وتتكون من واحد وثلاثين بيتًا .

القصيدة الرابعة : « الخمبة ما مرا » ، وتتكون من سبعة وعشرين بيتًا .

القصيدة الخامسة : « خديجة قمر طلع » ، وتتكون من اثنين وعشرين بيتًا .

وهكذا تنوعت عناوين القصائد ، واحتوت على أفكار ومضامين مختلفة تنقَّل فيها الشاعر بين مختلف أوجه الحياة الاجتماعية التشادية .

ثانيا : الفكرة والمضمون :

فيما يلي نستعرض في عجالة مضمون القصائد الشعرية للشاعر موسى شوفير للتعرف على أهم الأفكار المطروحة في هذه القصائد .

حملت هذه القصائد عدة أفكار ومضامين تبدو كأنها منفصلة ، إلا أن القراءة المتأنية لهذه القصائد تبين ثمة خيط دقيق يربط بين الموضوعات التي احتوتها القصائد المختلفة .

فقد احتوت القصائد مضمونًا إرشاديًا اجتماعيًا وأحيانًا دينيًا على الرغم من اختلاف المحتوى لكل قصيدة .

القصيد الأولى : تحمل عنوان «المال بي ماله» أراد الشاعر في هذه القصيدة أن يذكرنا بأن لكل ذي سلطان سلطانًا يفوق سلطانه ، وأن لكل قوى قوة تفوق قوته إلا الله سبحانه وتعالى ، والقصيدة تمنح المتلقي فكرة عن أسماء بعض السلاطين الذين كان لهم دور في الحياة الاجتماعية والسياسية في تشاد إبان فترة الاستعمار الفرنسي وبعده ، فها هو الشاعر يمدح بعضهم لمواقفهم النبيلة وشجاعتهم ، ومقدرتهم على حماية القبيلة وقت الشدة ، والشاعر يعدد الكثير من أسماء المدن والأماكن التي كان يعيش فيها هؤلاء السلاطين .

وعلى مدى أبيات القصيدة المتنوعة نَتَلَمَّسُ انتماء الشاعر لوطنه ، فهو يعدد شخوصه ويجول بنا في أرجائه ، وهو ما يمنحنا تصورًا حول طبيعة الشاعر الوطنية واعتزازه ببلاده ، وتنتهي القصيدة بتعبيرات تعبر عن مدى شجاعة أبناء القبيلة ومقدرتهم في الذود عنها .

والقصيدة الثانية : تحمل عنوان «الزغراطة» في هذه القصيدة جانب عاطفي يطرحه الشاعر ، فيخاطب من خلال أبيات القصيدة حسنائه ويؤكد لها أنه يريدها ، وحبه لها يسمو فوق كل الحدود والسدود ، ثم يصف ملامح تلك الحسناء التي فاقت كل الحدود ، فهو لا يرى من تضاهيها جمالًا بين بنات جنسها ، فهي «الحلوة بلا دخان ، وهي السمحة بلا مرجان» ، ويطنب الشاعر كثيرًا في التغزل بها ، ويرجو ألا تتركه وحيدًا لا رفيق له .

وفي القصيدة الثالثة التي تحمل عنوان «كي تعالي» يستمر الشاعر في التغزل بموصوفته ، ففي بداية القصيدة يناديها ، ويطلب منها أن تقبل عليه ، ثم يعدد محاسنها واصفًا ملامحها ، ويقسم بمكانة والدها الرفيعة ، وبمكانة والدتها ذات الخدم أن تقبل عليه ، ثم ينتقل بعد ذلك في ذكر ما سوف يقدمه لها ،

ويـذكر هنـا أنـواع مـن المـأكولات والغـلال التـي تعكـس العـادات والتقاليـد التشادية .

ويقول : إن هذه الغلال والمأكولات سوف تفيض عن الحاجة ، وتوزع على جميـع الفقـراء ؛ لأن حـسناته تـستحق الكثـير ؛ لأنهـا بنـت الـشيخ والـرئيس والزعيم صاحب المكانة السامية .

وجاءت القصيدة الرابعة بعنوان «خديجة قمر طلع» وفيها ينـادي حـسنائه باسمها على مدار أبيات القصيدة ، ويطلق عليها «خديجة أم عينا بيـضا» ، فهـو يراها كالنور ، وهـي حـسناء كاملـة الأوصـاف والأخـلاق ، ويبـدو أن الـشاعر يظهر كمن يصارع الوحوش في تقربه من حسنائه بـسبب الفـوارق والفواصـل والعقبـات ، ولكنـه يـذكر بـأن المـوت لا يفـرق بـين غنـي وفقـير ، ولا قـوي وضعيف ، ثم يبدأ في رثاء عدد مـن الـسلاطين والأصـدقاء ، ويـذكر أمثلـة لمـن غدرت بهم الدنيا أو داهمهم الموت ، ويقـول : إن الحيـاة تغـدر بالإنـسان كغـدر الرياح بالأشجار ، وغدر البئر بمن يدخلها ، وغدر نهر شاري بمن يعوم فيه .

وجاءت قصيدته الأخيرة تحت عنوان «الخمبة ما مرا» ، بعيدًا عـن المحتـوى العاطفي للقصائد الثلاثة ، يركز الشاعر في هذه القـصيدة عـلى قـضية اجتماعيـة تمس قلب وواقع الحياة الاجتماعية فهو يعالج فكرة الإهمال عند المرأة فيقـول : إن المـرأة المهملـة لا تـستحق التقـدير والاحـترام ؛ لأن عليهـا دور اجتماعـي وأسري لا يجب أن تهمله ، ويصف الـشاعر هـذا الـصنف مـن النـساء بالغبـاء ، والـشاعر ـ في هـذه القـصيدة ـ ينبـذ الكـسل والتراخـي والإهمـال في الـشؤون الحياتية .

وعبر هذه الإطلالة السريعة على مضمون قصائد الشاعر موسى شوفير نستطيع أن نتلمس مدى اقتران الشاعر بالحياة بكل صورها ، وامتزاجه بعادات وتقاليد بلاده ، وتأثره بالمناخ الاجتماعي للشعب التشادي ، فجال بصوته ليعبر عن حقيقة المجتمع ، مادحًا تارة ، وقادحًا تارة أخرى .

ثالثًا : الألفاظ والتراكيب اللغوية :

تعتبر الألفاظ دعامة رئيسة للعمل الشعري ، يعبر من خلالها الشاعر عن تجربته المراد إيصالها للمتلقي ، فيستخدمها تبعًا لمتطلبات المضمون ، وعليه لابد أن يتمتع الشاعر بثراء لغوي يمكنه من التعبير عن خلجات نفسه بطلاقة وحرية وإبداع .

والألفاظ التي يستخدمها الشاعر قد تكون ألفاظًا معجمية ، وقد تحمل الكلمات أبعادًا دلالية متعددة ، وقد يستخدم الشاعر ألفاظًا سهلة يستطيع القارئ المتوسط الثقافة أن يعيها جيدًا ، وقد يستخدم ألفاظًا صعبة موجهة لطبقة ثقافية معينة ، وقد يستخدم ألفاظًا عامية مبتذلة أو قد يستخدم ألفاظًا راقية ، والألفاظ بمختلف خصائصها تلعب دورًا كبيرًا في الارتفاع بقيمة القصيدة الفنية والأدبية ، وقد تساهم في الهبوط بمستوى القصيدة إلى أسفل سلم الدرجات الشعرية .

الألفاظ والتراكيب اللغوية عند الشاعر موسى شوفير :

من خلال هذا الجزء من الدراسة سوف نحاول أن نحلل الألفاظ المستخدمة في قصائد الشاعر موسى شوفير ، وقبل التطرق إلى الألفاظ المستخدمة في هذه القصائد علينا أن نحدد المستوى اللغوي فيها ، فمن خلال التأمل في قصائد الشاعر نرجع أسلوبه إلى مستوى لغوي بسيط ، وعليه جاءت

ألفاظ القصائد متناسبة مع هذا المستوى اللغوي ، وهي على النحو التالي :

في القصيدة الأولى : «المال بي ماله» ، اقترب الشاعر كثيرًا من الألفاظ العامية التي يصعب فهم دلالتها فهي ألفاظ تتعلق بالحياة التشادية العادية ، وبشكل أكثر تحديدًا بشجاعة ومآثر بعض السلاطين ، ودورهم في الحياة الاجتماعية ، فجاءت الألفاظ مستوحاة من البيئة التشادية الأصيلة وامتزجت بصلب الواقع ، فجاءت الألفاظ أقرب إلى الواقعية منها إلى الشاعرية ، واحتوت القصيدة على معجم لأسماء السلاطين والقبائل والأماكن ، ويتضح ذلك فيما يلي :

في البيت الثاني ذكر اسم السلطان عبد الرحمن الحاج الذي يعيش في منطقة «ميتو» و«ميتو» نقطة إدارية تابعة لمركز «بيكورو» .

وفي البيت الخامس ذكر اسم الشيخ الضي أبو رمادة ، شيخ منطقة «ملفي» ، محافظة جيرا وسط تشاد .

وفي البيت الثامن ذكر اسم النضيف ولد علي ، شيخ منطقة «سلامات» التي تقع في الجنوب الشرقي لتشاد .

وفي البيت التاسع ذكر اسم آدم ولد مرير ، شيخ منطقة «أم التيمان» عاصمة منطقة سلامات .

وفي البيت الثاني عشر ذكر اسم أبي بكر دنوكي ، شيخ منطقة «منقو» في وسط تشاد .

وفي البيت العشرين ذكر الشاعر اسم قبيلته والمنطقة التي يعيش فيها فهو من قبيلة عيسى العربية التي تقطن مديرية «شاري ـ باغيرمي» .

وفي البيت الحادي والعشرين ذكر اسم قبيلة حمادي التي تقطن «شاري ـ باغيرمي وسلامات» .

وفي البيت الثاني والثلاثين يذكر الشاعر مدينة «أبشة» التي تقع شرق تشاد .

وفي البيت الواحد والأربعين يذكر اسم المعلم بركة وهو شيخ من حفظة القرآن الكريم المشهورين في «دار وداي» شرق تشاد .

والقصيدة بها كثير من الألفاظ المقترضة من اللهجات الأفريقية التي لم يصبها كثير من التحريف في النطق ، وهذا يرجع إلى أن اللهجات الأفريقية قديمة في تشاد ، ونخص بالذكر لغة البرنو ولغة الهوسا ويتضح ذلك على النحو التالي :

في البيت الرابع استخدم الشاعر كلمة «لالي» المقترضة من لغة البرنو ويقصد بها السلام والتحية ، واستخدمت في العامية التشادية بنفس النطق والمعنى في لغتها الأصلية ، والبرنو يستخدمون أيضًا كلمة «واتشروا» للسلام والتحية .

وفي نفس البيت استخدم كلمة «الدواكة» وتعني الشاعر أو المغني ، وهناك اجتهادات كثيرة بالنسبة لأصل هذه الكلمة ، إلا أن القول الفصل فيها أنها ليست عربية .

وفي البيت الواحد والعشرين استخدم كلمة «أبو روبة» بمعنى المخطط ، وقد دخلت هذه الكلمة في العربية التشادية من لغة البرنو .

وفي البيت الثلاثين استخدم كلمة «كاجي» بمعنى غريب ، وهذه الكلمة

مقترضة من لغة البرنو ، وفي نفس البيت استخدم كلمة «زلية» بمعنى البشرة البيضاء ، وهذه الكلمة مقترضة من لغة البرنو .

وفي البيت الثالث والأربعين استخدم الشاعر كلمة «كوكابة» بمعنى الرمح ، وهذه الكلمة دخلت العربية التشادية من لغة البرنو ، إلا أن الدكتور عون الشريف يقول : « إن كلمة كوكاب أبو شوك تعني الرمح المشرشر وأنها ذات جذور سودانية » [١] .

وفي البيت الواحد والخمسين يذكر الشاعر كلمة «الكوري» بمعنى الزمن الماضي ، ولها أكثر من تأويل في إثبات أصلها فالبعض يقول : إنها عربية ، والبعض الآخر يقول : إنها دخلت في العربية التشادية من لغة البرنو .

وقد تميزت القصيدة باستخدام ألفاظ مقترضة من اللغة الفرنسية ، وإذا كانت الألفاظ المقترضة من اللهجات الأفريقية لم يصبها كثير من التحريف في النطق ، وإلا أن الكلمات المقترضة من اللغة الفرنسية قد أصابها شيء من التحريف ، وجاءت على النحو التالي :

في البيت الثاني عشر استخدم الشاعر كلمة «وي» بمعنى «نعم» وهي كلمة مقترضة من اللغة الفرنسية .

في البيت الثالث والثلاثين استخدم كلمة «كمندة» رتبة عسكرية ، ودخلت في العربية التشادية من اللغة الفرنسية مع بعض التحريف في النطق .

وفي البيت الثالث والخمسين ، استخدم كلمة «مسيه» بمعنى السيد ،

---

(١) عون الشريف قاسم «دكتور» قاموس اللهجة العامية في السودان ، ط١ ، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ١٩٨٥ .

وتستخدم أحيانًا بمعنى الأستاذ ، ودخلت هذه الكلمة في العربية التشادية في عهد الاستعمار الفرنسي .

ويتضح لنا مما سبق أن الشاعر لم يقتصر في هذه القصيدة على الألفاظ المقترضة من اللهجات الأفريقية بل اقترض بعض الكلمات الفرنسية ، وقد تنوعت الألفاظ لتشمل ألفاظًا مستوحاة من البيئة التشادية ، وكلمات مقترضة من اللهجات الأفريقية ، وأخرى من اللغة الفرنسية .

جاءت القصيدة الثانية التي حملت عنوان «الزغراطة» بألفاظ بسيطة وعادية ، تحمل في طياتها ألفاظًا أكثر جرأة وأكثر كشفًا للمشاعر الداخلية ، حيث استقطب الحديث عن المرأة أكثر من ٩٠٪ من محتوى القصيدة ، واشتملت القصيدة على معجمًا مصغرًا لملامح موصوفته والأدوات التي تتزين بها ، وأغلبها ألفاظ مشتقة من القاموس اللغوي التشادي ، وجاءت على النحو التالي :

في البيت الثاني ذكر «المرجان» .

وفي البيت العاشر ذكر «السبية» وهو شعر الخيل الطويل .

وفي البيت الرابع عشر استخدم لفظ «دخان» بمعنى البخور ، وفي نفس البيت استخدم لفظ «سكسكاي» بمعنى الخرز .

وفي البيت السابع عشر ذكر الشاعر «حديد ونار» بمعنى الذهب والفضة .

وفي البيت الخامس عشر ذكر الشاعر بعض الملامح الخارجية لموصوفته مثل اليد والرقبة .

وفي البيت السابع عشر ذكر الشاعر «الرأس المسمر» بمعنى الشعر الأسود .

وفي البيت التاسع عشر يذكر «الشعر الكردفان» بمعنى الشعر الكثيف ، وفي نفس البيت يذكر لفظ «الصوف» بمعنى الشعر .

ولا تخلو القصيدة من الكلمات المقترضة من اللهجات الأفريقية وجاءت على النحو التالي :

ففي البيت الثاني استخدم الشاعر كلمة «الميرم» وتعني المرأة الجميلة أو الأميرة وأحيانًا تأتي بمعنى بنات السلطان ، وهذه الكلمة تستخدم في العربية التشادية وفي بعض اللهجات الأفريقية .

وفي البيت الخامس استخدم كلمة «دود» بمعنى أسد ، وهي كلمة دخلت العربية التشادية من لغة البرنو ، إلا أن الدكتور عون الشريف يرى أنها لفظة سودانية وتعني «الأسد» ، وفي المناطق النيلية بجنوب السودان بمعنى التمساح [١] .

وفي البيت الرابع والعشرين استخدم «أم دمالج» بمعنى أم حجول ، وهذه الكلمات بمعنى إتقان الشيء وكما يقول الدكتور عون الشريف : « أتقن الشيء صنعته كما يصاغ الدملج وهي حلي يلبس في المعصم » [٢] .

وفي القصيدة التي حملت عنوان «كي تعالي» استخدم الشاعر ألفاظًا موحية ومعبرة عن تجربة عاطفية ، وذكر الشاعر أيضًا أسماء لبعض الأطعمة ، والزراعات المحلية ويتضح ذلك فيما يلي :

في البيت الرابع استخدم «غلة كدم» وهي الغلة التي تزرع في مكان عالي ، ويقال أن «كدم» كانت عاصمة وادا الأولى ، وفي نفس البيت استخدم لفظ

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

«سواري» وهو نوع من الغلال القديمة .

وفي البيت العاشر استخدم «قدح سمينا» وهو طبق لنوع من أنواع الطعام المشهور بدسمه .

وفي البيت السابع عشر استخدم الشاعر لفظ «بشن» وهو نوع من أنواع الزرع يتميز بوفرة محصوله .

ولا ينسى الشاعر ذكر بعض الملابس وأدوات الزينة ذات الخصوصية الإفريقية ، ففي البيت الرابع استخدم لفظ «كنفو سكي» وفي البيت العشرين استخدم لفظ «سكوبا» وفي البيت الثلاثين «دخان الكندكياي» وهو نوع من أنواع الدخان ذات الرائحة الجميلة ويتكون من عدة روائح .

أما عن الألفاظ المقترضة من اللهجات الإفريقية وخصوصًا من لغة البرنو فجاءت على النحو التالي

في البيت الرابع استخدم الشاعر لفظ «كدم» وفي نفس البيت ذكر الشاعر لفظ «كنفو سكي» والكنفوس قطعة من القماش تلف حول وسط المرأة الإفريقية ، دخلت هذه الكلمة من لغة البرنو في عربية تشاد .

وفي البيت الثالث عشر ذكر الشاعر لفظ «كنجق» بمعنى خنجر ، وهذه الكلمة على ما يبدو عربية اعتراها التحريف ، وهي كلمة معربة دخلت اللغة العربية من اللغة الفارسية ، إلا أن البعض ينسبها إلى لغة البرنو .

وفي البيت الثامن والعشرين استخدم الشاعر كلمة «الدمبجويا» بمعنى المرأة المتوسطة الطول والممتلئة الجسم ، ودخلت في عربية تشاد من لغة البرنو ، وفي نفس البيت استخدم الشاعر لفظ «القُمسو» وهو لفظ يطلق على كبرى

زوجات السلطان ودخل في عربية تشاد من لغة الكُتكو .

وفي البيت الأخير من القصيدة استخدم الشاعر لفظ «كرداي» بمعنى الارتداد عن الدين ويستخدم مسلمو تشاد هذه الكلمة على من لا دين له ، ودخلت هذه الكلمة عربية تشاد من الكاميرون ويقال أن كلمة «كرداي» اسم لقبيلة كاميرونية وثنية .

والقصائد الأخرى بها كثير من الألفاظ المقترضة من اللغات الأفريقية مثل «الطاري» بمعنى المهمل «الفرفوية» أي المرأة المحافظة على بيتها ، وكلمة «شمبرا» وكلمة «طنطرا» وهذه الألفاظ دخلت في عربية تشاد من لغة البرنو .

رابعا : الصور البلاغية :

تعتبر الصور البلاغية أحد أدوات الشاعر الفنية التي يستخدمها من أجل خدمة المضمون والفكرة ، وتتنوع الصور وتختلف ، ومن الصور البلاغية التي تستخدم في الشعر التشبيه ، والكناية ، والاستعارة .

أولا : التشبيه :

هناك عدة تعريفات عند علماء اللغة منها : أن التشبيه هو تماثل شيئين في صفة من الصفات مع زيادة الصفة في المشبه به على المشبه ، وللتشبيه عدة أنواع وهي : المفصل ، المجمل ، البليغ ، التمثيلي ، والضمني ، وقد حرص الشعراء على أن يأتوا في شعرهم بلطائف التشبيهات ، ويؤدي التشبيه دورًا مهمًا في إيضاح المعنى المقصود [١] .

ثانيا : الكناية :

المقصود بالكناية عند علماء اللغة أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعنى ،

---

(١) علم الجمال اللغوي ، القاهرة ١٩٩٥ ، (ص٥٦٥ ، ٥٦٦) .

فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تالية وردفه في الوجود ، فيومئ به إليه ويجعله دليلًا عليه [١] .

مثال ذلك «هذه امرأة نئووم الضحى» نئووم الضحى كناية عن الكسل حيث ذكر لفظ الضحى ولا يقصد النوم .

والكناية عدة أنواع : هي كناية عن صفة ، كناية عن موصوف ، كناية عن نسبة .

ثالثا : الاستعارة :

الاستعارة أحد فنون الأداء الدلالي وإبداعاته في اللغة العربية ، والاستعارة مأخوذة من العارية ، أي نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه ، أو هي باختصار تشبيه حذف أحد طرفيه وأنواع الاستعارة هي : استعارة مكنية واستعارة تصريحية ومن أمثلة ذلك «ولد الهدى فالكائنات ضياء» حيث شبه الهدى بأنه إنسان يولد وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية .

الصور البلاغية عند الشاعر موسى شوفير :

فيما يلي نستعرض استخدام الشاعر موسى شوفير لبعض الصور البلاغية من خلال النماذج المختارة من شعره في هذا البحث في القصيدة الأولى التي حملت عنوان «المال بي ماله» .

في البيت الثالث والعشرين : «شت خليل قبيلة سلطنة قبيل ما يعيش كل عزرائيل» .

---

(١) المرجع السابق .

استخدم الشاعر «عزرائيل» كناية ودلالة على الموت وكثيرًا ما يستخدم الشاعر كلمة سلطان أو شيخ كناية عن الاحترام، فعلى سبيل المثال في :

البيت الثاني : «سلطان عبد الرحمن هنا ميتو، المال بي ما له» .

في البيت الثالث يقول : « المال بي ماله شيخ النور ولد عبد الله المال بي ماله » .

وهناك صور بلاغية أخرى نجدها خلال أبيات القصيدة وهي كالتالي :

في البيت الثامن : «اسم كبير مثل النقارة، كن لمست بعض جاره»، هذا البيت كناية عن الشهرة واتساع النفوذ .

وفي البيت الثاني والعشرين : «خرسه ولد أبه نازل النقع» في هذا البيت نجد كناية عن الشجاعة والكرم .

وفي البيت الثامن والعشرين : «عاده بت طرشه قم طرده قم شبه جاموس الكاسر وتاه ضلمه» شبه الشاعر إحدى النساء بالجاموسة الهاربة .

والبيت الثاني والثلاثين، والخامس والخمسين كناية عن شجاعة أولاد القبيلة وقدرتهم على حمايتها وقت الشدة، وهكذا تتوالى الصور البلاغية عبر أبيات القصيدة .

وفي القصيدة التي حملت عنوان «الزغراطة» كثيرًا من الصور البلاغية، هذه الصور تنوعت بين الكناية والتشبيه، نذكر منها على سبيل المثال :

في البيت الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر كناية عن الجمال ورفعة الشأن حيث يقول الشاعر : «قل : حلوى بلا دخان، سمحة بلا مرجان رقيبتها سكسكاي صليبة أبو ندندال»، ويقول : «البطنية خالقه بلا مصران

الأيد خالقة بلا كيعان ، الرقبة خالقة بلا غردان دقاقت النبوة عايت الشيطان» .

وفي البيت السابع عشر : «الراس المسمر بحديد النار» استعارة مكنية حذف المشبه به وهو الشعر وأتى بشيء من لوازمه وهو الرأس ، والحديد والنار كناية عن الذهب والفضة .

وفي البيت الثامن عشر : «أبوك في البرية سار خالقه الكري وسط الدخان» هذا البيت كناية عن غني والد موصوفته فعندما يسير في الطريق يلتف حوله الناس حتى يتصاعد الغبار .

وفي القصيدة التي تحمل عنوان «كي تعالي» كثيرًا من الصور البلاغية منها :

في البيت الحادي عشر : «أكلنا كي شبينا قسمنا كي عيينا» البيت كناية عن كثرة الطعام ووفرته .

وفي البيت الخامس عشر : «رقبت جرير الطين قرنوب مازوينا» في البيت تشبيه حيث شبه الشاعر رقبة الموصوفة برقبة الجر الصغير المصنوع من الطين .

وفي البيت الثاني والعشرين : «فاطمة الناناية ، بت البقر ما تشبه ، شالوها في الجباية خلو سبيها برايه» في هذا البيت تشبيه حيث شبه موصوفته بالبقرة ووجه الشبه الجمال .

وفي القصيدة التي حملت عنوان «الخمبة مامرا» :

في البيت الخامس : «تدقه تمضغه جراب الغلة ، أيام أربعة» هذا البيت كناية عن الشراهة في تناول الطعام .

في البيت السادس عشر : «تكتل الغلة تحرته» كناية عن عدم التمييز بين الأشياء .

وفي القصيدة التي تحمل عنوان «خديجة قمر طلع» :

في البيت الأول : «خديجة أم عينا بيض ، خديجة قمر طلع خديجة ويي» في هذا البيت تشبيه حيث شبّه الشاعر : خديجة بالقمر .

في البيت التاسع عشر : «أبا سنوسي يجي قدام العقيد داود ببندق قتال» البيت كناية عن الشجاعة والإقدام .

في البيت الحادي والعشرين : «بير السانية تقتل الدخال ، بحر شاري كن غدر بياكل العوام» في البيت استعارة حيث شبه الشاعر البئر وبحر شاري بالإنسان الذي يقتل بالنسبة بالبئر ويأكل بالنسبة لبحر شاري .

ثانيا : الدراسة التطبيقية على النماذج الشعرية للشاعر عيسى عبد الله :

قبل التطرق للدراسة التطبيقية على النماذج الشعرية للشاعر عيسى عبد الله يجب أن أعطي لمحة سريعة عن حياة الشاعر ، فهو الشاعر عيسى عبد الله محمد فضل ، تنقل بين العديد من بلدان العالم ، تلقى تعليمه في السودان ، اشتغل بالإعلام حيث أصدر مجلة «المسيرة» الناطقة باسم جبهة .

«فرولينا» آنذاك ونشر فيها بعض الأعمال الشعرية واشتغل بالتدريس عندما عاد إلى أرض الوطن وإنتاجه الشعري يتنوع بين الشعر الشعبي والشعر الفصيح ، ويحتوي شعره على معظم الأغراض : الوصف والغزل والفخر والمدح ، ويعتبر من رواد النهضة الأدبية في العصر الحديث في تشاد ، وله إسهامات عديدة في المجالات الأدبية والفكرية والسياسية .

وقد اخترت من بين ما كتب بالعامية أربع قصائد ، وهذه القصائد تعبر عن خلاصة تجربة إنسانية عايشها الشاعر :

أولا : العناوين :

لقد تعرضت في هذا البحث لأربع قصائد للشاعر عيسى عبد الله وهي على النحو التالي :

القصيدة الأولى بعنوان : «لون زينب» وتتكون من ستة عشر بيتًا .

القصيدة الثانية بعنوان : «الجنة في داري» وتتكون من واحد وعشرين بيتًا .

القصيدة الثالثة بعنوان : «ملاك الرحمة» وتتكون من أربعة وعشرين بيتًا .

القصيدة الرابعة بعنوان : «بشتنة» وتتكون من ثلاثة وعشرين بيتًا .

ثانيا : الفكرة والمضمون :

القصيدة الأولى : التي جاءت بعنوان «لون زينب» تقدم وصفًا لحسناء اسمها زينب ، واللون يعني الطابع وحسن الخصال ، وأحيانًا يشير إلى اللون كلون .

فالشاعر ـ في هذه القصيدة ـ يقدم وصفًا ومدحًا لخلق ولجمال حسنائه وكذلك لطبائعها ، فهي الحسناء التي تربت على الأخلاق والمثل العليا ، فأدبها مثل الذهب الصافي ، وأم زينب ليس لها مثيل في خلقها وأخلاقها ، وبيتها بيت كرم وسخاء ، فأهل زينب كما يقول الشاعر «جمال الشيل» وهو مثل عند التشاديين للدلالة على الكرم .

ومن خلال توالي التشبيهات يستمر الشاعر بخفة ومهارة في وصف ملامح حسنائه فشعر زينب «سبيب الخيل» أي أنه شديد الطول والاستقامة مثل شعر الخيل الذي يعني به في تربيتها ، وهو شعر شديد السواد ، ولون زينب مزيج «العجوة بالكاكاو» ، أما عيون زينب مثل «بحور الضوء» وحديثها جميل

وصوتها عذب مثل «نغيم الناي» ، لم يوفق الشاعر في اختيار هذا اللفظ «الناي» لأن صوت الناي يعبر عن الحزن والشجن ، وأما نفسها فهو كالشذا يجعل الجو معطرًا ، وهذا العطر ينتشر لمسافات طويلة «من الدامر حتى وداي» .

وفي نهاية القصيدة ، يصف الشاعر زينب بالخفة والنشاط ، فإذا ما طلب منها أي عمل تقوم به «بدون تأخير ولا بدون تغيير رأي» ، ويضيف الشاعر أن زينب ليست كبقية بنات جنسها ، فخلقها وأدبها مثل العسل الذي يتداوى به المرضى .

والخلاصة أن القصيدة تطرح مضمونًا واقعيًا من خلال وصف الشاعر «لزينب» بنت البلد والتي تربت في أسرة أصيلة تربية تشادية «لارومية ولا لاتينية» .

وحملت القصيدة الثانية عنوان «الجنة في داري» ويتناول الشاعر من خلال أبياتها موضوعًا هامًا في حياة الإنسان ، وهو عذاب الغربة والحنين إلى الوطن ، فقد بدأ القصيدة بذكر عواصم بعض البلدان التي تنقل بينها ، فمن طوكيو إلى لندن ومنها إلى باريس ، لقد قضى كثيرًا من سنين عمره بعيدًا عن وطنه ، فالغربة كما يقول «كيف النار» ففيها لا تجد جارًا يسأل عن حال جار ولا ناسًا يكرمون الضيف مثل أهل «سار» ولا ناسا شجعان مثل أهل «منقلمي» أول الثوار .

والقصيدة تطرح فكرة إنسانية هامة أخرى وهي الصدق والأمانة ، فمن كل البلدان التي قاسى فيها عناء الغربة لم يجد صديق وفي ومخلص ، لا كذابًا

ولا فتانًا ، ولا مستهترًا ولا سكيرًا ، ويذكر أن هذا الصديق لم يجده إلا في «داره» أي في وطنه ، فأهل وطنه يتصفون بالصدق والكرم ، وكرمهم كما يقول : مثل كرم نهر «الشاري» ، ويتمنى أن يكون بني وطنه أوفياء مثل «علي ومنشاغ» وذكر الشاعر اسمين ربما من منطقتين مختلفتين جغرافيًا فالأول من الشمال والثاني من الجنوب للدلالة على نسيج الوطن الواحد والتعايش بين جميع أفراد المجتمع التشادي .

والخلاصة أن الأبيات تبين لنا مدى حب الشاعر لوطنه وانتمائه لترابه وأهله .

وفي القصيدة الثالثة التي تحمل عنوان «ملاك الرحمة» يتغزل الشاعر بحسناء ويشبهها «بملاك الرحمة» تارة «وبالملاك الكريم» تارة أخرى ، وهو ـ على ما يبدو ـ يتغزل في حسناء تمارس مهنة التمريض ، ففي بداية القصيدة يلفت الشاعر انتباه المتلقي بأن هذه الحسناء من أهل الحلة ، والحلة هنا لها أكثر من معنى وتفهم حسب سياق الحديث ، فتارة تأتي بمعنى الحي ، وتارة بمعنى القرية وبرؤيتها يشعر بقدوم الشهر فهي كالبدر ، ويطنب الشاعر كثيرًا في وصفها فهي «كاللبن» في الصفاء ، و«كبياض ثلج السويد» في النبل ، وهذا الصفاء والنبل في ازدياد دائمًا ، وهي كما يقول مثل «ملاك الرحمة» بل أفضل لأنها تداوي «العيانة والأرمل» ، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن طبيعة عملها ، وخفة أدائها ، فهي موجودة في «الإسعاف وفي المعمل ؛ وفي الصالة وفي العنبر» وتستطيع أن تداوي الدنيا «بحالها» أي بمفردها ، لذلك تمنى الشاعر أن يكون مريضًا لأنه سوف يجد الشفاء بين يديها بعد الله سبحانه وتعالى ، فهي كثيرًا عالجت علل ، وفي النهاية يدعو الشاعر أن يرعاها الله لأنها

مثال للجد والاجتهاد في سبيل راحة المرضى .

أما القصيدة الأخيرة فحملت عنوان «بشتنة» ففي هذه القصيدة يتعمق الشاعر بصورة أكبر في تركيز على الموضوعات الاجتماعية ، فهو يقدم هجاء للمرأة التي لا تلتزم بالعادات والتقاليد النبيلة ، وعبر أبيات القصيدة يبين الشاعر بعض سلوكيات المرأة التي تتعارض مع العادات والتقاليد التشادية الأصيلة : من ملبس وزينة وغيرهما .

وفي نهاية القصيدة يذكر الشاعر بأن المرأة التي تخرج عن العادات والأخلاق القويمة لا يعتمد عليها ؛ لأنها لا تكون عونًا على الحياة ولا يكون لها دور في المجتمع ، فهي امرأة لا قيمة لها ؛ لأنها «خمبة» أي كسولة .

ثالثا : الألفاظ والتراكيب اللغوية عند الشاعر عيسى عبد الله :

قبل التطرق إلى الألفاظ المستخدمة في قصائد الشاعر عيسى عبد الله علينا أولًا تحديد المستوى اللغوي الذي اعتمد عليه الشاعر ، فمن خلال التأمل في قصائده نرجع أسلوبه إلى مستوى لغوي متوسط ، وعليه جاءت ألفاظ القصائد متناسبة مع هذا المستوى اللغوي ، وهي جاءت كالتالي :

جاءت ألفاظ القصيدة التي تحمل عنوان «لون زينب» رومانسية موحية ، وقد احتوت على ألفاظ تميزت بالعفة ، وتعكس صورة المرأة النبيلة والجميلة في نفس الوقت ، وجاء كالتالي :

في البيت الثاني يقول : «لون زينب بي حلات التين» .

وفي البيت الثالث يقول : «أدب زينب ذهب صافي» .

وفي البيت السادس يقول : «ولون زينب خدار داري» .

وفي البيت التاسع يقول : «شعر زينب سبيب الخيل» .

وفي البيت العاشر يقول : «سواده وطوله مثل الليل : حرير لا مرخي لالو لاو » .

وفي البيت الثالث عشر يقول : «عيون زينب بحور الضوء» ، وفي نفس البيت عند حديثها يقول : «حديث زينب نغيم الناي» .

وفي البيت الرابع عشر عن رائحتها الذكية ونفسها يقول : «نفس زينب محلى الجو» .

وفي البيت السادس عشر يقول : «ولون زينب عسل داواي» .

وعلى الرغم من أن ألفاظ القصيدة عامية إلا أن الشاعر المعروف ، بثرائه اللغوي قام باستعراض بعض الألفاظ المقترضة من اللغات الأوروبية فعلى سبيل المثال اقترض كلمة «الروتين» ، والتي تعني النظام الذي لا يتغير ولا يتبدل ، وكذلك استخدم كلمة «الكاكاو» وهي من الألفاظ الأعجمية التي دخلت إلى اللغة العربية مع جملة الألفاظ التي دونها العرب ، والتي ما كان العرب يعرفونها حينما أرادوا ترجمة العلوم ، ومن هذه الألفاظ أصناف النبات والزهور ، وكذلك استخدم الشاعر كلمة «الكنتين» ويعني المحل التجاري .

أما الألفاظ التي استخدمها الشاعر من اللغات الإفريقية فهي قليلة ، ويرجع ذلك إلى طول المدة التي قضاها في البلدان العربية خارج وطنه ، حيث تشبع بالثقافة واللغة العربية ؛ ولذلك جاءت مفرداته مألوفة ، واعتمد فيها على مدلول مباشر يمتاز بالسهولة والبساطة في التركيب .

وفي قصيدة «الجنة في داري» استخدم الشاعر عامية ممتزجة بألفاظ تميزت

بالرقي ، خاصة في وصف الصديق الذي ينشد الشاعر أن يقابله ، وكذلك الألفاظ المعبرة عن عذاب الغربة والحنين للوطن ، وقد سادت ألفاظها طابع وطني واضح ، فالألفاظ جاءت معبرة عن المضمون واقتربت من الملتقى ، فعلى سبيل المثال :

في البيت الأول يقول : «سنين عدن ولي لشاري وأنا مباري» ، فالشاعر كان متتبعًا لكل ما كان يجري داخل وطنه الذي رمز له «بشاري» أي النهر الذي يفصل تشاد عن الكاميرون .

وفي البيت الثالث عشر يقول : «بفوت ما داري تاري الجنة في داري» والبيت يعبر عن الحب للوطن والحنين له .

وفي البيت الثالث عشر يقول : «في دار الغربة العيشة كيف النار» أي أن العيشة في الغربة قاسية وصعبة .

وفي البيت السابع عشر يقول : «معيشة الغربة ما جبارة ما بتندار» أي أن الغربة لا تطاق ، والقصيدة لا تخلو من الألفاظ المعبرة عن الصدق والأخلاق الحميدة ، ومن أمثلة ذلك :

في البيت الخامس ، والسادس ، والسابع ، والثامن عن الصدق والصديق يقول :

بفتش لي رفيقًا ما هو مستهبل .

ولا كضاب ولا للفتنة مسبل .

ولا خلباطي متهبر ومتمبل .

ولا نادم هنا قالا ولا أم بليل .

والقصيدة لا تخلو من الألفاظ التي تعبر عن الواقع التشادي ، وهي ألفاظ موحية وتتوافق مع المحتوى المضموني للقصيدة .

ففي البيت الثامن استخدم الشاعر لفظي «قالا وأم بليل» وهي أنواع من الخمور المحلية .

وفي البيت التاسع استخدم لفظ «مسبل» بمعنى المتسبب .

وفي البيت الثاني عشر استخدم لفظ «يجغم» بمعنى يشرب جرعة ، وهذا اللفظ كما يقول الدكتور عون الشريف : لفظ سوداني ودخل في العربية التشادية من السودان نتيجة للتجاور والاختلاط بين الشعبين .

والقصيدة بها ألفاظ لأسماء أجنبية ومحلية :

ففي البيت الثاني ذكر أسماء مدن أجنبية مثل : طوكيو ولندن وباريس .

وفي البيت الخامس عشر ذكر أسماء مدن محلية مثل «سار» وهي مدينة تقع في الجنوب .

وفي البيت السادس عشر ذكر «منقلمي» وهي مدينة صغيرة تقع بمديرية «قيرا» التي اشتهرت بثوراتها .

ومن الألفاظ الأجنبية التي استخدمها الشاعر في هذه القصيدة كلمة .

«فيل» بمعنى مدينة ودخلت عربية تشاد من اللغة الفرنسية .

وفي قصيدة «بشتنة» استخدم الشاعر عيسى عبد الله بعض الألفاظ المقترضة من اللغات الإفريقية منها على سبيل المثال :

في البيت الثاني استخدم الشاعر لفظ «كعبة» بمعنى لا قيمة لها ، وهي كلمة سودانية .

وفي البيت السابع ، استخدم تعبير «سجم خشمك» ويعني اللامبالاة ، وأحيانًا يأتي بمعنى ويحك ، وعنوان القصيدة نفسه «بشتنة» ربما يكون مقترض من لغة البرنو ، وكلمة «بشتنة» تعني السلوك السيء .

وفي البيت الثاني عشر استخدم لفظ «خمبة» بمعنى الكسولة ، وهي كلمة تشادية ذات جذور أفريقية .

وفي البيت الرابع عشر استخدم تعبير «بدون لولا ولا لجلاج » وهذا تعبير متداول في العربية التشادية ، ويعني القدرة على التفوق والمهارة .

أما الألفاظ الأجنبية في هذه القصيدة فهي قليلة ، فلم يستخدم إلا كلمة «مكياج» الفرنسية بمعنى أدوات الزينة ، وهي كلمة متداولة في معظم لهجات الدول العربية .

وهكذا نلاحظ تعدد الألفاظ المقترضة من اللهجات الإفريقية ، وخصوصًا السودانية وقليلًا من الألفاظ المقترضة من اللغات الأوروبية ، فمظاهر التنوع اللغوي سمة سائدة في قصائد الشاعر عيسى عبد الله على المستويين المعجمي والدلالي ، وقد كثرت المفردات الإرشادية التي اتخذت من الأمثال طابعًا وشكلًا مميزًا لها كما بينا سابقًا .

رابعًا الصور البلاغية عند الشاعر عيسى عبد الله :

في عجالة نستعرض استخدام الشاعر لبعض الصور البلاغية من خلال قصائده التي اخترناه فيما يلي :

ففي القصيدة الأولى التي حملت عنون «لون زينب» .

في البيت الثاني : «ولون زينب دا ما زيتون ، مطعم بحلات التين» تشبيه

حيث شبه الشاعر حلاوة زينب بحلاوة التين .

وفي البيت السادس : «ونور أخوتها ما خافي ، ولون زينب خدار داري» في الشطر الأول من البيت استعارة تصريحية ، والشطر الثاني دلالة على الخضرة والنماء ولاسيما في فصل الخريف .

وفي البيت الثامن : «أهل زينب جمال الشيل ، زرع زينب كأنه الشاو» الشطر الأول من البيت دلالة على الكرم وفي نفس الوقت استعارة تمثيلية ، والثاني كناية عن علو الشأن السمو .

في البيت التاسع : «شعر زينب سبيب الخيل ، ربن في العزة ما فلاو» البيت تشبيه حيث شبه الشاعر شعر زينب بشعر الخيل التي يعني بتربيتها .

وفي البيت العاشر : «سواد وطوله مثل الليل ، حرير لا مرخي لا لو لاو » .

البيت كناية عن طول شعر زينب واستقامته .

في البيت الثالث عشر : «عيون زينب بحور الضوء ، حديث زينب نغيم الناي» ، في المقطع الأول من البيت تشبيه حيث شبه عيون زينب في لمعانها بالضوء ، وفي المقطع الثاني من البيت تشبيه حيث يشبه صوت زينب العذب والرقيق بصوت الناس ، إلا أن هذا التشبيه يؤخذ على الشاعر ؛ لأن صوت الناي يتميز بالحزن والشجن .

وفي البيت العاشر : «سماح باقي البنوت بسو ، ولون زينب عسل داواي» .

الشطر الثاني من البيت كناية عن جمال الطبع وقوة الجمال .

وفي القصيدة التي جاءت بعنوان «الجنة في داري» :

في البيت الرابع : «مرق طول بروغ وبغربل» كناية عن كثرة الترحال .

وفي البيت الثالث عشر : «في دار الغربة ديمة العيشة كيف النار» في هذا البيت تشبيه حيث شبه الشاعر حياة الغربة بالنار لقسوتها وصعوبتها .

وفي البيت التاسع : «بريد ناس السخو الكل شبه شاري» تشبيه واستعارة حيث شبه نهر الشاري بالإنسان الكريم والسخي ، وهو يريد كل أهل تشاد في الكرم مثل نهر شاري .

وفي القصيدة التي تحمل عنوان «ملاك الرحمة» :

في البيت الثاني : «ولا ملاك كريم طل ، عليها قوقلو اسم الله» في البيت تشبيه حيث شبه موصوفته بالملاك الكريم .

وفي البيت الثالث : «دا زي اللبن سواء ، كمان والله القلب جوا» ، تشبيه حيث شبه الحسناء في الصفاء والنقاء داخليًا وخارجيًا بصفاء وبياض اللبن .

وفي البيت الرابع : «بياض ثلج السويد روا ، تقول من القمر ضوي» ، كناية عن شدة الجمال ونقاء السريرة .

*****

الخاتمة

تحمل النماذج الشعرية المختارة للشاعرين التشاديين موسى شوفير، وعيسى عبد الله قيمة فكرية وأدبية، واتسم شعر الأول بالأسلوب البسيط والثاني بالأسلوب المتوسط، واتسمت ألفاظ الشاعر موسى شوفير بالنزوح نحو واقع الحياة التشادية المتأثرة بالمحيط الإفريقي، وكانت على قدر من الصعوبة في فهم الدلالات الخاصة بها، أما الشاعر عيسى عبد الله فقد نجح في رسم أفكاره بكلمات سهلة وبسيطة وبعيدة عن التعقيد الدلالي والصوتي.

وقد اقترضا الشاعران ألفاظًا من اللغات الإفريقية وكذلك من اللغة الفرنسية، إلا أن الاقتراض من اللغات الإفريقية واضحًا جليًا خلال قصائد الشاعر موسى شوفير الذي حرص على استخدام هذه الكلمات دون تغيير في المعنى، أما الاقتراض في قصائد الشاعر عيسى عبد الله كان قليلًا ويرجع ذلك إلى بقائه خارج الوطن مدة طويلة وخصوصًا في البلدان العربية، وكذلك لثقافته العربية الواسعة منذ النشأة.

ويلاحظ أيضًا أن بعض الألفاظ المقترضة طرأ عليها تغيرًا صوتيًا، بمعنى أنها تعرضت للتحريف، ولا سيما بالنسبة للكلمات الأعجمية؛ ذلك لأن «الكلمات المقتبسة تخضع كما يقول الدكتور علي عبد الواحد لبعض التحريف في أصواتها وأوزانها وطريقة نطقها، وتبعد عن صورتها الأولى» [1].

ويتضح من ذلك أن اقتراض اللغات من بعضها البعض يتماشى مع التطور

---

(١) علي عبد الواحد وافي «دكتور»، علم اللغة، ط١، دار النهضة، القاهرة، (ص٢٣٥، ٢٣٦).

اللغوي ، وهو ما يثري ألفاظها ويضيف إلى مفرداتها ، وكما يقول ابن جني في كتابه الخصائص : «وهذا موضع شريف ، والمنفعة به عامة ، والتساند إليه مقوٍّ مجدٍ» [(١)] .

وعلى الرغم من أن تداول الأساطير سمة مميزة تغلب على المجتمع الإفريقي ، إلا أن الشاعرين لم يعتمدا على أي منها عبر أبيات القصائد التي اخترناها ، ولم يلجأ للرمزية ، ويبدو أن عدم استعانتهما بالرمزية يرجع لاتسامهما بالجرأة في النقد ، فلم يخشيا من نقدهما لبعض العادات والتقاليد الاجتماعية الخاطئة .

وأخيرًا ، فلقد لاحظنا أن الشاعر التشادي يوجه اهتماماته نحو القضايا الاجتماعية والقومية والسياسية ، وينشر ـ من خلال إبداعاته ـ تأصيل هوية بلده الخالصة ، ويحاول من خلال أشعاره أن يصحح بعض العادات والتقاليد والموروثات الاجتماعية الخاطئة ، ويدعو إلى مستقبل مشرق لشعب يسعى للانعتاق من الجهل والتخلف ، وكذلك يدعو إلى الوحدة الوطنية بين نسيج أبناء الوطن الواحد .

ومع ما بذل في هذه الوريقات من جهد ، فإنها تظل بعيدة عن أن يدعي أنها برئت من النقص ، بل إن صاحبها ليبوء وهو الدخيل بعجزه ـ وبعدم بلوغ الكمال الذي هو لله وحده .

والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور / مصباح السيد محمد سالم

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، ج١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (ص٣٥٧) .

المصادر والمراجع

١ ـ أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، ج١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٢ ـ إبراهيم أنيس دكتور ، دلالة الألفاظ ، ط٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م .

٣ ـ إبراهيم أنيس دكتور ، من أسرار اللغة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م .

٤ ـ تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م .

٥ ـ توفيق زياد ، عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٠ .

٦ ـ ج . قندرس ، اللغة تعريب د. عبد الحميد الدواخلي ، ود. محمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة «بدون تاريخ» .

٧ ـ شوقي ضيف «دكتور» ، تحريفات العامية للفصحى في القواعد والبنيان والحروف والحركات ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٤م .

٨ ـ عبد الحميد حسن ، الألفاظ اللغوية ، خصائصها وأنواعها ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٩ ـ عون الشريف قاسم «دكتور» قاموس اللهجة العامية في السودان ، ط١ ، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ١٩٨٥ .

١٠ـ علي عبد الواحد وافي «دكتور» ، علم اللغة ، ط١ ، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

١١ـ كمال محمد بشر ، علم اللغة العام ، القسم الثاني ، الأصوات ، دار المعارف المصرية ، القاهرة ١٩٧٥م .

١٢ـ لطفي عبد البديع ، الشعر واللغة ، دار نوبار للطباعة ، القاهرة ١٩٩٧م .

١٣ـ محمد سليمان ياقوت ، علم الجمال اللغوي ، ط القاهرة ١٩٩٥ .

١٤ـ مدحت الجيار «دكتور» الشعر العربي من منظور حضاري ، دار النديم ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

١٥ـ مدحت الجيار «دكتور» ، الشاعر والتراث ، دار النديم ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

١٦ـ يوهان فك ، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٧٥م .

*****

التعليم والتنمية في أفريقيا من خلال نشاط جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

د. محمود أحمد الديك (*)

مفهوم التنمية وأبعادها :

إن قضايا التنمية والتعليم من الإشكاليات الحيوية التي تشكل حيزًا مهمًا في سياسات الدول ، وهاجس يشغل بال المجتمعات التي تسير في اتجاه النمو والتغير نحو الأفضل ، وهي المعيار الذي يقاس به تطور كل دولة ، وما مدى ما يخصص من أموال وخطط وبرامج على التنمية والتعليم والبحث العلمي ، والتنمية تعد محور أساس في تكوين أية دولة والتي يطلق عليها أحيانًا مفهوم التنمية البشرية الشاملة ، وهناك بعض المفاهيم التي تربط التنمية بالجانب الاقتصادي وتحصره في الجانب التقني ، ولكن متطلبات العصر وحاجات المجتمع تجاوزت ذلك المفهوم إلى جوانب أخرى لتشمل الاجتماعي والثقافي وغيره .

فالتنمية الشاملة لم تعد تخضع للصدفة أو لعمل موسمي غير منتظم ، بل أصبحت تخضع لدراسات معمقة من قبل المتخصصين ، وفق برامج تتوافق مع إمكانيات واحتياجات المجتمع ، وتضع في حسبانها تنفيذ الأوليات في الخطط ، فبعض الدول حددت مستهدفات وزمنًا معينًا لتنفيذ خطة التنمية ، مثل ما يطلق عليها الخطة الثلاثية أو الخماسية إلى غير ذلك [١] .

(*) أستاذ بجامعة الفاتح ليبيا .

(١) المركز الأفريقي للبحث التطبيقي في مجال الإنماء الاجتماعي ، دراسات مجلة فصلية ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، السنة الرابعة ، العدد الثاني عشر ، ٢٠٠٣ ، (ص١٢٦) .

إذًا التنمية هي عملية تكامل استراتيجي تستهدف تطوير وتحسين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكذلك السياسية ، بل هي أحيانًا تتغير لكافة جوانب الحياة مما يؤدي إلى رفع مستوى دخل الفرد والمجتمع وتطوير الحياة والمجتمع ، والإنسان هو الغاية النهائية للتنمية ، فالتنمية مفهوم اجتماعي شامل متعدد الأبعاد والجوانب ، وهي لا تعنى بجانب واحد فقط كالجانب الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي وإنما تحيط بكافة جوانب الحياة على اختلاف صورها وأشكالها فتحدث فيها تغيرات كيفية عميقة وشاملة .

ويهدف البعد الاجتماعي للتنمية إلى إحداث تغيرات شاملة في البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع ، وينصب هذا التغيير على التركيبة السكانية للمجتمع من خلال نظمه الاجتماعية وأنماط العلاقات السائدة فيه ، والحفاظ على القيم والمعايير والمعتقدات والاتجاهات السليمة التي تؤثر في سلوك الأفراد والتي تحدد مكانتهم وأدوارهم في مختلف التنظيمات الاجتماعية التي ينتمون إليها .

كما يتناول مختلف المشكلات المتصلة بالتغيير الاجتماعي والعمل على حلها ويدخل في إطار هذا البعد العمل على الوفاء بالاحتياجات الأساسية اللازمة للمواطنين كالإسكان والخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية والتأمينات وتوفر كافة خدمات البنية الأساسية وغير ذلك من الخدمات .

ويهدف البعد السياسي للتنمية ، لتهيئة البيئة السياسية الصالحة كأداة تقود المجتمع لتنفيذ البرنامج التنموي الشامل ، والعمل على مشاركة جميع أفراد المجتمع في تسيير أموره السياسية الخاصة به ، بغية تحقيق الديمقراطية ، ولا

يتحقق ذلك إلا من خلال الاستقرار السياسي واستتباب الأمن والسلام ، والعمل على حل وفض الخلافات والمنازعات بطريقة سليمة وفق الأطر واحترام وتطبيق الاتفاقيات المتفق عليها .

إن الهدف الحقيقي للتنمية هو زيادة الخيارات الإنمائية أمام الأفراد ورغم أن الدخل هو أحد جوانب هذه الخيارات بل إنه من بين الجوانب العظيمة الأهمية فإنه لا يمثل الهدف الأسمى من الوجود البشري ، فقد لا تقل عن ذلك في الأهمية العناصر الأخرى في معيشة الناس مثل الصحة والتعليم والبيئة الطبيعية الجيدة والحرية .

التنمية واتجاهاتها في إفريقيا :

تعتبر القارة الإفريقية من المناطق الغنية في العالم من حيث توافر الموارد الطبيعية والمواد الخام ، فالتنوع المناخي والتضاريسي والجغرافي والاستراتيجي جعل منها منطقة جذب ، وقد طمعت فيها الإمبريالية الغربية منذ عدة قرون ، وما استغلته هذه القوى لصالحها في الماضي ، وما هو يستغل الآن من قبل الشركات والاستثمارات الأجنبية ويعود عليها وحدها بأرباح ضخمة لا يوازي العشر من قدرات وإمكانيات ومخزون القارة ، فالموارد المتوفرة لم توظف بالصورة المثلى ولم تعد بالنفع على سكانها حتى الآن ، بل لا زالت الشركات متعددة الجنسية الأجنبية تبتز وتحتكر خيرات أفريقيا لصالحها من خلال اتفاقيات وعقود طويلة الأمد وهي مجحفة في حق أصحاب الأرض .

فقضية التخلف لن تكون حتمية ، وهي ليست فطرية تتصف بها شعوب وتحرم منها شعوب أخرى كما يدعي الغرب الذي يشكك باستمرار في دراساته وبحوثه وتصريحات زعماءه بأن الأفارقة ليس لهم تاريخ أو حضارة ،

وبالغوا في التقليل من قدرات الأفريقي في مواكبة التطور والتقدم ، وهي نظرة استعلائية ، ترتكز على نظرية التفوق العرقي العنصري ، إذًا المشكلة في رأينا هي بسيكولوجية عقدة تفوق الغرب التي حاول المستعمر غرسها في العقول منذ المراحل الأولى للاستعمار الذي كان يستبعد ، العنصر البشري الإفريقي في التعلم والمشاركة في التنمية ، ولم يعمل الاستعمار على تأهيل الشباب الإفريقي حتى في مرحلة ما بعد الاستقلال .

ولكن الواقع والحقيقة لم تعد تنطلي على الأجيال الواعية المتعلمة ، فالقدرات العقلية البشرية الفنية الأفريقية ، التي تبدع وبمهارة فائقة في الصناعات التقليدية وفن الزخرفة الرفيعة المستوى والتي تتخرج من الجامعات الغربية ، هذه القدرات تحتاج منا لوقفة تأمل وتدبر ، إذ كيف يبدع الأفارقة في مجالات الفن التشكيلي المعقد وممارسة الرياضة والموسيقى والرقص ببراعة ، بينما نجدهم متخلفين في القطاعات الأخرى والمهمة في حياة الأفريقي ، وخصوصًا في الجانب الاقتصادي والعلمي يتحكم فيها المستغل الغربي .

وحتى المحاولات التنموية التي جرت في بعض الدول الأفريقية ، واجهت انتقادات وتشكيك في نجاحها ، فالتنمية الاقتصادية السريعة كما يقول «شوار نزنبرج» في كتابه علم الاجتماع السياسي : « إن التنمية الاقتصادية التي انبثقت في دول العالم الثالث لم تسفر عن القضاء على الانقسامات الاجتماعية والمحلية والثقافية ، بل إنها بالعكس أدت إلى ظهور المزيد من التفكك والتنوع فقد انقسم المجتمع بفعل التنمية إلى قطاعين أحدهما القطاع التقليدي ذو السمات الريفية والزراعية والثقافية القديمة ، والجانب الآخر الحضري الذي انخدع

بالمظاهر الغربية .

ومن الناحية الموضوعية ، نجد أن غالبية الدول الأفريقية ، قد لجأت إلى استعارة أنماط وخطط وبرامج للتنمية من الدول المتقدمة ، ويمكن القول : أنها فرضت عليها فرضًا أحيانًا ، في إطار المساعدات أو الاتفاقيات الدولية ، وهي في الغالب لا تتناسب مع واقع المجتمع الأفريقي ، فقد اتجهت بعض الدول إلى استعارة التكنولوجيا الصناعية المتقدمة على أساس أن في ذلك مسايرة لركب التقدم العلمي والتكنولوجي في العالم دون النظر إلى الظروف واحتياجات ومدى ملاءمة هذه التكنولوجيا للواقع الأفريقي ، وما سيترتب على ذلك من زيادة الاعتماد على الخارج والتبعية له ، وما ترتب عليه من إهمال في الزراعة وتنمية الصناعة التي تتماشى وحاجات المواطن .

إن إشكالية تكريس الفقر والتخلف تبدو عملية مبرمجة منذ عقود وقد تستمر لسنوات طويلة إضافية ، إذ كيف يعقل في بلد مثل تشاد ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أن تتعطل أو تنعدم الكهرباء في المدن الكبرى أو في بعض أقاليمه ، وهذا البلد يمكن أن يتحصل على الطاقة الكهربائية من خلال استغلال الأنهار أو من الطاقة الشمسية التي لا تغيب أبدًا ، إذًا أين هي المشكلة ؟ وقس على ذلك كل النشاط الزراعي والتجاري والرعوي في أغلب أقطار القارة الإفريقية ، أنهار وعيون تتبدد في البحار والمحيطات أو تتبخر مع ارتفاع الحرارة ، وكيف يعقل أيضًا أن تكون هناك مجاعات وآلاف يموتون في قارة مثل أفريقيا ، وبقدر ما نتساءل عن عمق هذه الإشكالية تجد من يجيبك بكل بساطة : إن هذا كله مرجعه للاستعمار .

إننا لا نعفي الدول التي استعمرت القارة من جزء كبير من المسؤولية ، ولكن الدول حين استقلت في الستينيات من القرن الماضي ، وإن كانت بدون مؤسسات وخزائنها خاوية ، ومع ذلك مضى نصف قرن ولم تحقق الحكومات طموحات شعوبها في نقلها من مرحلة التخلف ، بل إن المشاكل تتفاقم والأمثلة كثيرة ، فالصراع على السلطة الذي يضحي بكل أمل في الخلاص والحروب الحدودية ، تشغل وتستنزف القدرات البشرية والمادية ، وتغوص الدول في هذه المشكلات المزمنة وكأنه مرض عضال .

وحتى الدول التي هي بمنأى عن الصراع وتحظى باستقرار نسبي يلاحظ أن خلال معركتها التنموية ، ركزت على التسليح بحجة الدفاع عن الأخطار وهذا حق مشروع ، ولكن مبالغ فيه بدرجة أن يستنزف نصيب كبير من الميزانية ، ثم توجهت نحو القطاع الاقتصادي الاستهلاكي بمعنى توريد المصنع قبل تأهيل الأفراد لمتابعة التحديث ، والذي حصل أن المصانع في العالم الغربي تتطور بشكل سريع ، بينما بقيت التقنية في أفريقيا تراوح مكانها حتى أصبحت عديمة الفائدة ، ومن هنا فإن المنافسة بين الدول الصناعية الكبرى على مستوى الإنتاج الذي يحطم الحدود ويفرض على السوق استهلاك سلعه ، الأمر الذي أدى إلى تعثر جهود التنمية لاصطدامها بالواقع الاجتماعي والقيم السائدة في هذه المجتمعات .

ومن عوامل تعثر برنامج التنمية في أفريقيا توجه قطاع كبير من الشباب نحو الحضر والتركز والإقامة الدائمة في العواصم وهجر القرى والأرياف ، والبحث عن لقمة العيش والكسب السهل والسريع من خلال الأعمال البسيطة والوضيعة في الإدارة والحراسة وغيرها من الأعمال الخدمية الغير

إنتاجية ، الأمر الذي أضر بشكل كبير في إهمال الزراعة وهي عصب الحياة وتعطل القطاع الصناعي .

وأظهرت الأبحاث الخاصة بالتنمية في أفريقيا ، أن القطاع الزراعي هو أكثر القطاعات أهمية ، وبالتالي يستلزم العمل بجد على تطوير وتحسين الأداء في إعداد برامج موجهة نحو الشباب للعمل في هذا المجال بالسبل والطرق العصرية ، وتشجيع الملكيات الصغيرة والعمل التشاركي وتنشيط الجمعيات التعاونية للمساهمة في البرنامج العام الذي تتبناه الدولة .

ومن أهم دعائم التنمية في أفريقيا وهي تقترب من أعتاب القرن الحادي والعشرين ، العمل على إزالة العوائق التي تعرقل التعامل الاقتصادي من بينها تأمين الاستقرار السياسي ، والإصلاح الاقتصادي والحفاظ على الحريات الفردية التي يخولها القانون ويضمن سلامة وحماية الاستثمار والمستثمرين الأفارقة والأجانب ، والعمل على تخفيف من الأعباء البيروقراطية وضرورة تنظيم الضرائب بما يسمح بزيادة الإنتاج والتقليل من الاستدانة من الخارج .

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية وإسهاماتها في التنمية في بعض الدول الأفريقية :

تعتبر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية جمعية غير حكومية ، ومجال تحركها ينطلق وفق التشريعات والمنظمات الأهلية ذات الطابع الخيري الإنساني ، واتصفت بالعالمية لسببين أن أولهما : إدارة الجمعية ليست حكرًا على الليبيين فهي تضم في هيكلها الإداري جنسيات وألوان مختلفة من العالم ، وعالميتها الثانية أن نشاطها وبرنامجها وإنجازاتها اخترقت كل قارات العالم ، وشرعيتها

تنطلق من أهدافها النبيلة الإنسانية ، وارتباطها المباشر بالمنظمة العالمية اليونسكو وغيرها من المنظمات والهيئات الرسمية والأهلية ، وهذه الثوابت هي سر نجاح جمعية الدعوة ، إذ إنها اتخذت لنفسها منهجًا وأسلوبًا عملي واضح ومعلن ، ولا تتدخل في الشؤون السياسية الداخلية في سياسات الدول التي تمارس فيها النشاطات المسموح بها منذ تاريخ تأسيسها في ديسمبر ١٩٧٢ .

ومن هذا المنطلق وضعت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية برنامج عمل لتنفيذ برنامج عمل أطلق عليه ما بعد كانوا ، تأسيسًا على تجربة عمرها أكثر من ربع قرن من العمل الإسلامي في بلاد العالم عامة وفي أفريقيا بوجه خاص في المجالات الدينية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية حيث استهدف برنامج العمل ـــ كمرحلة أولى ـــ خمس دول هي : النيجر ، نيجيريا ، مالي ، بوركينافاسو ، وتشاد ، ثم شمل خلال السنوات اللاحقة لبدايته عددًا آخر من الدول هي : السنغال ، الكاميرون ، بنين ، غانا ، سيراليون ، ساحل العاج ، أثيوبيا ، كما ركزت على المجالات التعليمية والثقافية والإعلامية لاستنهاض الهوية الإسلامية وبعث الأصالة العربية لهذه المنطقة الأفريقية العريقة .

أهداف برنامج جمعية الدعوة الإسلامية العالمية :

١ـ التأكيد على تصحيح الهوية الحضارية للمسلمين ، والعمل على إبراز ما يرمز لهذه الهوية الحضارية وضرورة التمسك بالموروث الإسلامي الذي يضمن الحفاظ على الشخصية الإسلامية ويحفظها من المسخ والاستلاب الحضاري العربي .

٢ـ المحافظة على عروبة المنطقة وتأكيد الانتماء العربي في نفوس المسلمين الأفارقة باعتباره تأكيدًا على حقيقة تاريخية تثبت الاتصال العربي الأفريقي .

٣ـ التأكيد على أن اللغة العربية هي لغة المسلمين في كل مكان اختارها الله لإنزال الوحي الخاتم على نبيه ، وأن تعلمها وتعليمها من عوامل بناء الشخصية المسلمة وتأكيد الأصالة العربية .

٤ـ تأكيد الهوية الإسلامية لشعوب أفريقيا وإبراز مساهماتها في بناء الحضارة الإنسانية ودعم كل الجهود التي تعمل على تحقيق هذا الهدف .

٥ـ التصدي لجميع تيارات التطرف والزندقة التي أساءت للإسلام وأعطت الفرصة لأعدائه لتشويهه والإساءة إلى معتنقيه ووصفه بالإرهاب .

٦ـ العمل على توثيق عرى التعاون بين الشعوب الإسلامية في كافة المجالات القادمة .

وقد امتد نشاط الجمعية ليشمل ميادين واسعة للتعاون الإسلامي ، مع العديد من المؤسسات الثقافية والتربوية والصوفية في أغلب الدول الأفريقية ، وكثفت برامجها مع عدد من الجامعات والهيئات العلمية على مختلف مستوياتها وهي تعد من المرتكزات الهامة في تنفيذ هذا البرنامج والتي نجملها في النقاط التالية :

ـ العلماء والأئمة والأساتذة الذين يرتبطون مع الجمعية في برنامج عمل إسلامي في مناطقهم يحظون بعضوية مؤتمرها العام ومجلسها العالمي وغيرهم من القيادات والفعاليات الإسلامية ، وهيئت لهم أيضًا مناخًا للعمل لتحقيق أهداف هذا البرنامج .

ـ خريجو كلية الدعوة الإسلامية والجامعات والمعاهد العليا في الجماهيرية العظمى وكذلك خريجو المؤسسات العربية والذين أمكن الاستفادة منهم في

تنفيذ هذا البرنامج .

ـ الكتب والأدبيات والوسائل الإعلامية والثقافية التي سبق أن قامت الجمعية بتوزيعها وخاصة كتب مناهج اللغة العربية والدراسات الإسلامية والكتب المنفذة لتلك المناهج إضافة إلى الوسائل السمعية والبصرية ومعامل اللغة التي وردت بها بعض المؤسسات الثقافية والتعليمية في إفريقيا .

ومن بين المساعدات المقدمة من جمعية الدعوة الإسلامية والتي عرفت باسم القوافل الإسلامية ، وهي خطوة تتصف بشمولية المساعدات العاجلة والطارئة في المساهمة الإنسانية لمكافحة الأمراض والجهل والفيضانات والمجاعات وهي رد مباشر للدعوى الفارغة التي تتبناها الحملات الصليبية التي تتجاهل المشاكل الأساسية التي يعاني منها السكان وتتركز على الجانب التبشيري ، فالجمعية اعتمدت في أولويتها المساعدة غير المشروطة والتي يدفعها أي غرض سياسي أو ديني ، وأمر التبشير وهو مشروع ترك للناس وفق قناعاتهم ، وأغلب الدعاة هم أفارقة ونعتقد هذه إحدى أسرار نجاح واستمرار نشاط الجمعية في كل أصقاع الدنيا .

ـ الدعاة هم محور عمل الدعوة وقوامها ؛ لذا تهتم الجمعية بأمرهم من إعدادهم علميًا ونفسيًا وسلوكيًا ، وهم قدوة في المهارة والمسلك ، ومن ثم يتم إرسالهم إلى مختلف القارات ، ومنذ التأسيس وحتى الوقت الحاضر تجاوز عدد الدعاة إلى أفريقيا وحدها المئات ، ودأبت الجمعية على عقد لقاءات بالدعاة من حين لآخر لتقييم مسار عملهم والعمل على تحسين الأداء كمًا وكيفًا .

فالقافلة أعدت إعدادًا جيدًا كيفًا وكمًا ، وهي بهذا الأسلوب تعتبر أول مؤسسة رائدة وهي تتكون من : أطباء ، أخصائيين ، صيادلة ، ممرضين ،

إداريين، ووعاظ بالإضافة إلى مستشفى القوافل، وهي مزودة بالمعدات الطبية والكتب الدينية والأشرطة المرئية وغيرها من المواد اللازمة لنجاح القافلة في مهمتها الإنسانية، والجدير بالذكر أن هذه القوافل كانت تعمل في ظروف صعبة للغاية فهي تجاوزت المدن والعواصم والتحمت بالقرى والأرياف البعيدة مخترقة الأنهار والغابات ومتسلقة الصخور والجبال في ظروف مناخية قاسية، وقد تستغرق إقامة وتنقل عدة أسابيع، ولكن إيمان الدعاة ورواد القوافل في التضحية وبذل الجهد والوقت أدى إلى نتائج باهرة، وكان لنشاط القوافل وقع وأثر إيجابي وكبير لدى الشعوب والحكومات الأفريقية، وعمَّقت من الشعور والتواصل بين الأخوة الأفارقة، حيث لم يقف ولم يقتصر نشاط القافلة على المسلمين بل تجاوز المسيحي واللاديني في صورة رائعة تميز بها الإسلام في المساواة، وعلى إثر ذلك حصلت القافلة على الجائزة الأولى من بين كافة الجمعيات الخيرية، التي تهتم بشؤون الإغاثة [١].

وفيما يلي قائمة أولية بالرحلات التي قامت بها القوافل الإسلامية التابعة لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية ونفدت منذ عام ١٩٨٢ وحتى بداية عام ١٩٩٥ إفرنجي.

قافلة مالي في شهر الحرث نوفمبر ١٩٨٣.

قافلة السودان في شهر الكانون ديسمبر ١٩٨٨.

قافلة السنغال شهر التمور أكتوبر ١٩٨٩.

قافلة موريتانيا:

وصلت القافلة المحملة بكميات من الأدوية والأغذية والملابس يرافقها

---

(١) ثلاثون عامًا من العمل الإسلامي الإنساني، صفحات من إنجازات الجمعية ١٩٧٢ ـ ٢٠٠٢.

عدد من الأطباء والفنيين «نواقشط» بتاريخ ١٢/ ١١/ ١٩٩١ حيث كان في استقبالها بعض المسؤولين من وزارة الصحة، وقام أعضاء القافلة بتقديم المساعدات لأغلب المحتاجين، كما تم تقديم بعض منها لوزارتي الصحة، والأوقاف والتوجيه الإسلامي لتوزيعها على كل المقاطعات بولاية «غور غول».

قافلة النيجر:

وصلت القافلة الطبية «نيامي» بتاريخ ٧/ ٢/ ١٩٩٢ إفرنجي، وكان في استقبالها مسؤولو الجمعية الإسلامية بالدولة إلى جانب الشخصيات الأخرى.

قام أعضاؤها بزيارة أغلب المدن والقرى وقدموا كل المساعدات اللازمة لسكانها حيث تركز العمل الطبي بمدينة «أغاديس» في أقصى الشمال، وكان لذلك الأثر الطيب لدى أفراد الشعب النيجري، برز ذلك في مختلف وسائل الإعلام.

من خلال ما تقدم ذكره من أهداف الجمعية، سنحاول إعطاء صورة موجزة بما توفر لدينا من معلومات عن المساعدات التي حققتها جمعية الدعوة لصالح الهيئات والمنظمات الإسلامية وكذلك لبعض الأفراد في مختلف مجالات التنمية الثقافية والعلمية والاجتماعية.

وخلال مسيرة ثلاثين سنة، سيرت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ١٥١ قافلة طبية غطت خدماتها الإنسانية والإعانية ٥٤ بلدًا في قارات العالم.

وتحديدًا فإنه خلال سنة ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٣ قامت الجمعية بإرسال قوافل الإغاثة وشؤون اللاجئين، حيث بلغت إجمالي المصروفات في حدود

(١٥٠٠٠٠٠٠ د.ل) وجزء من هذا المبلغ رصد إلى كل من «تشاد ، أثيوبيا ، النيجر ، مالي ، السنغال ، السودان ، موريتانيا» ، وعادة ما تقوم كل قافلة طبية بتقديم خدماتها الإنسانية الطبية لأعداد من المرضى والمحتاجين تتراوح أعدادهم ما بين ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ شخص ، والقافلة عندما تقوم بتوزيع المؤن والخيام والأغطية فهي في الواقع تغطي احتياجات كل عائلة ، مما يرفع عدد المستفيدين إلى حوالي ١٥٠٠٠ شخص .

أولا : المحور التعليمي :

يعتبر البرنامج التعليمي الأول من نوعه ، ليس فقط من حيث حجمه المتمثل في عدد الطلبة المستفيدين والمدارس وانتشارها الجغرافي ، وإنما أيضًا في عدد الدول التي استهدفها في آنٍ واحد ، وبالتالي فهو برنامج رائد وغير مسبوق بتجربة مماثلة للاسترشاد بها ؛ لذلك كان الإعداد الجيد له أمرًا ضروريًا ، ضمانًا لاستمراريته ونجاحه ، فأولته اللجنة المكلفة بالإشراف والتقويم العناية اللازمة وخاصة عند اختيارها للمنهج الدراسي والكوادر الليبية والمحلية التي ستقوم بتنفيذه على أرض الواقع ، آخذة بالاعتبار خصوصية كل دولة من دول الحزام الصحراوي من حيث الثقافة واللغة .

١ ـ المدرسون الليبيون :

تم إيفاد عدد من الأساتذة العرب الليبيين من ذوي الاختصاصات في مجال تعليم اللغة العربية والدراسات الإسلامية إلى دول الحزام الصحراوي ، وقد خضع المدرسون الذين تم اختيارهم إلى دورات مكثفة لتمكنهم من التعرف على أهداف البرنامج التعليمي المستهدف .

٢ـ المدرسون المحليون :

استهدف البرنامج تعيين عدد من المدرسين المحليين من خريجي كلية الدعوة الإسلامية والجامعات الليبية والعربية ، ليقوموا بتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، وتنفيذًا لذلك وحرصًا على تعيين ذوي الكفاءات الجيدة من المدرسين المحليين أقيمت ١٧ (سبع عشرة) دورة تأهيلية في البلدان المستهدفة ، انخرط فيها ٤٥٨٢ مدرسًا ، احتوت هذه الدورات على محاضرات ألقاها عدد من الأساتذة الليبيين ومسؤولي الجهات ذات العلاقة ببرامج ما بعد كانو ، وخضع المشاركون في هذه الدورات إلى امتحانات وتقييم شامل ، على ضوء النتائج تم التعاقد مع المتفوقين منهم وعددهم ٢٠٤٧ مدرسًا تم توزيعهم على النحو التالي :

٣ـ المدرسون العرب :

في إطار التعاون مع بعض المؤسسات التعليمية والدينية ، تم التعاقد مع الأزهر الشريف على إعارة إحدى عشر مدرسًا وواعظًا من خريجي الأزهر الشريف ، ليقوموا بالوعظ والتدريس في عدد من المؤسسات الدينية والتعليمية في الدول المستهدفة ، عقدت لهم دورة عمل لمدة أسبوع بكلية الدعوة الإسلامية تم خلالها التعريف بأهداف البرنامج ومناقشة سبل العمل الدعوي في أفريقيا ومنهجه وآلياته ، وتم تسيبهم للعمل على النحو التالي :

كما تم التعاقد مع وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالمغرب على إيفاد ٢٠ مدرسًا لتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية بدول الحزام الصحراوي ، عقدت لهم دورة عمل بكلية الدعوة الإسلامية تم خلالها

التعريف بأهداف البرنامج ، وتم تنسيبهم للعمل في الدول المستهدفة على النحو التالي :

٥ـ دورات تأهيلية متقدمة :

في إطار إعداد الكوادر المحلية من مدرسي اللغة العربية بدول الحزام الصحراوي ، أقيمت دورتان متقدمتان للمدرسين المتفوقين بكلية الدعوة الإسلامية ، ويحصل الناجحون على دبلوم عال في التربية وطرق التدريس .

٦ـ بيان بالقوى العددية للمدارس والمدرسين والتلاميذ :

توضح البيانات المنشورة القوى العددية وفق الإحصائيات الفعلية لعدد الطلاب المستفيدين وعدد المدرسين المحليين الذين يقومون بالتدريس ، وعدد المدارس والفصول الدراسية ، ويتبين من ذلك حجم الجهد الذي بذل وما حققه البرنامج من نجاح على أرض الواقع ، مما جعل برنامج عمل ما بعد كانو أمام التزامين :

الأول : التزام معنوي بالاستمرار في تحمل عبء مسؤولية هذا العمل بما يحمل من أهداف ثابتة تعبر عن مشروع حضاري متميز ، يتطلب المزيد من الجهد والعطاء .

أما الثاني : فهو التزام مادي مرتبط بحجم البرامج والتوسع فيه من حيث الكم والكيف وما يتطلبه ذلك من زيادة في حجم الإنفاق .

٧ـ طباعة الكتب المنهجية :

لتنفيذ البرنامج التعليمي قامت جمعية الدعوى الإسلامية العالمية بإعداد سلسلة من الكتب العلمية ذات المحتوى الثقافي في تعليم اللغة العربية ، اشتملت على ١٧ عنوانًا في اللغة العربية والآداب والتاريخ والدراسات

الإسلامية ، قدمت عينات من هذه السلسلة إلى إدارات التعليم العربي الرسمي في دول الحزام الصحراوي التي أقرتها كمنهج متكامل يدرس بمدارسها من المرحلة الابتدائية حتى الثانوية ، كما قدمت عينة منها إلى لجان متخصصة في مصر ، سوريا ، اليمن ، فأثنت جميعها على موضوعية المنهج وشموليته ، وبموجب ذلك تم اعتماد المنهج وطباعة السلسلة المتكاملة ووزعت وفق الكثافة الطلابية في كل بلد حيث بلغ إجمالي الكتب الموزعة ٢.٤٨٠.٠٠٠ مليونان وأربعمائة وثمانون ألف نسخة على الدول الخمس المستهدفة .

ـ أولى البرنامج اهتمامًا خاصًا بطباعة مصاحف القرآن الكريم ، فهو الوعاء الذي حافظ على اللغة العربية وفهم العقيدة ، وكان التركيز في المرحلة على طباعة الأجزاء الثلاثة الأخيرة منه ، الأقرب إلى الأجزاء التعليمية .

ـ عهدت كلية الدعوى الإسلامية إلى لجنة من الأساتذة المتخصصين بإعداد سلسلة لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ـ صدر منها حتى الآن ثلاثة أجزاء طبع منها ٥٠٠.٠٠٠ خمسمائة ألف نسخة وزعت حسب الكثافة السكانية .

ـ مساهمة في سد النقص في كتب المنهجية بجمهورية تشاد فقد تم إرسال ٦٠٠.٠٠٠ ستمائة ألف نسخة من الكتب التعليم الابتدائي والإعدادي المقررة في الجماهيرية العظمى .

ـ تم إرسال ١٤.٢٧٥ أربعة عشر ألفًا ومئتان وخمسة وسبعين كتابًا ، تضمنت ٢٤ عنوانًا في اللغة العربية والدراسات الإسلامية بواقع ٢٨٥٥ نسخة لكل دولة من الدول المستهدفة .

ـ تم توزيع كمية الكتب المقررة ، تتضمن ١٥ عنوانًا بناء على طلب السلطات الرسمية بكل من نيجيريا وبوركينافاسو والنيجر وتشاد على المدارس الحكومية والأهلية بهذه الدول .

ـ تم تنفيذ وسائل إيضاح للحروف والأرقام للتعليم الأولى لصغار التلاميذ ، بعدد ١٠.٠٠٠ عشرة آلاف نسخة تم توزيعها حسب كثافة التلاميذ في كل بلد .

٨ ـ المنح الدراسية :

في إطار إعداد الكوادر المحلية المؤهلة من طلاب الدول المستهدفة ، تم قبول طلبة بأعداد متفاوتة للدراسة الجامعية بالجماهيرية والجامعات الأفريقية ، والجدير بالذكر أن كلية الدعوة بالجمعية في ليبيا ، تعتني بشكل خاص بالطلبة الوافدين إليها ، فإلى جانب الهدف الأساس من تعليمهم وتمكينهم من الحصول على شهادات في تخصصات وفق البرنامج التعليمي ، تم استحداث مناشط مهنية إضافية للطلبة تتيح لكل منهم تعلم إحدى الحرف مثل : «النجارة ، الكهرباء العامة ، كهرباء وميكانيكا السيارات ، وفن الطباعة ، وتعلم الزراعة ، والكترونات ، وكذلك قيادة السيارات» ، وحرصت كلية الدعوة على توفير وتحديث الأجهزة والآلات بهدف تدريب الطلاب عليها ، هذه المهن وضعت برنامج لا يؤثر على سير الدراسة وهي دون شك راعت فيها الرغبات والميول التي تناسب كل طالب ليستعين بها في المستقبل على جانب الدبلوم أو الشهادة الجامعية التي سيتحصل عليها .

ولم تكتف جمعية الدعوة باستقبال الطلبة في كلية الدعوة بطرابلس ، بل أنها أتاحت الفرصة للعديد منهم الانخراط في التخصصات العلمية كالهندسة ،

والطب وغيرها سواء في الجامعات الليبية أو في غيرها ، وقد ارتبطت كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس بعلاقات ثقافية علمية وتوأمة مع عدد من الجامعات المماثلة في الوطن العربي والعالم الإسلامي ، وجمعية الدعوة هي عضو في رابطة الجامعات الإسلامية ، وذلك عضو في اتحاد جامعات العالم الإسلامي ، ومعترف بشهاداتها في جامعات كثيرة في العالم (١) .

٩ـ دعم الجامعات الإفريقية :

تميزت جمعية الدعوة بالتنوع في دعمها للمؤسسات والأفراد ، حيث تم تزويد عدد من الجامعات الأفريقية بدول الحزام الصحراوي التي تفتقر إلى وجود المراجع القيمة في اللغة العربية والدراسات الإسلامية بمكتبة متكاملة في مختلف العلوم والتخصصات التي أنشئت من أجلها الكليات والجامعات لكل منها تتضمن ٥٠٠٠ عنوان وهي :

ـ مكتبة فرع كلية الدعوة الإسلامية بتشاد .

ـ مكتبة فرع كلية الدعوة الإسلامية بنيجيريا .

ـ مكتبة جامعة عبد الله بايرو بنيجيريا .

ـ مكتبة الجامعة الإسلامية بنيجيريا .

ـ مكتبة جامعة مالي .

ـ مكتبة جامعة واغادوغو ببوركينافاسو .

ـ مكتبة معهد اللغة العربية والثقافة الإسلامية بجامعة بينين .

---

(١) دليل كلية الدعوة الإسلامية ، ١٩٨٨ ، (ص١٠٥) .

١٠ـ المؤسسات التعليمية المتخصصة :

من أجل المساهمة في إعداد الكوادر المحلية الجامعية المؤهلة لتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية بدول الحزام الصحراوي ، والذين سيتولون مهام الدعاة وتأهيلهم لتحمل مسؤوليات الأجيال القادمة والاعتماد على القدرات الأفريقية القادرة على تحقيق أهدافها وبرامجها فقد تم الآتي :

أ ـ افتتاح فرع كلية الدعوة الإسلامية في تشاد سنة ١٩٩٨ مسيحي .

ب ـ افتتاح معهد اللغة العربية والثقافة الإسلامية بجمهورية بنين سنة ١٩٩٨ مسيحي .

جـ ـ افتتاح فرع كلية الدعوة الإسلامية في السنغال سنة ٢٠٠٠ مسيحي .

د ـ الانتهاء من المرحلة لمشروع مبنى منارة القذافي الإسلامية بكانو «نيجيريا» والشروع في بناء المرحلة الثانية .

هـ ـ الانتهاء من المرحلة والثانية من مشروع بناء المعهد التأهيلي بأغاديس «النيجر» .

الجدول التالي يوضح الأعداد المتفاوتة بين دولة وأخرى وافق الإمكانيات التي تخصصها :

الجمعية والدولة المضيفة حتى نهاية سنة ٢٠٠٢م .

الدولة	عدد المدرسين	عدد المدارس	عدد الفصول	عدد الطلاب
بوركينافاسو	١٩٠	١٠٥	٣٠٠	١٩٢٣٥
مالي	٣٠٢	١٤١	١١٨	٣٥٦٨٠
النيجر	١١٠	٧٤	٢٨٦	١١٦٠٠
تشاد	٣١٠	١٢٠	١٦٨٩	٣٥٩٥٥
نيجيريا	٢٧٨	٤٢	٩٨٧	٦٩٠٥٧
المجموع	١١٩٠	٤٨٢	٤٤٥٠	١٧١٥٢٧

ثانيا : المحور الإعلامي :

يلعب الإعلام بأدواته المختلفة ووسائله المتنوعة دورًا مهمًا وفعالًا في مجال العلم والمعرفة ، فهو الوسيلة الأكثر تأثيرًا في عقول الناس وتوجيه الرأي العام ، في هذا الإطار تم تنفيذ عدة برامج إعلامية في إطار التعريف بالبرامج المستهدفة في دول الحزام الصحراوي روعي عند إعداد المادة الإعلامية المقروءة أو المسموعة أو المرئية أن تكون معبرة عن ما يتم تنفيذه على أرض الواقع ، وفي هذا الجانب تم تنفيذ الآتي :

- ترجمة خطب الأخ القائد إلى اللغات الأفريقية وطباعتها بكمية ٥٤٦.٠٠٠ .
- توثيق الصلة بوسائل الإعلام المحلية والرسمية في الدول المستهدفة

وتقديم الدعم لها من أجل توضيح أهداف البرنامج التعليمي والثقافي .

ـ التشجيع على استعمال الحرف العربي في اللغات الأفريقية .

ـ إقامة مهرجانات طلابية شبابية وشعبية في المؤسسات التعليمية الحكومية والأهلية ولمستوياتها المختلفة وتحقيق أهدافه .

ـ استعمال الوسائل السمعية والبصرية في تعليم اللغة العربية .

ـ توفير بعض المواد الإعلامية التعليمية «وسائل إيضاح» كوسائل معينة في تعليم الحرف العربي ، تصرف للتلاميذ في المدارس الأهلية .

ب ـ طباعة الكتب :

١ ـ القبائل العربية الليبية في السودان الأوسط ودورها في تاريخ المنطقة .

٢ـ المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري .

٣ـ تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي .

٤ـ الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم .

٥ـ الفلانيون ودورهم في نشر الإسلام في غرب أفريقيا .

٦ـ صحراء العرب الكبرى .

٧ـ الطوارق عرب الصحراء .

٨ ـ الدعوة الإسلامية في أفريقيا ـ الواقع والمستقبل .

٩ـ إعلام الصحراء .

١٠ ـ إفريقيا العربية .

١١ ـ اللغة العربية ـ ثقافتها وإعلامها في مالي .

وتأسيًا على منطلقات وأهداف الجمعية في الجانب التعليمي ، ضاعفت الجمعية من تعاونها مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» وتعاونت معها في القيام بعدد من الدورات التدريبية لمدرسي اللغة العربية والقرآن الكريم في كل من السنغال ، موريتانيا ، النيجر ، السودان ، وقد بلغ حجم التعاون مع «الإسيسكو» ٢.٥١٠.٠٠٠ دولار ، وقد تم الاتفاق معها على برنامج للتعاون بين الجانبين فيما يتعلق بتعليم اللغة العربية ونشر الثقافة الإسلامية بدول الحزام الصحراوي خلال السنوات ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢ بتمويل قدره أربعة ملايين دولار .

وضمن النشاط الفكري الذي تبنته جمعية الدعوة التصدي بالعلم والحجج الدامغة لبعض المستشرقين المناوئين للإسلام ، من خلال عقد الندوات التي تضم العلماء من كافة العالم الإسلامي والرد على كتب المستشرقين وافتراءاتهم بالبحوث والدراسات .

المحور الصحي الاجتماعي :

عملت الجمعية في هذا الإطار على إنشاء والمساهمة في بناء بعض المستشفيات والمراكز الصحية في عدد من الدول من العالم ، إلى جانب عشرات الوحدات الصحية في النيجر وتشاد ومالي ، وجميع هذه المرافق شيدتها وجهزتها جمعية الدعوة الإسلامية العالمية وتسيرها بتقديم الدعم السنوي اللازم لها ، وقد أتاحت الجمعية فرصًا لعدد من الطلاب من أفريقيا ومنحتهم منح دراسية لأبناء المسلمين ليس فقط للدراسات الإنسانية بل تجاوزت ذلك لدراسة الطب بالجامعات الليبية .

وقد أقامت جمعية الدعوة ندوة بالتعاون مع المعهد للدراسات الإنسانية في التوجو حضرها العديد من الأطباء والمختصين في طب المناطق الحارة من أفريقيا وأوروبا ، وتم مناقشة الأوضاع الصحية ، ودراسة بعض الأمراض والأوبئة المستوطنة ، وتم مناقشة مشكلات سوء التغذية ووفيات الأطفال وخرجت عن المؤتمر بعض التوصيات والمقترحات في أساليب العلاج ومكافحة الأمراض .

وتمشيًا مع تعاليم الإسلام السمحة وتنفيذًا لأهداف الجمعية وخاصة فيما يتعلق بالاهتمام باللاجئين والمهجرين بفعل الحروب والكوارث الطبيعية ، وقد تم تنظيم بعض القوافل الطبية للمساهمة من جمعية الدعوة في تخفيف بعض الآلام وتقديم المساعدات الغذائية والطبية في عدد من القارات وخصوصًا القارة الأفريقية ، وتم التنسيق مع بعض المنظمات العالمية والهيئات مثل منظمة الصحة العالمية ومنظمة اليونيسيف لتنفيذ بعض البرامج الطبية ، ففي سنة ١٢/ ١١/ ١٩٩١ ، وصلت قافلة طبية إلى موريتانيا محملة بكميات من الأدوية والأغذية والملبس ويرافقها فريق من الأطباء والفنيين الذين أجروا بعض الفحوصات العلاجية لعدد من المرضى .

كما وصلت قافلة طبية أخرى إلى النيجر في ٧/ ٢/ ١٩٩٢ محملة هي الأخرى بكافة الأدوية اللازمة والأغذية الضرورية ، واستقبلت من قبل وزارة الصحة وقدمت خدمات علاجية للمرضى ولقيت استحسانًا وشكرًا من السكان .

ومن بين المساعدات الإنسانية التي قدمتها وتقدمها جمعية الدعوة الإسلامية بصورة مستمرة في التخفيف للكوارث الطبيعية مثل انجراف

السيول والجفاف والحرائق والزلازل ، ومن بينها حفر آبار لمياه الشرب ، والمساهمة في إصحاح البيئة ومقاومة التصحر .

وقد اهتمت الجمعية بدور الأيتام والمعاقين في كافة القارات وسعت في التخفيف من معاناتهم وأعباءهم المالية ، وخاصة في السودان ، وتشاد ، وغانا ، وقدمت لهم مساعدات مالية ودوائية وغذائية ، وكذلك الوسائل التأهيلية والتدريبية مثل : دراجات المعاقين وآلات الحياكة والتفصيل ، والآلات الكاتبة وأجهزة الحاسوب ، ويأتي إقامة ودعم هذه المؤسسات من قبل الجمعية من خلال رصد ميزانيات ثابتة لصالح هذه الشرائح الاجتماعية .

والجدير بالذكر أن هناك تعاونًا وتنسيقًا متينًا بين جمعية الدعوة الإسلامية العالمية مع المنظمات العالمية والهيئات التي تهتم بشؤون الإغاثة واللاجئين مثل: منظمة الصحة العالمية ، مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين ، وصندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة ، كما تم عقد اتفاق بين الجمعية ومنظمة اليونسكو في البحث عن الموارد في أفريقيا ، وتأهيل المعلمين المعاقين في أفريقيا ، وكذلك إدماج التربية الصحية في المناهج المدرسية ، وبفضل جهود ونشاط الجمعية استطاعت إقامة اتفاقات شراكة ومساهمات فعالة مع المنظمات غير الحكومية .

وبالنظر لتعدد نشاط الجمعية الخيري الكمي والكيفي ومساهمتها الفاعلة في أغلب قارات العالم التي بها جاليات إسلامية ، اقتصرت دراستنا على الدول الأفريقية جنوب الصحراء ، ولقد حاولنا استخلاص بعض المعلومات ووضعناها في جداول لتسهل للقارئ والمطلع أخذ لمحة عامة لنوعية المساعدات الإنسانية ذات الطبيعة المختلفة ، وهي أغلبها أموال وهبات عينية

وصلت لمستحقيها بشكل مباشر لبعض الدول الأفريقية .

بعض الصعوبات التي تواجه الثقافة في أفريقيا ومقترحات لها :

من أهم المشاكل التي تعاني منها الشعوب المتخلفة ، انخفاض المستوى الثقافي والبحث العلمي وانتشار الأمية ، وانخفاض المستوى الصحي ، وزيادة عدد الوفيات وغير ذلك من المؤشرات الاجتماعية ، وتواجه غالبية القارة الإفريقية قضيتان رئيستان مترابطتان الأولى : قضية التخلف وكيفية التخلص منه ، والثانية : قضية التنمية وكيفية تحقيقها بالسبل والطرق الحديثة ، ومن الخصائص الاجتماعية التي تعاني منها معظم أقطار القارة الأفريقية انتشار البطالة وانخفاض المستوى الصحي ، وسوء التغذية ، وارتفاع مستوى الأمية ، وتلوث البيئة وما يترتب على ذلك من المشكلات الاجتماعية والصحية ، ووجود مجموعة من القيم والعادات والتقاليد والمعتقدات والاتجاهات والأطر الثقافية التي تتنافي مع اتجاهات التقدم والتطور وتعوق جهود التنمية ، ومن بين المشاكل الديموغرافية في أفريقيا ارتفاع كبير في معدل المواليد ، وارتفاع نسبي في معدلات الوفيات ، وزيادة في معدلات النمو السكاني ، إضافة إلى الفساد الإداري والسياسي ، وأن عدم الاستقرار في الأوضاع والنظم السياسية ، وبقاء القيادات لفترة طويلة في السلطة ضد إرادة الجماهير ، وكثرة الانقلابات العسكرية يعرقل برنامج التنمية .

ومن الاستجابات الناجحة التي يجب على الدول الأفريقية القيام بها أمام التحديات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الإقلال من الاعتماد على المعونات الخارجية المشروطة والتحول إلى اتفاقات شراكة أفريقية مع الدول في القارات الأخرى ، وبهذه الطريقة يمكن أن تتخلص القارة الأفريقية من تأثيرات

الدول الكبرى التي تبغي من وراء مساعدتها لدول أفريقيا الإبقاء على نفوذها الاقتصادي والثقافي في تلك الدول [١] .

ومن أهم الرهانات للتنمية في أفريقيا هو إشراك المرأة بكل فاعلية وفي كل المجالات ، ومنحها الفرص مثل الرجل في التعليم وتأمين وسيلة العيش والعمل بكل طاقتها وحسب طبيعتها البشرية ، وأوضحت الدراسات أن تعليم البنات له مردود وفوائد للمرأة نفسها ولأسرتها وللمجتمع ، ويعطيها القدرة أكثر في المساهمة في بناء أجيال تتحمل المسؤوليات في المرحلة القادمة ، وينبغي العمل على تكثيف برامج التوعية الاجتماعية والإرشاد عبر الوسائط الإعلامية في الحد من تعدد الزوجات وتحديد النسل حتى يحدث التوازن بين الدخل وعدد أفراد الأسرة ، والتنمية لن تتحقق إلا بكوادرها البشرية المحلية وبالتالي يجب تحفيز العقول والأدمغة والخبرات الأفريقية المقيمة في ديار الهجرة وتشجيعها على العودة إلى بلدانها للمساهمة في البناء والتشييد في كل المجالات .

وينبغي الاعتناء بالطفولة تربويًا وتعليميًا بشكل يضمن المجتمع مستقبلهم ، والعمل على تعزيز المؤسسات الحكومية والأهلية من دور الرعاية والجمعيات التي تعني بالطفل ، والحد من تشردهم ، وحمايتهم من الاستغلال في الأعمال التي لا تتناسب مع قدراتهم الجسمية ، ولقد تكررت الدعوات والبيانات الرسمية من عدة منظمات في حماية الطفل الأفريقي ، وأهمها الميثاق الأفريقي لحقوق الطفل ورفاهيته وسعادته الذي صدر سنة ١٩٩٠ ، والذي

---

(١) رأفت غنيمي الشيخ ، تحديات الوحدة الأفريقية ، بحوث مؤتمر أفريقيا وتحديات القرن الحادي والعشرين ، جامعة القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ١٩٧٧ ، مج ١ ، (ص١٥٨) .

نص على توفير الغذاء والمأوى والتعليم الأساسي ، والحماية الاجتماعية ، والسؤال المطروح : إلى أي مدى حقق الميثاق جزءًا من حقوق الطفل الإفريقي ؟ [١] .

ولا شك أن الجهد الذي يُبذل من القائمين في جمعية الدعوة الإسلامية العالمية يستحق التقدير والثناء ، ولكن ماذا إذًا لو تضافرت جهود جميع الجمعيات الإسلامية والمنظمات الخيرية المنتشرة في أعماق القارة التي تعمل فرادى ، ووحدت ونسَّقت سياساتها بحيث توزع جهدها وقدراتها وإمكانياتها في أعمال تنموية وفق برنامج يستهدف استثمار القدرات البشرية الأفريقية ، وتأهيلها علميًا وفنيًا ، وبناءها دينيًا دون تعصب لمذهب أو حزب ، وأن تعمل في الإطار القانوني المرخص لها .

ويجب دراسة أفضل السبل والطرق في بناء مشاريع استراتيجية استثمارية ، تهدف لتوظيف القدرات والإمكانات التي تزخر بها بلدان القارة المتنوعة ، ولعل الفضاء الإفريقي الذي تمثل في اتحاده الفتي سيعزز من نشاط المنظمات والجمعيات الخيرية التي هدفها نبيل وإنساني يسعى لسعادة البشر ويقودهم للخروج من بؤرة الفقر والمرض والتخلف التي فرضت على المواطن الأفريقي وكأنه قدر لا يتغير .

إن تجربة جمعية الدعوة وغيرها من المؤسسات الخيرية غير الحكومية قدمت الدليل على النشاط والحيوية والقدرة على المساهمة في تغير الواقع المتردي إلى الأفضل ، إذًا هذه القارة ستكون واعدة لشعوبها لتحقيق سعادتهم وتطورهم ،

---

(١) عبد السلام الدويبي ، الميثاق الأفريقي لحقوق الطفل ورفاهيته ، أبعاد ومضامين ، الجديد ، العدد الرابع ، ١٩٩٩ ، المركز القومي للبحوث والدراسات العلمية ، (ص٩٦) .

وهذا مرهون بوعيهم وإحساسهم وإيمانهم بتوحدهم وإخلاصهم وتفانيهم في العمل ، وهذه مسؤولية هذه الأجيال والأجيال القادمة التي قطفت ثمار جهود الأجداد والآباء الذين مهدوا الطريق ودفعوا النفس والنفيس لنرى أفريقيا تتحد وتستأنف دورها الطبيعي في المساهمة في بناء الحضارة الإنسانية العالمية .

*****

الملاحق

ملحق رقم (١)

الجداول التالية تبين لنا نوع المساعدات المالية والعينية التي قدمتها الجمعية خلال السنوات ١٩٧٧ ـ ١٩٩٥ لبعض الدول الأفريقية دون ذكر للمبالغ المالية بشكل محدد [١].

السنة	نوع المساعدة	الدولة
١٩٧٧	بناء مسجد بقي	موريتانيا
١٩٧٧	إيجار مقر مدرسة	تشاد
١٩٧٧	مساعدة عدد من المدرسين	تشاد
١٩٧٧	بناء مسجد زند بنيامي	النيجر
١٩٧٧	شراء سيارة طاوية لمسلمي نيجيريا	نيجيريا
١٩٧٧	شراء آلات طبع لمسلمي نيجيريا	نيجيريا
١٩٧٧	مسجد أحمد أمينج	السنغال
١٩٧٨	المساهمة في بناء مسجد كورمور	موريتانيا
١٩٧٨	المساهمة في إنشاء مدرسة الدعوة الإسلامية	
١٩٧٨	المساهمة في إنشاء مسجد مدينة أغاديس	النيجر

(١) طالب رحومة يحيي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، نشأتها، أهدافها، ودورها في نشر الدعوة الإسلامية، ١٩٧ ـ ١٩٩٨، مسيحي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ٢٠٠٢، (ص٣٣٥ ـ ٣٨٤).

السنة	نوع المساعدة	الدولة
١٩٧٨	المساهمة في بناء معهد الشباب والرياضة والمسجد الملحق به	السنغال
١٩٨٠	استكمال بناء مسجد لاموردي وبعض المساجد لأخرى وتأثيثها	النيجر
١٩٨٠	المساهمة في بناء مدرسة الهلال الإسلامية	مالي
١٩٨٠	دعم معهد الثقافة الإسلامية	مالي
١٩٨١	استكمال بناء مسجد	نيجيريا
١٩٨١	مساعدة لصالح رئيس صندوق الوقف الإسلامي	نيجيريا
١٩٨٣	دعم جمعية الأنصار	السودان
١٩٨٣	المساهمة في إغاثة منكوبي الجفاف	أثيوبيا
١٩٨٣	دعم كلية الدراسات الشرعية	نيجيريا
١٩٨٣	المساهمة في بناء باماكو	مالي
١٩٨٣	استكمال معهد سيجو باماكو	مالي
١٩٨٤	مساعدة للتخفيف من حدة الجفاف	مالي
١٩٨٤	دعم المدرسة العربية الزراعية في سيجو	مالي
١٩٨٤	الدعم الإضافي لإنجاز مسجد قرية	السنغال

السنة	نوع المساعدة	الدولة
	دايلخار	
١٩٨٤	مساعدة لدعم المشروعات الإسلامية	السنغال
١٩٨٤	دعم الاتحاد الثقافي الإسلامي	السنغال
١٩٨٤	دعم إضافي لكلية الدراسات في كانو ـ لاجوس	نيجيريا
١٩٨٤	دعم اتحاد الدفاع عن مبادئ الإسلام	السنغال
١٩٨٤	دعم لجمعية التقدم الإسلامي باماكو	مالي
١٩٨٤	دعم جمعية الإخوة الليبية النيجيرية	طرابلس
١٩٨٤	مساعدة مدرسة الدعوة الإسلامية	تشاد
١٩٨٤	دعم المعهد العربي	نيجيريا
١٩٨٤	دعم لبنا مسجد مالي	مالي
١٩٨٤	دعم مدرسة الأمين كابا	مالي
١٩٨٤	صيانة المساجد والمدارس القرآنية	تشاد
١٩٨٤	مساعدة بعض المعاهد	نيجيريا
١٩٨٤	مساعدة لمعهد ابوتلميت	موريتانيا
١٩٨٤	مساعدة لمدرسة الهدى لتحفيظ القرآن الكريم	موريتانيا

السنة	نوع المساعدة	الدولة
١٩٨٤	مساعدة لتخفيف وطأة الجفاف	مالي
١٩٨٤	دعم جمعية الإخوة الليبية	مالي
١٩٨٧	مساعدة جمعية الاتحاد الإسلامي	مالي
١٩٨٧	مساعدات للجمعيات الإسلامية	السنغال
١٩٨٧	مساعدة للهيئات الإسلامية العاملة في مجال الدعوة	نيجيريا
١٩٨٨	دعم مشاريع الحركة الإسلامية للبر والتقوى	السنغال
١٩٨٨	مساعدة المعاهد الأزهرية الثقافية	السنغال
١٩٨٨	مساعدة لمركز الدراسات الإسلامية	السنغال
١٩٨٨	مساعدة لجمعية المسترشدين والمسترشدات الثقافية	السنغال
١٩٨٨	مدرسة التفسير بمنطقة كاي باماكو	مالي
١٩٨٨	إتمام العيادة الطبية بالمعهد الإسلامي	مالي
١٩٨٨	بناء مسجد داود	مالي
١٩٨٨	توسيع مدرسة حياة الإسلام	مالي
١٩٨٨	بناء مدرسة عربية إسلامية بقرية كيت	مالي

السنة	نوع المساعدة	الدولة
١٩٨٨	مساعدة لشراء مضختين للمياه قبيلة الأمهار	مالي
١٩٨٨	مساعدة لحفر بئر وتركيب مضخة لمدرسة الدعوة فانا	مالي
١٩٨٨	مساعدة لبناء فصلين بمدرسة حوض ماندا	مالي
١٩٨٨	مساعدة لتكملة مسجد مسيرا باماكو	مالي
١٩٨٨	إتمام قاعة المحاضرات بمركز أحمد بابا	مالي
١٩٨٨	مساعدة لدائرة الهجرة ومعهد تمبكتو اتفاقية	مالي
١٩٨٨	مساعدة لاستكمال معهد الدراسات الإسلامية سيقو	مالي
١٩٨٨	مساعدة للمجلس الأعلى للشؤون الدينية لتحفيظ القرآن الكريم	السودان
١٩٨٨	مساعدة لبناء مدرسة	السودان
١٩٨٨	مساعدة لهيئة النشاط الإسلامي فرع الميرم	السودان
١٩٨٨	مساعدة لبعض المؤسسات الخيرية بالعاصمة	السودان
١٩٨٨	مساعدة للجنة التنفيذية للجمعية الخيرية	السودان

السنة	نوع المساعدة	الدولة
١٩٨٨	مساعدة لمنظمة الدعوة لاستكمال معهد الدراسات	السودان
١٩٨٨	دعم لمنظمة الدعوة لصالح مسلمي الجنوب	السودان
١٩٨٨	مساعدة الجمعية الإسلامية بالجنوب لرعاية اللاجئين بالعاصمة	السودان
١٩٨٩	مساعدة بناء ثلاثة فصول لمدرسة الفلاح بانكونب باماكو	مالي
١٩٨٩	مساعدة بناء مدرسة عربية لجمعية المسلمين في كيدال غاو	مالي
١٩٨٩	مساعدة لشراء رش لمسجد جيكورنيبارا	مالي
١٩٨٩	مساعدة لاستكمال مسجد ومدرسة بمنطقة التويميرن	موريتانيا
١٩٨٩	مساعدة لشراء بعض المعدات لمعهد العباس للدراسات الإسلامية	موريتانيا
١٩٨٩	مساعدة للجمعية الإسلامية	مالي
١٩٨٩	مساعدة مالية لمدرسة الثقافة الإسلامية باماكو	مالي
١٩٩٠	مساعدة للاتحاد الإسلامي الثقافي السنغالي	السنغال

السنة	نوع المساعدة	الدولة
١٩٩٠	مساعدة جمعية الدعوة نيجيريا	نيجيريا
١٩٩٠	مساعدة النازحين في السودان	السودان
١٩٩٠	دعم مدارس ومساجد بمعرفة مكتب الجمعية	السنغال
١٩٩٠	مساهمة في بناء مسجد بالسنغال	السنغال
١٩٩٠	شراء أدوية للمسترشدين والمسترشدات بالسنغال	السنغال
١٩٩٠	مساعدة دار الأيتام بالسنغال	السنغال
١٩٩١	دعم مكتب التوجيه الإسلامي	نيجيريا
١٩٩١	بناء مسجد	نيجيريا
١٩٩١	دعم المعهد الإسلامي الموريتاني	موريتانيا
١٩٩١	المدارس	السودان
١٩٩١	دعم الهيئات الإسلامية	السودان
١٩٩١	دعم طلبة الخلاوي لتحفيظ القرآن	السودان
١٩٩١	دعم خلاوي غرب بربر	السودان
١٩٩١	«اتفاقية» المسترشدين والمسترشدات	السنغال
١٩٩١	شخصيات لأجل الحج	السنغال

السنة	نوع المساعدة	الدولة
١٩٩١	دعم الجمعيات الإسلامية	السنغال
١٩٩١	مساعدات التنسيق الإفريقي	السنغال
١٩٩١	شراء جرارات زراعية	السنغال
١٩٩١	شراء أجهزة إذاعية	السنغال
١٩٩١	دعم الجمعيات الإسلامية	النيجر
١٩٩١	مساعدة المساجد	النيجر
١٩٩١	مساعدة المدارس العربية الليلية	النيجر
١٩٩١	مساعدة مساجد منطقة زندر	النيجر
١٩٩١	مساعدة للأبنية المنهارة	النيجر
١٩٩١	صرف تذاكر سفر	النيجر
١٩٩١	دعم الجمعيات الإسلامية	مالي
١٩٩١	المجلس الإسلامي الأعلى	تشاد
١٩٩٢	تم تقديم دعم مالي لاتحاد الجمعيات الإسلامية في السنغال وفقًا لبرنامج التعاون المشترك بين الجمعية والاتحاد	السنغال
١٩٩٢	تم تقديم مساعدة مالية لخلاوي الشيخ عبد العزيز القرآنية في إطار تشجيع تعليم	السودان ـ تشاد ـ الكاميرون ـــ

السنة	نوع المساعدة	الدولة
	القرآن الكريم	إفريقيا
١٩٩٢	تقديم دعم لجمعية عثمان بن عفان الإسلامية بالسنغال	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لمسجد حي اشليم بدكار	مكتب الجمعية السنغال
١٩٩٣	مساعدة لمؤسسة مدارس منار الهدى العربية الإسلامية	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لقسم اللغة العربية بوزارة التعليم للانتقال داخل الأقاليم للاتصال بالمدارس والهيئات الإسلامية	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لبناء المسجد الجامع بمقر الطريقة القادرية	السنغال
١٩٩٣	مساعدة في الحقل الديني السنوي في مدينة طوبة	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لجمعية عثمان بن عفان الإسلامية في مدينة بنجولا في شكل ثمن كتب وتغطية مصروفات	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لمؤسسة ضيوف لرعاية الأيتام	السنغال

السنة	نوع المساعدة	الدولة
١٩٩٣	مساعدة لاتحاد التقدم الإسلامي في إطار التعاون بينه وبين الجمعية	السنغال
١٩٩٣	مساعدة للمعهد الإسلامي في بريكاما	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لجمعية مكارم الأخلاق المريدية لإقامة حفل ديني	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لتركيب عدد ١٥ مروحة لمسجد منطقة سارة نجوجاري	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لإدارة التعليم العربي الحر بوزارة التعليم	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لجمعية جمرة الإسلامية لتغطية احتياجات المدرسة الإسلامية	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لمعهد أحمد الصغير لوح بكوكي إقليم لوجا	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لاتحاد الشبيبة المسلمة في تييس	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لجمعية دار القرآن الكريم في سوريا في إطار المحضر الموقع بينها وبين جمعية الدعوة في الفاتح ١٩٩٠ إفرنجي	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لإصلاح شبكة المياه بمسجد	السنغال

السنة	نوع المساعدة	الدولة
	جزيرة جوري ، سبق للجمعية أن قدمت مساعدة للصيانة	
١٩٩٣	مساهمة في توسيع وصيانة مسجد قرية دانجو هلواز بمنطقة روفيك	السنغال
١٩٩٣	مساعدة لدار التربية في داكار	السنغال
١٩٩٣	تم صرف جزء من ميزانية المدرسة العربية لنهضة الحضارة الإسلامية في غامبيارا بغامبيا	السنغال
١٩٩٣	مساعدة للمعهد الإسلامي التابع للجمعية بمنطقة بريكاما بغامبيا	السنغال
١٩٩٤	دعم المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية	تشاد
١٩٩٤	دعم مجلس التنسيق الإسلامي	السنغال
١٩٩٤	دعم جمعية نور الهدى	النيجر
١٩٩٤	دعم جمعية النهضة الإسلامية	نيجيريا
١٩٩٤	مساعدة لمسلمي النيجر	النيجر
١٩٩٤	دعم العمل الإسلامي	النيجر
١٩٩٤	دعم لمسلمي مالي	مالي
١٩٩٤	دعم المؤسسات الإسلامية	السنغال

السنة	نوع المساعدة	الدولة
١٩٩٥	بناء مسجد ناصر كابارة	نيجيريا
١٩٩٥	جمعية النهضة الإسلامية	نيجيريا
١٩٩٥	وزير الثقافة المالي	مالي
١٩٩٥	مساعدة داعية	السنغال
١٩٩٥	دعم مالي ثابت للمسجد الكبير نيامي	النيجر
١٩٩٥	مساعدة جمعية مرض الجذام	النيجر
١٩٩٥	مساعدة «مخيم تسرا» لتخفيف وطأة التصحر والجفاف	النيجر

*****

ملحق رقم (٢)

وفيما يلي بيان بالقوى العددية للبرنامج التعليمي في عدد من الدول الأفريقية من سنة ١٩٩٧ وحتى ٢٠٠٤ مسيحي [1] :

العام الدراسي	الدولة	عدد المدارس	عدد الفصول	عدد المدرسين	عدد التلاميذ
مسيحي ٩٧ـ١٩٩٨	بوركينافاسو	٩٥	٢٣٠	٥٠	٩٨٩٠
	تشاد	١١٤	٧٤١	١٧٢	٢٨١٥٨
	النيجر	٧١	٢٩٥	١٢٥	١٠٨٧٥
	مالي	١٩٠	١٠١٥	٣٠٠	٣٤٠٥٦
	نيجيريا	٧٨	٦٨٤	٢٧٨	٤٩٩٦٤
	المجموع	٥٤٨	٢٩٦٥	٩٢٥	١٣٢٩٤٣
مسيحي ٩٨ـ١٩٩٩	بوركينافاسو	١٠٣	٢٥٠	٢٠٠	١١٦٥٠
	تشاد	٢٦٥	١٧٢٢	٤٩٨	٦٥٤٣٦
	النيجر	٧٤	٢٨٠	١١٠	١١٦٠٠
	مالي	١٢٧	١٠٩٣	٢٥٠	٢٢٣١٦
	نيجيريا	٤٢	٣٣٩	٢٧٨	١٩٠٥٧
	المجموع	٦١١	٣٦٨٤	١٣٣٦	١٣٠٠٥٩

(١) تقرير صادر عن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية برنامج ما بعد كانو ، غير منشور .

العام الدراسي	الدولة	عدد المدارس	عدد الفصول	عدد المدرسين	عدد التلاميذ
مسيحي ٩٩ـ٢٠٠٠	بوركينافاسو	١١٠	٣٧٢	١٩٠	٢٢٢٠٤
	تشاد	٣٤٤	٢٢٣٦	٥١٧	٨٥٩٥٥
	النيجر	١٣٥	٤٠٣	١١٦	١٥٧٧٩
	مالي	١٤١	١١٨٨	٣٠٢	٢٦٤٤٠
	نيجيريا	٤٢	٤٣٤	١٣٥	٢٠٨٩٢
	المجموع	٧٧٢	٤٦٣٣	١٢٦٠	١٧١٢٧٠
مسيحي ٢٠٠٠ــ ٢٠٠١	بوركينافاسو	٣٣٣	٥٩٤	٣٣٨	٣١٧٨٣
	تشاد	٣٤٤	٢٢٣٦	٥١٧	٨٥٩٥٥
	النيجر	١٣٥	٤٢٤	٢٢٣	١٧٣٣٣
	مالي	١٥٢	١٢٩٠	٤٢٨	٣٧٣٨٠
	نيجيريا	٤٢	٣٨٣	١٣٥	١٩٦٣٩
	المجموع	١٠٠٦	٤٩٢٧	١٦٤١	١٩٢٠٩٠
مسيحي ٢٠٠١ــ ٢٠٠٢	بوركينافاسو	٣٥٠	٨٠٠	٣٤٠	٣٣٥١٦
	تشاد	٣١٩	٢٠٧٣	٥٠١	٧٨٧٧٤
	النيجر	١٣٨	٤٤٣	٢١١	١٥٠٧٧

العام الدراسي	الدولة	عدد المدارس	عدد الفصول	عدد المدرسين	عدد التلاميذ
٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢	مالي	١٧٠	٢٣١٦	٤٢٢	٦٧٦٥٣
	نيجيريا	٤٥	٤٢١	١٢٢	٢٠٨٦٣
	المجموع	١٠٢٢	٦٠٥٣	١٥٩٦	٢١٥٨٨٣
مسيحي ٢٠٠٢ ـ٢٠٠٣	بوركينافاسو	٣٥٠	٨٠٠	٣٣٢	٣٦٤٨٤
	تشاد	٣١٩	٢٠٧٣	٥٠١	٧٨٧٧٤
	النيجر	١٤١	٥١٢	٢٠١	١٥٦٠٣
	مالي	١٩٥	٤٠٧٣	٤٣١	١٦٣٠٠٠
	نيجيريا	٥٤	٤٢٧	١١٥	٢٠٧١٧
	المجموع	١٠٥٠	٧٨٨٥	١٥٨٠	٣١٤٥٧٨
مسيحي ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤	بوركينافاسو	٣٥٠	٨٠٠	٣٣٢	٣٦٤٨٤
	تشاد	٣٠٧	١٩٩٥	٤٢٥	٧٥٨١٠
	النيجر	١٤١	٤٥٦	١٩٥	١٦٦٧٠
	مالي	١٩٨	٤٠٩٠	٤٣٤	١٦٣٠٠٠
	نيجيريا	٥٤	٤٢٧	١١٥	٢٠٧١٧
	المجموع	١١٤١	٧٧٦٨	١٥٠١	٢٩٧٦٧٨

*****

رابطة العالم الإسلامي وأثرها في انتشار التعليم العربي الإسلامي والتنمية في أفريقيا

إعداد الدكتور/ فضل خلود الدكو (*)

نبذة عن رابطة العالم الإسلامي :

ولدت رابطة العالم الإسلامي في حقبة من الزمن كان العالم الإسلامي يعيش ظروفًا عصيبة توالت على الشعوب الإسلامية نكبات مهلكة وصار أغلب ديار المسلمين ، إما تحت سيطرة الاستعمار المباشر أو الوصاية أو الانتداب ، والتي لم تكن تحت الاستعمار أو الانتداب ، فحملها لا يقل سوء عن بقية البلاد المستعمرة .

فقد ألقيت الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية وحل النظام العلماني مكان النظام الإسلامي ، وبنهاية الحرب العالمية الثانية صار ما بقي من بلاد المسلمين غنيمة تحت هيمنة الغرب المسيحي ونظمه الملحدة التي أثرت على جميع أوجه الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية .

وهكذا افترقت كلمة المسلمين ، بعد أن سقطت خلافتهم وذهبت وحدتهم وأصاب المسلمين الضعف والوهن والاختلاف في الرأي والمشورة ، وبدأ الغربيون يخططوا وينفذوا لإقامة دولة اليهود في فلسطين أرض الرسالات وقلب العالم الإسلامي ، ولقيت إسرائيل كل الدعم والاعتراف والتمويل بل واعتراف الأمم المتحدة بها عضوًا رسميًا .

(*) مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي في نيجيريا .

في حين ظهرت في المحيط الإسلامي وبين شعوب الأمة أقوامًا يظهرون الإسلام ويخفون الإلحاد ، ظهروا في أثواب متنوعة ونظريات فاسدة مفسدة مثل القومية والاشتراكية والبعثية والفرعونية والتقدمية والفرانكونية والأنجلفونية والرأسمالية والدعوة إلى الإباحية وتحرير المرأة من قيود الإسلام .... إلخ [1] .

وفي خضم هذه الظروف العصيبة انتبه بعض الغيورين من المسلمين على دينهم وأمتهم وعقدوا العزم على ضرورة إيجاد هيئة جامعة تضم شمل المسلمين وتجمع شتاتهم وتكون لهم مظلة يلتقون فيها ليتدارسوا قضاياهم الملحة ويتبادلوا الآراء حول كيفية إنقاذ دينهم وعقيدتهم وأمتهم وتراثهم ومقدساتهم من كيد الكائدين ، وهكذا نشأت فكرة رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة في بداية النصف الثاني من القرن العشرين .

وذلك في اجتماع مبارك ضم لفيفًا من الشخصيات الإسلامية من البلاد الإسلامية التي حضرت الحج لعام ١٣٨١ للهجرة وكان من بينهم الحاج أحمدو بللو رئيس وزراء نيجيريا الاتحادية ، ويقال : أنه اقترح على الحاضرين فكرة ضرورة إيجاد هيئة أو منظمة تجمع كلمة المسلمين على الحق ودين الإسلام وفوضه صحبه من كبار ضيوف الرحمن بأن ينقل موافقتهم على رأيه إلى الملك فيصل بن عبد العزيز رحمة الله عليه .

واستجاب الملك فيصل للفكرة وبدأ فورًا بالتحرك بين قادة المسلمين لتدارس الأمر ، فولد ما سمي بالتضامن الإسلامي ، وكانت بداية نشوء

---

(١) نظام رابطة العالم الإسلامي الصادر في رجب ١٣٨٣ الموافق ديسمبر ١٩٦٣م ، مطابع دار اقتصاديات الشرق كولونيا ، ألمانيا .

الرابطة بقرار من المؤتمر الإسلامي الأول الذي عقد في مكة المكرمة في ١٤ من ذي الحجة ١٣٨١ للهجرة بتأسيس هيئة إسلامية مقرها مكة المكرمة تسمى «رابطة العالم الإسلامي» [١] .

نظام رابطة العالم الإسلامي [٢] :

صدر نظام رابطة العالم الإسلامي في ١٨ رجب ١٣٨٢ هجرية الموافق ١٥/ ١٢/ ١٩٦٢م الذي يبين أهداف الرابطة وغايتها ووسائلها وصلاحيات المجلس التأسيسي ورياسته وصلاحيات الأمانة العامة .

وكان المجلس التأسيسي الأول لرابطة العالم الإسلامي يتكون من (٢١) واحد وعشرين عضوًا هم كالتالي :

١ـ سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المفتي الأكبر في المملكة العربية السعودية .

٢ـ دولة الحاج أحمد وبللو رئيس وزراء نيجيريا الاتحادية .

٣ـ سماحة الشيخ إبراهيم أنياس شيخ الإسلام في السنغال .

٤ـ سماحة الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .

٥ـ سماحة الأستاذ السيد أبو الحسن الندوي عميد ندوة العلماء في الهند .

٦ـ سماحة الحاج السيد أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين .

٧ـ سماحة الشيخ حسين مخلوف المفتي السابق لمصر .

---

(١) رابطة العالم الإسلامي النشأة الأهداف التطلعات ، د. حسن الأهدل ، (ص٤) .

(٢) نظام رابطة العالم الإسلامي ، (ص١٠، ٢١) ، رجب ١٣٨٣ ، الموافق ديسمبر ١٩٦٣م .

٨ ـ سماحة القاضي عبد الرحمن الأرياني نائب رئيس الهيئة الشرعية في اليمن .

٩ـ سماحة الشيخ محمد مكي الكتاني رئيس رابطة علماء سوريا .

١٠ـ سماحة الشيخ محمد بشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء في الجزائر .

١١ـ فضيلة السيد محمد صادق المجددي سفير أفغانستان سابقًا ومن كبار علماء أفغانستان .

١٢ـ سماحة الأستاذ علال الفاسي وزير الشؤون الإسلامية في المغرب .

١٣ـ سماحة الأستاذ محمد فال بن البناني من علماء موريتانيا .

١٤ـ الدكتور سعيد رمضان الأمين العام للمؤتمر الإسلامي بالقدس .

١٥ـ السيد إبراهيم السقاف رئيس المجلس الإسلامي بسنغافورة .

١٦ـ فضيلة الشيخ محمد محمود الصواف رئيس جماعة الأخوة الإسلامية بالعراق سابقًا .

١٧ـ الحاج أحمد لونتو رئيس الجمعية الإسلامية في الفلبين .

١٨ـ الحاج السيد محمد حنيفة محمد عمدة كولومبو في سيلان .

١٩ـ سماحة الأستاذ عبد الله القلقيلي ، مفتي المملكة الأردنية الهاشمية .

٢٠ـ سعادة الأستاذ كامل الشريف سفير المملكة الأردنية الهاشمية في جمهورية نيجيريا الاتحادية .

٢١ـ فضيلة الشيخ أحمد البشير الطيب من علماء السودان .

وقد ضُم للمجلس التأسيسي أعضاء جدد في عام ١٣٨٣ للهجرة هم :

٢٢ـ فضيلة الشيخ منصور المحجو .

٢٣ـ السيد صالح شوان و و .

٢٤ـ فضيلة الشيخ سعدي ياسين .

٢٥ ـ الدكتور صالح أوزجان .

٢٦ـ فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز .

٢٧ـ فضيلة الشيخ محمد بن علي الحركان [١] .

أهم أهداف الرابطة [٢] :

من أهم أهداف الرابطة العمل على توحيد كلمة المسلمين وردهم إلى دينهم ردًا جميلًا والاستعانة على ذلك بمنهاج الإسلام وتعاليمه وسلوكه الجميل مع أتباعه ، ومع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى ، والعمل على إقناع حكام المسلمين في جميع بلاد الإسلام بتطبيق الشريعة الإسلامية ليسود العدل والمساواة بين الناس وينعموا بالحرية والأمن والاستقرار وإطلاق حرية الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى يعلم الناس جوهر الإسلام الخالص من الشوائب ويدخل الناس في دين الله أفواجًا .

وهكذا بدأت الرابطة في تولي مهامها في التخطيط والتنفيذ لخدمة الإسلام وأمته وذلك عبر مؤسساتها ومجالسها التي تضم خيرة علماء الأمة الإسلامية .

بدأت الرابطة خطواتها المباركة فقننت خطوات العمل ومسيرته ووسائل

---

(١) رابطة العالم الإسلامي ، النشأة الأهداف التطلعات ، (ص٤) ، د. حسن بن علي الأهدل .

(٢) الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم برنو ، (ص٢٤٧) ، ط١ ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، د. فضل خلود الدكو .

تنفيذه سواء المساجد والأئمة أو الدعوة والدعاة والتعليم والبحوث والإعجاز القرآني والإعانات والإغاثة ، كما شملت نشاطاتها حتى البلاد غير الإسلامية وبلدان الأمة الإسلامية .

جعلت الرابطة المسجد منطلقًا حيًا لجميع ما يصلح لحياة المسلمين دينيًا ودنيويًا علمًا وعقلًا فكرًا وعملًا ؛ لكي يؤدي دوره الذي كان عليه في صدر الإسلام .

وهكذا ولدت رابطة العالم الإسلامي وأصبحت هيئة إسلامية عالمية شعبية غير حكومية وسجلت عضوًا مراقبًا في جمعية الأمم المتحدة يجتمع فيها خيرة علماء المسلمين ومفكريهم وتقيم المؤتمرات والمنتديات العلمية المحلية والدولية التي تعني بالقضايا الإسلامية والدفاع عن مقدسات الأمة .

والرابطة بواسطة المؤتمر الإسلامي العام توجه الدعوة إلى العلماء ورجال الفكر والدعوة الإسلامية في العالم أجمع على المستويين الرسمي والشعبي ، وعليه فإن الرابطة لها صفة شرعية في التحدث باسم الشعوب الإسلامية ، حيث يقوم المؤتمر باختيار أعضاء المجلس التأسيسي للرابطة ، والمؤتمر الإسلامي يتكون من مئات العلماء والمفكرين ويتناول القضايا الإسلامية ويتخذ القرارات والمواقف المناسبة تجاهها .

أحوال التعليم العربي الإسلامي في أفريقيا إبان ميلاد رابطة العالم الإسلامي «في النصف الثاني من القرن العشرين» :

جاء ميلاد رابطة العالم الإسلامي في وقت كان أغلب بلاد المسلمين تحت وطأة الاستعمار الغربي وتحت تأثيره الثقافي والسياسي، والقليل منها الذي نال

استقلاله لا زال يترنح تحت تأثير الهيمنة الغربية المتغطرسة المتكبرة المتجبرة والذين كانوا يتولون زمام أمور المسلمين لم يكونوا مؤهلين لقيادة شعوبهم بطريقة سليمة ، حيث كان إعدادهم وتأهيلهم من صنع الفكر الغربي المعادي للإسلام والمشكك في مقدرته على إدارة الحكم وقيادة الأمة إلى حياة أفضل مزدهرة ومشرقة .

حيث إن الغربيين يفشون بين الأمم بأن الإسلام دين رجعي متخلف ومنغلق ولا يأخذ بأسباب التحضر ، دين يعادي المخالفين له في العقيدة ، ولا يحترم حقوق الإنسان ويسترق الآخرين ، دين يظلم المرأة ويعتبرها من سقط المتاع .

وكان الغرب يضرب أمثلته من أسوء نماذج واقع المسلمين في ذلك الزمن من تخلف وفقر وضنك في العيش مع أن ذلك الواقع كان من صنع الاستعمار نفسه الذي أوصل المسلمين إلى ذلك الحال .

لم يكن حال التعليم في بلاد المسلمين في أفريقيا في ذلك الوقت بأحسن حالًا من أوضاعهم السائدة من التخلف والفقر والجهل ؛ لأن الاستعمار حينما سيطر على هذه البلاد بدأ بتعطيل المدارس الإسلامية وإلقاء مهمتها وأهمل العلماء وتركهم يعيشون على هامش الحياة .

وأقام نظامه التعليمي الذي يغرس في النفوس حب الدنيا ونعيمها الزائل وحب ثقافة الغرب ونمط حياته هو ، وفصل بين الدين والحكم وألغى التعليم الإسلامي من مدارسه ، فانحصر التعليم العربي في المدارس الأهلية التي تعتمد على جهود العلماء المتطوعين والدعاة المخلصين والمحسنين من المسلمين ، هذا في غياب التخطيط السليم والدعم المادي والأدبي والمعنوي .

كما أن خريجي المدارس الإسلامية لا مكان لهم في وظائف الدولة وعليهم أن يعتمدوا على أنفسهم في العيش ولا قيمة لتعليمهم الإسلامي لدى الدولة والحكام بل إنهم في نظر الدولة جهلاء لا يفقهون شيئًا .

هذه الأوضاع جعلت كثيرًا من أبناء المسلمين يهجرون التعليم الإسلامي ويتجهون إلى التعليم في المدارس الحكومية التي تدرس العلوم والمناهج الغربية الخالية من المواد الدينية .

فنشأ عن هذا الوضع جيلًا يحمل الأسماء الإسلامية ولا يعرف من الدين حلالًا ولا حرامًا ، إنهم جيل من أبناء المسلمين ينظرون إلى إخوانهم من خريجي المدارس الإسلامية على أنهم جهلة لا يفيدون ولا يستفيدون وأنهم غير قادرين على مسايرة الحياة العصرية وأنهم ليسوا مؤهلين لقيادة الأمة ، يصفونهم بالتخلف والرجعية والتزمت .

ومن هنا تتسع الهوة بين التعليم الإسلامي والتعليم الذي فرضه المستعمر فالمدارس الحكومية تدرس العلوم الحديثة مثل : الرياضيات واللغات والجغرافيا والتاريخ وغيرها من العلوم الدنيوية ولا يسمح بتعليم العلوم الإسلامية وحتى المدارس الثانوية والعليا تشترط الدولة أن يكون المتقدم لها من خريجي المدارس الحكومية .

وبما أن المسلمين لا يثقون في الاستعمار ولا في مناهجه وتعليمه ، فإنهم رفضوا التعليم في مدارسه ، وهكذا صار هناك حاجز كبير بين التعليم الإسلامي الديني ، والتعليم الغربي الدنيوي المحض .

وبمرور الزمن والسنين اتسعت الهوة بين الجيلين ، جيل خريجي المدارس الإسلامية الأهلية غير النظامية ، وجيل خريجي المدارس الحكومية النظامية

المدعومة من الدولة والمخطط لها ، فخريجو المدارس الحكومية يجدون كل الفرص السانحة للعمل في دوائر الحكومة والعيش الطيب ولا يهم إذا كانوا يعرفون شيئًا عن دينهم أم يجهلونه ، بل صار أغلبهم عونًا للمستعمر في إدارته وتنفيذ أوامره .

كل هذه الأوضاع أدت إلى تقهقر التعليم العربي الإسلامي وإلى تخلف المسلمين ، كما أن خريجي المدارس الإسلامية الأهلية ليس أمامهم بعد قضاء سنين طويلة في التعليم إلا أن يمتهنوا التدريس والدعوة إلى الله تعالى بجهودهم الخاصة دون عون من أحد أو تخطيط من جهة .

وكان العلماء المسلمون يعلمون الدين لوجه الله تعالى ويقتدون في ذلك بالسلف الصالح ، وبهذه التضحية وهذا العطاء السخي انتشر التعليم العربي الإسلامي في أفريقيا وساعد في التنمية [١] .

المدارس القرآنية في أفريقيا وأثرها في التعليم العربي [٢] :

إن أغلب التعليم العربي الإسلامي في إفريقيا إبان القرن العشرين يتمثل في مدارس القرآن الكريم المنتشرة في مدن وقرى أفريقيا وهي المصدر الأساس لتغذية المدارس الإسلامية الأهلية .

وهي الأساس الأول لتلقي الصغار من أبناء المسلمين مبادئ الإسلام الأولى وقواعد اللغة العربية وسائر العبادات حيث يذهب الأطفال إلى هذه المدارس القرآنية في فترة ما بعد صلاة الظهر إلى صلاة المغرب ؛ وذلك بعد

---

(١) الثقافة الإسلامية في تشاد ، المصدر السابق ، (ص١٥٧) .

(٢) إبراهيم صالح ، تاريخ الإسلام وحياة العرب في كانم (ص٧٧) ، ديوان سلاطين الكانم والبرنو (ص١٣١) ، أحمد بن فرتوا .

العودة من مدارسهم النظامية الحكومية .

وغالبًا ما تكون هذه المدارس القرآنية إما في منزل العالم أو مظلة قش أو تحت سقف من سعف النخيل ، وغالبًا ما تكون من غرفة واحدة كبيرة ويتوسط المعلم التلاميذ ويلقن كل مجموعة آيات من سور القرآن الكريم ويردد التلاميذ وراءه .

وفي أواخر القرن العشرين بدء كثير من هذه المدارس يطور من مناهجه إلى النظام المنهجي العلمي وأدخلت العلوم الحديثة مثل اللغات والرياضيات والجغرافيا والتاريخ ، والمنطق وعلم الاجتماع إلى جانب العلوم الإسلامية كالفقه والحديث والعقيدة والقرآن الكريم ، وأصبح كثير منها معترفًا به من قبل حكومات بلادها ونالت اعتراف وزارات التعليم فيها .

رابطة العالم الإسلامي وأثرها في انتشار التعليم العربي الإسلامي والتنمية في أفريقيا :

الحديث عن أثر الرابطة في انتشار التعليم العربي الإسلامي والتنمية في أفريقيا يستدعي منا الإشارة باختصار إلى أنشطة الرابطة المتنوعة ؛ وذلك يشمل مكاتبها ومراكزها ومدارسها ومكتباتها الثقافية ودعاتها ومساهماتها المادية في بناء المدارس وتزويدها بالكتب المنهجية وبناء المساجد ورعاية أئمتها وتزويدها بالمصاحف الشريفة والكتب الإسلامية وإقامة الدورات التدريبية للأئمة والدعاة ، وتوزيع المصاحف والكتب الإسلامية لعامة المسلمين ورعاية الأيتام ، وتأهيل المهتدين والمؤلفة قلوبهم ، وإقامة المؤتمرات والندوات العلمية المحلية والعالمية .

هذه الأنشطة في مجملها هي التي لها الإسهام الأكبر في نشر التعليم العربي الإسلامي ونشر الإسلام وحضارته والتعريف بقيمه إلى الشعوب والأمم غير الإسلامية المتباعدة الأقطار المترامية الأطراف والمتعددة الشعوب المتباينة الأعراف .

ومن هنا كان دور الرابطة هامًا وأثرها عظيمًا في مجال التعليم والتخطيط المنهجي للمدارس الإسلامية الأهلية في أفريقيا في النصف الثاني من القرن العشرين ، وكانت المدارس التي تُنشئها الرابطة للمراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية تسير على النظام المنهجي التابع لوزارات التربية والتعليم في البلدان الإفريقية .

ظهور المدارس العربية الإسلامية في أفريقيا :

لم يكن التعليم الإسلامي العربي في أفريقيا يعرف المدارس النظامية التي تسير على النظام المنهجي في بداية النصف الأول من القرن العشرين ، ونقصد بالنظامية المدارس التي يكون لها جدول زمني محدد للتدريس ومواد معينة يدرسها الطلاب وفي أوقات معينة ، وبالتالي فإن الطالب له مدة زمنية محددة يمكنه أن ينهي دراسته فيها .

وفي هذه الحالة فإن المدرسة غالبًا ما تدفع رواتب محددة للمعلمين ليتفرغوا للتدريس في الأوقات المحددة ، والطلاب يتواجدون في الفصول بينما ينتقل الأساتذة بين الفصول .

ويمكننا أن نضرب أمثلة لعدد قليل من المدارس العربية الإسلامية النظامية التي وجدت في بعض البلدان الأفريقية ، ففي نيجيريا وجدت : مدرسة

العلوم العربية في كاتسينا في عام ١٩٣٤ ميلادية وبعد فترة وجيزة انتقلت إلى كانو وظلت فيها حتى الآن .

تخرج في مدرسة العلوم العربية فطاحل العلماء ومشاهير القضاة ورجال السياسة في شمال نيجيريا الذين قادوا حركة التنمية والبناء في البلاد ، منهم الشيخ أبو بكر غومي أحد دعاة الرابطة وقاضي القضاة في الشمال ، والشيخ خضر بنجي قاضي القضاة لولاية سكتو ، والشيخ د. أحمد ليمو قاضي القضاة لولاية النيجر ، والدكتور حسن غورزو قاضي كانو ، والشيخ عبد القادر أوريري قاضي القضاة لولاية كوارا ... إلخ .

ثم كلية بايرو للعلوم العربية والإسلامية والتي تطورت إلى جامعة بايرو في كانو ، ثم مدرسة الكانمي العليا للعلوم العربية والدراسات الإسلامية في مدينة ميدغوري ولاية برنو .

ثم المعهد العربي في أغيغي بمدينة لاغوس والذي أسسه الشيخ عبد الله اللوري وقد تخرج فيه مئات من العلماء شغلوا مختلف الوظائف في الدولة .

ثم المعهد العربي النيجيري في ابادن ولاية أويو ، ومؤسسة الشيخ عبد السلام مرتضى أحد دعاة الرابطة ، والمعهد الكمالي الأدبي ، ومؤسسة الشيخ كمال الدين الأدبي وهو عالم جليل ومن فطاحل علماء الورن عاصمة ولاية كوارا .

المدرسة النظامية في سكتو عاصمة خلافة الشيخ عثمان بن فوديو ومؤسسها الشيخ مرافا سكتو وعرفت باسمه ، ولا زالت تخرِّج المئات من أبناء المسلمين في العلوم الإسلامية والعربية .

أما في جمهورية تشاد فإن أول مدرسة نظامية كانت من خلال : المعهد

العربي في أبشة والذي أنشأه الشيخ عليش عووضة في عام ١٩٤٦ للميلاد وذلك بعد تخرجه من الأزهر الشريف وعودته إلى البلاد ، وقد أنشأه على منهج الأزهر الشريف وعرف المعهد فيما بعد بالمعهد العربي الفرنسي وذلك بعد أن أُدخلت في مناهجه العلوم الحديثة ومنها اللغة الفرنسية .

وعلى الرغم من الظروف القاسية التي تعرض لها الشيخ عليش عووضة حيث كاد له المستعمرون ونفوه إلى السودان ، إلا أن المعهد واصل مسيرته بخطوات بطيئة أحيانًا ومتعثرة أحيانًا أخرى ، إلا أنه استطاع الصمود أمام كل الصعاب وحمل رسالة الإسلام واللغة العربية وتخرج فيه مئات من العلماء الذين شغلوا أماكن هامة في الدولة وشاركوا في التنمية وبناء الدولة الحديثة منهم المعلمون الأوفياء والقادة المخلصون والإداريون المحنكون والمربون الأتقياء والقضاة العادلون .

ثم مركز فيصل الإسلامي في أنجمينا الذي أنشأه الملك فيصل بن عبد العزيز ـ عليه رحمة الله ـ عند زيارته لجمهورية تشاد في السبعينيات من القرن الماضي وأسس على المنهج الحديث الذي يضم الدراسات العلمية والأدبية علاوة على العلوم العربية والإسلامية ، ويضم المرحلتين الإعدادية والثانوية العليا للبنين والبنات وكان هذا المركز هو النواة الأولى لقيام جامعة الملك فيصل الإسلامية في أنجمينا لتستوعب خريجي المدارس العربية الإسلامية العليا ، بل صارت الآن تستوعب طلابًا من أكثر من عشرين دولة إفريقية .

من هذا العرض الموجز يتضح لنا أن أحوال التعليم العربي الإسلامي في إفريقيا متشابهة من حيث الافتقار إلى التنظيم والتخطيط والتمويل ، علاوة على ما يواجهه من العقبات المستعصية والحرب الشعواء من قبل مجلس

الكنائس العالمي المخطط له ، والمدعوم من قبل الدول الغربية المستعمرة المسيطرة على القارة وثرواتها ، ومحاربة التعليم العربي الإسلامي ومحاربة المثقفين باللغة العربية وحرمانهم من الوظائف في الدولة ومحاربتهم في أرزاقهم والتنكيل بهم ووصمهم بالجهل والجمود وعدم الأهلية العلمية وعدم صلاحيتهم للقيادة في الحياة العامة .

ومع كل هذه الظروف فإن مجموعات كبيرة من أبناء المسلمين [1] في أفريقيا شدوا الرحال إلى البلاد العربية الإسلامية طلبًا للعلم والثقافة مع ما في الرحلة من مشاق ومخاطر وأغلبهم لا يحمل حتى الوثائق اللازمة للسفر مع قلة الزاد والخبرة ، لكن مع كثير من الإيمان وقوة العزيمة .

هذه المجموعات الشابة من أبناء المسلمين القادمين من أفريقيا وجدوا كل الدعم والعون المادي والأدبي من إخوانهم في البلاد العربية ، وفتحت لهم أبواب المدارس والمعاهد العليا والجامعات وخصصت لهم المنح الدراسية والتحقوا بجميع المؤسسات التعليمية ، وتخرج مئات منهم في جامعات مصر وأزهرها الشريف وفي أرض الحرمين الشريفين وجامعة المدينة المنورة وجامعة الإمام في الرياض وأم القرى في مكة المكرمة .

وفي جامعات ليبيا ومعاهدها في البيضاء وزليطن وطرابلس والجغبوب

---

(١) من هذه المجموعات كاتب هذا البحث الذي واصل رحلته في طلب العلم سيرًا على الأقدام وعلى أظهر الدواب لمسافات امتدت للآلاف الأميال وصولًا إلى مصر بلد الأزهر الشريف والدراسة فيه والتتلمذ على علمائه ابتداء من المرحلة الثانوية العليا وانتهاء بمرحلة العالمية «الدكتوراه» في كلية اللغة العربية قسم التاريخ والحضارة الإسلامية ثم عاد مباشرة بعد تخرجه ليعين أستاذًا محاضرًا في الجامعة وكانت رحلة طلب العلم محفوفة بالمخاطر والآلام ومليئة بالآمال والصبر على فراق الأهل والأحباب والوطن .

وكلية الدعوة في بنغازي وفي جامعات المغرب والجزائر وجامعات السودان ومعاهدها العليا جامعة أم درمان الإسلامية والجامعة العالمية ومعهد اللغة العربية لغير الناطقين بها ، تخرجت مجموعات غفيرة في شتى العلوم والمعارف بما فيها العلوم الحديثة كالطب والهندسة والزراعة إلى جانب الدراسات الإسلامية واللغة العربية .

وهذه المجموعات هي التي أثمرت كثيرًا من خلال التحاقها للعمل مع المنظمات الإسلامية الخيرية غير الحكومية التي أفسحت لهم المجال وضمنت لهم لقمة العيش الكريم وأعانتهم على أداء رسالتهم الدينية والعلمية نحو مجتمعاتهم والمساهمة في التنمية الحقيقة في أفريقيا .

ومن هنا يبرز دور رابطة العالم الإسلامي كما سبق أن أشرنا وأثرها العظيم في احتواء الجموع الغفيرة من خريجي الجامعات الإسلامية من أبناء أفريقيا في شتى تخصصاتهم لخدمة أمتهم وأوطانهم ، فمنهم الأطباء الذين تولوا مهنة التدريس في المدارس الإسلامية الأهلية وأسهموا في مهمة صياغة مناهجها الدراسية ، حتى تواكب متطلبات العصر وحتى تنال اعتراف الحكومات ووزارات التعليم فيها ، بحيث يكون المنهج شاملًا للعلوم الإسلامية والعلوم المدنية الحديثة ، وبذلك يضمن الطالب المتخرج من تلك المدارس إمكانية الالتحاق بأية جامعة يرغب فيها سواء الأقسام الأدبية أو العلمية .

أهم إنجازات الرابطة وأثرها في انتشار التعليم العربي الإسلامي والتنمية في أفريقيا :

إذا أردنا أن نعدد الإنجازات التي حققتها رابطة العالم الإسلامي في مجال

التعليم العربي الإسلامي سيطول بنا المقال ؛ لذا سوف أختصر على ذكر بعض الجوانب الظاهرة والتي تتمثل في الآتي :

١ـ دعم التعليم العربي الإسلامي ماديًا وأدبيًا وذلك بالمساهمة في تعديل مناهج المدارس الإسلامية وهو المنهج الذي يشمل العلوم الحديثة علاوة على العلوم الإسلامية والعربية .

٢ـ تزويد المدارس العربية بالكتب المنهجية وإعانتها بالمعلمين الأكفاء ليقوموا بالتدريس فيها والتكفل بدفع رواتبهم .

٣ـ استيعاب المئات من خريجي الجامعات الإسلامية في العلوم العربية والإسلامية للتدريس في المدارس والمعاهد الإسلامية في إفريقيا .

٤ـ تعيين المئات من الدعاة وإرسالهم للوعظ والإرشاد في البلاد الإفريقية يُبصِّرون المسلمين بأمور دينهم .

٥ـ تعيين الأئمة في عشرات المساجد ليقوموا بإمامة المسلمين في صلوات التراويح والتهجد في شهر رمضان والرد على أسئلة المصلين .

٦ـ رعاية الأيتام وتعليمهم ليشبوا مسلمين صالحين لخدمة أمتهم الإسلامية .

٧ـ تقديم المنح الدراسية للمبرزين من خريجي المدارس الإسلامية الأهلية النظامية ؛ لإكمال دراستهم بالجامعات الإسلامية في البلاد العربية .

٨ـ رعاية المهتدين وتعليمهم أمور الدين ، وإعدادهم ليقوموا بتعليم قومهم وهدايتهم إلى الدين الحق .

٩ـ تزويد المسلمين في أفريقيا بالمصاحف وترجماتها إلى الفرنسية

والإنجليزية ولغة الهوسا ولغة اليوربا الأمر الذي رفع من المستوى الثقافي والاجتماعي بين المسلمين في أفريقيا .

١٠ـ إقامة الندوات العلمية والدورات التدريبية لتأهيل الدعاة والمعلمين وأئمة المساجد .

١١ـ دعوة بعض الشخصيات الهامة في المجتمع إلى حضور مؤتمر الحج واستضافتهم ليلتقوا بإخوانهم المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، يتبادلون معهم الآراء والأفكار حول شئون الإسلام والمسلمين .

١٢ـ إقامة المنتديات الثقافية في البلاد التي للرابطة فيها مكاتب أو مراكز وإقامة علاقات ثقافية واجتماعية لتقوية العلاقات بين الجاليات الإسلامية .

١٣ـ تنفيذ إفطار صائم للأسر الفقيرة في شهر رمضان ، وكذلك برامج إفطار صائم لعامة المسلمين في المساجد العامة ، وهو أمر يقوي صلات الأخوة والمحبة بين المسلمين وبين الأغنياء والفقراء والمساكين .





فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

*****